دوحة الأيام

نشوان زيد علي عنتر

دهاليز الأيام

(رواية)

بقلم :

نشوان زيد علي عنتر

٢٠٢٢م

الإهداء

إلى طفولتي البريئة الضائعة منذ عام ١٩٩٤م حتى وقتنا الحاضر

..... المؤلف

الدهليز الأول

أخلاق سيس

لم يكن يتوقع مارد الثورة الشامخ المنتصب في قلب ميدان التحرير منذ عام ١٩٦٢م بأنه سيحظى بزيارة أحد الناس إليه خلال منتصف الظهيرة رغم شيخوخته المبكرة و إهمال القائمين عليه المتعمد له و عزوف الناس عن زياراتهم المتكررة له هذه الأيام و لا سيما في عيده الوطني الموافق يوم السادس و العشرين من سبتمبر من كل عام لحظة دكه آخر معاقل النظام الأمامي البائد عبر النيران المتصاعدة من فوهة مدفعه الثوري معلنا قيام عهد جديد و مستقبل زاهر لكل اليمنيين آنذاك حيث لم يكن هذا الزائر المتطفل سوى مازن غافر بجولاته العبثية بلا هدف محدد ، لكنه لم يكن يعلم ان هذا الزائر العابس أتى إليه ليشكي همومه لا ليلتقط له الصور التذكارية أمام مقامه الثوري الرفيع كما جرت العادة معه و مع غيره من الزوار المتيمين به ، فلم يعد أحد يكترث بزيارته منذ أربع سنوات مضت على قيام وحدتنا المباركة ، سيما بعدما تصديقهم الأعمى للإشاعات المغرضة المتعلقة كما هي عادة أهل هذه البلاد للإشاعات و أكاذيبها المفتعلة بإحالته إلى التقاعد و رميه في خزائن المتحف الحربي المهملة إلى غير رجعة ، جلس مازن بمحاذاته خلسة بعيداً عن أعين حارسيه الغافلين المشغولين بمضغ

أكـوام مـن القـات عمـداً و أنظـارهم المتراخيـة إمـا لانهـم سـئموا مـن خدمتـه و حراسـته الدوريـة و إمـا مقابـل رشـوة ماليـة أو ربطـة قـات رخيصـة عـل و عسـى تنسـيهم همـومهم المصـطنعة مـن قـبلهم ، و بـدأ يشـكي همومـه و خـواطره الغريبـة الأطـوار التـي طـرأت عليـه مـؤخراً الواحـدة تلـو الأخـرى (يـا مـاردي العظـيم و مثلـي الأعلـى فـي إسـتلهام الشـموخ و الصـمود و الثـورة مـن إرادتـك الحديديـة الصـلبة ، أشـكوا إليـك همـومي و نكبـاتي التـي أقضـت مضـجعي لأعـوام مضـت دون أن أجـد لهـا تفسـيراً مقنعـاً أو حـلاً شـافياً ، مـن أيـن أبـدأ لـك ؟ هـل مـن طفـولتي المبكـرة و عثراتهـا البسـيطة لتتحـول لاحقـاً عـن طريـق أهلـي و مجتمعـي الغـريبين إلـى تـلال متراكمـة مـن العقـد الإجتماعيـة و النفسـية أم مـن إلتحـاقي بالمدرسـة التـي كنـت أفـر منهـا مـراراً و تكـراراً و تحـولي عبـر أروقتهـا الإسـمنتية الشـاحبة اللـون مـن النقـيض الـى النقـيض ؟ أم تحـولي خـلال مراهقتـي الأولـى مـن مـلاك طـاهر إلى شيطان مريد رغما عني ؟)

(إبدأ من حيث ما تراه مناسبا)

(أخشـى أن أطيـل عليـك الكـلام و أهـدر وقتـك الثمـين بهـراء لا طائـل منـه بالنسبة لك)

(هههـه ، مـن يسـمعك الأن يـا بنـي يعتقـد أنـي مشـغول للغايـة حتـى أخمـص قدمي لدرجة عدم تفرغي لحكهما أو فركهما بالمرة)

(و مع ذلك أفضل رأيك في الموضوع لأني متوتر للغاية و لا أعرف من اين أبدأ في تجميع شتات أفكاري المتضاربة و البوح بها أمامك !)

(إبدأ من الأخير يا بني)

(و هو كذلك أيها المارد ، سأبدأ منذ مطلع العام الدراسي الجديد بعد حصولي على الشهادة الإبتدائية و انتقالي الى الصف الاول من المرحلة الإعدادية .

كانت أول مرة يأتي فيها إلينا مدرس للغة الإنجليزية من العراق الشقيق و لاسيما إثر حرب الخليج الثانية ليحل محل أستاذنا الباكستاني شفيق نيازي بعد شهرين من بداية النصف الأول للصف الأول الإعدادي أو الصف السابع من المرحلة الأساسية بمدرسة الأمجاد الأهلية الواقعة قبالة الهيئة العامة للبريد ، في البداية كنت أظنه سورياً أو أجنبياً لشعره الأشقر و عيناه الزرقاوان و بشرته البيضاء المائلة إلى التورد التي لم نعهدها بهذا الشكل من قبل ، علاوة على أنه قليل الكلام كثير الرمز سواء في مخاطبته لنا أو شرحه للدرس .

على العموم ، بدا أستاذنا صلاح و هذا هو إسمه الذي عرفناه في رمضان الفائت بأول درس له في صفنا بعد سلمه الأستاذ شفيق المهمة أمامنا أمام اعتراض مؤدب على تركه لنا ، فسرعان ما بدأت المضايقات

لـــه خـــلال الـــدرس بشـــكل خفيـــف ، حـــديث جـــانبي أو لعـــب بـــالورق أو تناول بعض القرع ، لكنه تمالك أعصابه و تعامل مع الموقف برويه .

ظـــل يترقـــب كـــل دقيقـــة و ثانيـــة أي تصـــرف مريـــب يصـــدر مـــن أحـــد زملائنـــا فـــي الصـــف الـــذين بـــدأوا يتململـــون مـــن وجـــوده و يســـتثقلون طريقتـــه فـــي التـــدريس حيـــث كـــانوا يحنـــون لســـلفه الأســـتاذ شـــفيق بشـــوق جـــارف لا أعلـــم لمـــاذا ؟ ســـيما و أن الأخيـــر كـــان أشـــد قســـوة و عنفـــا و يجـــرح مشـــاعرنا بألفاظـــه البذيئـــة نوعـــا مـــا ، إلا إنـــه كـــان يمتـــاز عـــن الأســـتاذ صـــلاح بموهبتـــه فـــي شـــرح الـــدروس و لـــو باللغـــة الإنجليزيـــة و قدرتـــه عـــل إيصـــال المعلومـــة إلى أذهاننا و فرض النظام داخل الصف .

الأمـــر ســـيان بالنســـبة لـــي ، فالأســـتاذ هـــو الأســـتاذ بغـــض النظـــر عمـــا إذا كـــان الأســـتاذ شـــفيق أم نظيـــره صـــلاح فيجـــب إحترامـــه و الإنصـــات التـــام لـــه وقـــت الـــدرس و الإلتـــزام بـــأوامره و نواهيـــه دونمـــا أي إعتـــراض ، هـــذه كانـــت شخصـــيتي الخاصـــة قبيـــل تبـــدلها نحـــو الأســـوأ فـــي النصـــف الثـــاني مـــن الفصل الدراسي من العام نفسه .

بـــدا الأســـتاذ صـــلاح يكتـــب علـــى الســـبورة بالطبشـــور الأبـــيض الـــدرس المتعلـــق بالجهـــاتdirections بالإنجليزيـــة كفـــوق – تحـــت – بجانب – خلف – أمام – بين ..... الخ .

و أذكر أني درسته في الصف الخامس الإبتدائي بمدرسة صنعاء الأهلية عام ١٩٩١/١٩٩٢م دون أن أكترث له كثيرا آنذاك .

عندما بدأ يشرح الدرس سرعان ما ساد الهرج و المرج مجدداً داخل الفصل و لاسيما في الصف الأول المجاور لصفي من ناحية اليمين حيث يتواجد فيه الثلاثي المرح و الفظ في آن معا من وجهة نظري و على رأسهم أمير القعطبي رئيس الفصل و زميلي في الصف السادس الإبتدائي على الرغم من أن لهجته الجلفة و تصرفاته السيئة الطباع مع القليل من المرح الزائف لا تدل على أنه من مدينة قعطبة جنوب محافظة إب آنذاك ، إضافة إلى زميليه منصور الأنسي الذي يعد من الطلاب الأذكياء رغم طبعه المشاغب في بعض الأحيان و أنور الصربي الذي يعاني من ضعف بالسمع و التركيز على الشرح ، فإستشاط غضباً منهم ضارباً بعصاه الخشبية على أحد الأدراج القريبة منها و مخيفاً الطلاب بصوتها الشديد و صارخا في وجههم و بالتحديد فواز و جماعته بلهجته العراقية :

(بس ، شنو هذا ؟ منو هذا اللي بيسوى إزعاج و يغرغر بالكلام جوات الفصل ؟ إنت)

(أنا يا أستاذ ؟!)

(إيه إنت ، أوقف ..... ليش تتكلم ؟)

(و الله ما تحاكيت يا أستاذ)

(و لك أنا شايفك عم تحتجي مع اللي يمك)

(ما بلا يا أستاذ كنت بأقرأ الكلمات الذي بالدرس و بأسأل الذي جنبي كيف ينطقوها بس)

(خلص ، اقعد ، مو معقول تجذي ، كل يوم كلام ، كل يوم إزعاج ، كل يوم فوضى ، أخلاق سز)

إسترعى إنتباهي الكلمة الأخيرة من كلامه الغاضب إلا و هي (سز) في البدء ظننتها إنجليزية و حاولت جاهداً معرفة من خلال أبي الذي كنت أعده مثلي الأعلى في كل شيء قبل أن أتمرد عليه فيما بعد ، و من خلال قاموس أكسفورد الشهير و لكن دون جدوى ، و فجأة تذكرت قصة للأديب المصري الراحل محمود تيمور مقررة علينا في مادة اللغة العربية إلا و هي قصة (القطار) و فيها يشتم أحد أبطال القصة بطلها الرئيسي بكلمة أدب سيس و في الهامش تعني بلا أدب باللغة التركية ، و هذا كشف لي بأن ((سز)) هي في الأساس سيس و يقصد بها بلا أو عديم أو بدون و لكن ليست بالإنجليزية ، و حينها كنت أتسأل عن سبب إصرار الأستاذ صلاح على تكرارها حينما يغضب منا ؟ أهو من قبيل المصادفة ؟ أم هي عادة متأصلة فيه خلال توبيخه المشاغبين أيا كانوا و هو يشرح الدرس لهم ؟ أم هي من

المفـردات التركيـة الراسـخة فـي اللهجـة العراقيـة ورثهـا سـكان الرافـدين مـن حكامهم العثمانيين فيما مضى ؟ ... الخ .

كـان أسـلوبه فـي التـدريس غريبـاً إلـى حـد مـا ، فنبـرة صـوته هادئـة و ضـعيفة أثنـاء الشـرح أو حتـى عنـد التـوبيخ ، عكـس الضـجيج الصـاخب التـي تحدثـه مواطنتـه مدرسـة الرياضـيات حينمـا تصـرخ فينـا لمجـرد عـدم إخـراج الـدفاتر لكتابـة دروسـها المملـة و الصـعب فـي آن معـا بالنسـبة لـي ، و لا يسـتخدم العصـا مـراراً و تكـراراً كمدرسـي اللغـة العربيـة و العلـوم و كلاهمـا مـن مصـر ، و لـيس ثرثـاراً إلـى حـد أن يـبح صـوته مـن كثـر النـداء كمواطنتـه مدرسـة الإجتماعيـات و زميلـه مـدرس التربيـة الإسـلامية ، و لـيس جافـاً فـي تعاملـه مـع الطـلاب كمدرسـتي الجزائريـة للغـة الفرنسـية منـذ الصـف السـادس الإبتـدائي ، لقـد كـان صـنفاً فريـداً مـن نوعـه لـم أر لـه مثيـل مـن قبـل خـلال دراسـتي النظاميـة فـي مدرسـتي صـنعاء و الأمجـاد الأهليتـين علـى حـد سـواء ، فضـلا عـن عـدم إمتلاكـه ثقـة عاليـة بنفسـه خـلال تدريسـه للمـادة أو حتـى تنظـيم طـابور طويـل قبالـة إحـدى النوافـذ الضـيفة للمقصـف الوحيـد و المتواضـع فـي المدرسـة بأكملهـا و أيضـا القريـب مـن السـاحة العامة و أتربتها و حصواتها السوداء .

الدهليز الثاني

نبوغي الأدبي المبكر

في تلك الآونة أضحيت فجأة مولعاً بالأدب و القصص و المجلات الأدبية و لاسيما المحلية منها منذ العطلة الصيفية منتصف العام ١٩٩٣م حتى هذه اللحظة ، فكنت أطالع بنهم شديد مجلات العربي و الدوحة و الفيصل و الكويت و المنابر و اليمن الجديد و المعرفة و الكلمة و الغد و الجيل و المختار و الهلال و الحكمة و آفاق عربية بمختلف أعدادها حيث كنت أنقب عنها بين ثنايا مكتبة والدي المتواضعة المكتظة بها عشوائيا منذ الصباح الباكر مقلبا صفحاتها الملونة بحثا عن الكلمات لا الصور كما هي عادتي من قبل ، باحثا عن القصص و القصائد الشعرية و المقالات الأدبية المتنوعة مفتونا بالأسلوب الرشيق و الراقي لمؤلفيها العظام مما دفعني إلى أن أحذو حذوهم في مسيرتي الأدبية الواعدة التي بدأت بقصة (أسوار المجد) و هي أول قصة قصيرة لي و مسرحية (دموع اشبيلية) و هي أول مسرحية ، و رواية (أمير الجبل السعيد) و هي باكورتي الروائية و خلال عام واحد فقط .

ليس هذا فحسب ، بدأت أبحث بنهم شديد عن المجموعات القصصية و الروايات و الدواوين الشعرية التي إقتناها والدي و شقيقتي

الكبيرة رباب اللذان كانا بالنسبة لي الدافعان الأساسيان لولوج هذا العالم الساحر و لاسيما الأخيرة التي كانت مثلي الأعلى في تفضيل النشر على الشعر عندما قدمت لي في الصف السادس الإبتدائي و قبيل دخولها القفص الذهبي بشهرين عدداً خاصاً بالقصة العربية الحديثة من أعداد كتاب العربي يحتوي في طياته على روائع قصصيه من الأدب العربي الحديث أضأت كلماتها صفحات مجلة العربي منذ فجر تأسيسها عام ١٩٥٨م حتى منتصف الثمانينات بالرغم من عدم إحتضانها بين سطورها المنيرة قصصا مماثلة لكتاب من بلدي السعيد لا من قريب أو من بعيد إلا أنها أنارت الطريق لي كي أصبح قاصاً واعداً في المستقبل القريب ، بل إني أقبلت على بعض من مقتنياتها من الروايات العالمية خلال دراستها الإعدادية رغم غموضها و بنائها الدرامي المعقد كروايات غابرييل غارسيا ماركيز و أجاثا كريستي و الكسندر دوماس ، كما حازت الروايات و القصص المحلية على نصيب وافر من اهتماماتي القصصية و الروائية المبكرة النادرة كماً الزاخرة بإبداعاتها نوعاً حيث كانت تتنبأ بمستقبل عظيم لفن الرواية و القصة القصيرة في العربية السعيدة لا يقل شأناً عن نظرائها في العراق و سوريا و لبنان و فلسطين و مصر و السودان ، فمن يطالع أعمال مثلي الأعلى محمد عبدالولي و علي احمد باكثير و حسين سالم باصديق و

زيد مطيع دماج كما أطلعت عليها سابقاً سيدرك حقيقة ما أقصده تماما .

لكن هذا العالم المفعم بالخيال و السحر و الجمال بدأ يلهيني عن دراستي شيئا فشيئا ، فلم أعد أكمل كتابة واجباتي المدرسية و لا أستذكر دروسي من أجل الإمتحانات الشهرية و الفصلية على حد سواء بعدما كنت من أبرز المتفوقين من بين أقراني في الصف السادس الإبتدائي حيث كنت أنال الدرجة النهائية في كافة المواد بمن فيها عدوي اللدود منذ طفولتي مادة الرياضيات ، و أحتل المركز الأول بين زملائي على الدوام إلى حد أن هذا التفوق العارم جعلني أصبح الأول على مستوى شعب الصف السادس الإبتدائي في المدرسة بأسرها خلال النصف الأول من السنة الدراسية ، فلم أبال بنتائج الإمتحانات و لا بملاحظات المدرسين إلى حد التوبيخ لي بتاتاً ، فلقد ساد عقلي شعور سلبي حيال التعليم الذي كنت أتلقاه في المدارس بأنه عديم الجدوى في ترسيخ العلوم المختلفة داخل عقلي إلى الأبد حيث سرعان ما يتبخر كل ما إختزناه في ذاكرتنا من معلومات طيلة سنوات دراستنا إلى سماء العدم ، كما أني سئمت من أسلوب التدريس التقليدي المعتمد على التلقين و الحفظ بدلاً من الفهم و الإستيعاب و تطبيق ما تعلمته على أرض الواقع ، ما جعلني أمقت حفظ أي شيء

أطالعه في الكتب بمن فيها القصائد الشعرية و القران الكريم و تواريخ الأحداث التاريخية على مر العصور .

بل إنني لم أبال بتفوق زملائي المنافسين لي منذ الصف السادس الإبتدائي كمروان الحرازي و نديم عومان علي و لاسيما الأخير الذي ساعدته بكل طيب خاطر مراراً و تكراراً في اللغة الإنجليزية و الإجتماعيات و برز فيهما بشكل غير عادي مطلع السنة الدراسية الجارية دون توقف حيث بدأ يشق طريقه فيهما عفريتاً جامحاً خرج من قمقمه السليماني[1] يسعى لتعويض ما فاته من آمال و طموحات كامنة فيه منذ سنوات .

المهم ان الأستاذ صلاح دخل إلى الفصل كعادته بسرعة البرق غير آبه لوقوفنا احتراما له حيث امرنا بإشارة من سبابته السميكة المتوردة و المليئة بالتجاعيد ان نجلس فورا ليبدا معنا درسا جديدا يتعلق بالقراءة و النصوص الأدبية حيث قرا لنا قصة الضفدعة الأم التي نفخت بطنها إلى حد الانفجار ، لكن العديد من زملائي و على راسهم المشاغبين طالبوه بترجمتها للعربية حتى يستوعبونها جيداً ليقابلهم الأستاذ صلاح بالرفض و بمنتهى الغضب و التوبيخ معللا بوجوب دراسة اللغة الإنجليزية بالطريقة التقليدية أي دون ترجمة ، و مع ذلك تراخى قراره

[1] نسبة إلى نبي الله سليمان عليه السلام (المؤلف) .

قليلاً و بدأ يترجم بعضا من محتوياته و ما لبث أن غير رأيه إثر مبالغة الزملاء المشاغبين في غوغائيتهم المفتعلة بحقه صارخا بوجههم :

(بس !! كافي !! انتو ما تستحون على حالكم تجذي ؟!! لا متى بتظلوا على قلة الأدب و الفوضى هاذي ؟!!! أخلاق سز)

نفس العبارة الغريبة و المضحكة كررها على مسامعنا مجدداً دون أن يستوعب بقية الطلاب فحواها أيضا ، لم أكترث لصراخه ساعتها ، فلقد كان إمتحان اللغة العربية يشغل تفكيري كله سيما و أنه سيجري في الحصة التالية من نفس اليوم دون أن أستذكر درساً واحداً من المقرر جيداً حيث لم أفتح الكتاب بالمرة منذ البارحة ، و هذا ما زاد الطين بلة ، فأنا أرغب بالحصول على الدرجة النهائية للإمتحان و إلا سأواجه بغضب عارم من أستاذ المادة الذي سرعان ما أضحى عنيفاً تجاهي في الآونة الأخيرة و لو على سبيل المزاح أو الإطراء ، كان اسمه محمود إسماعيل كما ذكره لنا لحظة مجيئه مدرسا جديدا للغة العربية في الصف الأول الإعدادي و من دون لقب كما هي عادة المصريين من سكان المدن الكبرى لا الأرياف ، في البدء إستلطفته كثيراً عندما رأيت وجهه البشوش و طريقة معاملته اللطيفة لنا خلافاً لسلفه و نظيره السوداني الأستاذ عمر فضل الله الذي إتسم أسلوبه بالسادية و عدم الإحترام لنا و نحن في الصف السادس الإبتدائي في

حال غضبه على الرغم من طبيته الغامرة الخادعة التي إستهل بها عامنا الدراسي آنذاك و هذا ما زاد من مخاوفي القادمة نحوه ، كما أن آراءه الخاصة التي كان يعبر عنها خارج إطار الدرس أو بعد انتهائه أوحت لنا بما لا يدع مجالا للشك بأنه من الإخوان المسلمين الذين هاجروا إلى الشطر الشمالي من الوطن قبل الوحدة من مصر منذ الثمانينات و تحت رعاية نظرائهم الشماليين و تمويل من المملكة العربية السعودية بعدما أضحوا يخدمون أجنداتها السياسية الخارجية ضد نظام الرئيس الراحل جمال عبدالناصر (١٩٥٤ – ١٩٧٠م) الذي قمعهم و إضطهدهم في عقدي الخمسينيات و الستينيات و ضد النظام الشيوعي في الشطر الجنوبي من الوطن (١٩٦٩ – ١٩٩٠م) .

و لم يكن هو الوحيد الذي كان يقلقني تصرفاته ، فلقد كان هناك مدرسين جديدين بديلين ظهرا في أواخر النصف الأول من السنة الدراسية ، أحدهما مصري و اسمه الأستاذ مهنا يوسف حل محل نظيره اليمني الطيب القلب نوعا ما في تدريس التربية الإسلامية عفيف جابر و الثاني عراقية و إسمها على ما أعتقد إيمان حلت محل نظيرها المصري البارد الأعصاب الهاديء هدوءً يسبق العاصفة رمزي دون أن نعرف السبب المفاجئ لتغييرهما من قبل إدارة المدرسة حيث لم يبدر منهما أي تقصير في واجباتهما الوظيفية و ان كان السبب الرئيسي معروف ، فهي مدرسة خاصة تخضع لرغبة مموليها و على رأسهم رئيس

مجلس النواب عبدالله بن حسين الأحمر حيث كان واحد من أبنائه ألا و هو همدان يدرس معنا و يمتاز بخموله و كسله المفرط إلى حد تعرضه للعقاب الشديد من مدرس اللغة العربية مراراً و تكراراً قبل أن يختفي عن أنظارنا في النصف الثاني من السنة حسب علمي .

خلاصة القول بأني لم أسترح نفسيا للمدرسين الجديدين ، فكلاهما من ذوي العظم الأزرق[٢] حيث كانا أسوا من سلفهما و لاسيما الأستاذة إيمان المعروفة بتعجرفها و عصبيتها و عنفها السادي ضد الطلاب على الرغم من أنها في ريعان شبابها ، أما الآخر فلا يفرق بين الجد و اللعب مع عدم إخلاص كامل لمهنته المقدسة و التي من خلالها يدرسنا بأسلوب أزهري[٣] ممل عفا عليه الزمن ، لتبدأ معهما مرحلة جديدة من الدراسة دفعتني في الأخير إلى مقت العلم و التعليم طوال عمري .

[٢] مصطلح طبي نفسي يطلق على الناس العصبيين أو الذهانيين (المؤلف) .

[٣] نسبة إلى الأزهر الشريف في مصر (المؤلف) .

الدهليز الثالث

مرض والدتي

كانت المرة الأولى التي أعيش فيها بالمنزل لوحدي مدة يوم كامل حيث أضحى أبي و إخوتي زوارا دائمين لمستشفى الكويت كل يوم جمعة بعد نقل والدتي إليه لإجراء الغسيل الكلوي لها بعدما عانت معاناة شديدة منه دون جدوى خلال الأيام الأولى من مطلع عام ١٩٩٤م و إن كنت من قبل قد إعتدت على هكذا وضع خلال فترة العطلة الصيفية حينما كان يتركني الجميع في المنزل بمفردي في كل واد يهيمون ، فوالدتي كانت حينها تذهب إلى إحدى مناسبات التفرطة[٤] المعتادة عليها دون كلل أو ملل دون أن أعرف السبب حيث تطلب مني الإنتباه جيدا على البيت و رعايته ، أما والدي يذهب دوما إلى إحدى المقايل و هي جمع مقيل النسخة الذكورية من التفرطة رغم إشتراكهما المقيت في طقوس مضغ القات و تدخين المداعة [٥] و الثرثرة الفارغة السائدة و تبادل الإشاعات المغرضة و أحاديث القيل و القال و الغيبة و النميمة لدى الحاضرين و الحاضرات دون حياء أو خجل بغرض قتل الفراغ الهائل الكائن في صدورهم المريضة بأشياء سلبية و هذا ما أثر على صحتيهما كثيرا ، أما إخواني فأضحوا يذهبون

[٤] مجلس النساء الأرضي في البيوت التقليدية داخل صنعاء و ضواحيها (المؤلف) .

[٥] شيشة محلية الصنع تصنع في أسواق صنعاء القديمة (المؤلف) .

إلى مدرسة التحفيظ بالمسجد المجاور لنا من ناحية أقصى الشمال و المعروف بمسجد الحشوش الذي يتسم القائمين عليه بالتعصب المذهبي و السلالي للمذهب الزيدي و هذا ما دفعني إلى تركه في أواخر عام ١٩٩٢م حيث لم أشعر بالإرتياح الشديد لمنهج التعليم التقليدي فيه .

في تلك الأوقات كنت أستغل الفراغ الناجم عن غيابهم بمشاهدة التلفاز أو كتابة روايتي الثانية (الهندية البيضاء) التي بدأت فيها إثر إنتهاء الإمتحانات الفصلية الأولى قبل أن أنغمس بتقليب مكتبة والدي الصغيرة رأسا على عقب بحثا عن الأعمال الروائية و القصصية المحلية و العربية و الأجنبية دون توقف من رغبتي الجامحة تدفعني لذلك و إن كانت تثير غضب والداي و بالأخص أمي التي لا يعجبها العجب و لا الصيام في رجب كما هي عادتها و كما عهدت تصرفاتها منذ طفولتي ، فلم تكترث أيما إكتراث لموهبتي الأدبية المبكرة و كان يهمها حسب رأيها إن أولي إهتماما كافيا بدراستي و لا أسمح لأي شيء آخر أن يشغلني عنها رغم أني فيما مضى كنت أستذكر دروسي أثناء مشاهدتي للرسوم المتحركة من على شاشة التلفاز في الوقت ذاته ، و مازلت أتذكر ذلك اليوم حينما عرضت على والدي نتيجة إمتحان الإجتماعيات الشهرية و التي كانت متدنية جدا و تثير الخجل أدخلتني في معمعة مشاجرة معهما هي أول مرة تحدث معي في حياتي .

لم أفكر بزيارتها إلى المستشفى حتى بعدما تجاوزت مرحلة الخطر و كنت أتحجج دوما أمام والدي بأعذار واهية حتى أمكث في البيت إلى أن قرر إصطحابي عنوة إلى هناك في الجمعة الأولى من عطلتي المدرسية إثر إمتحانات الفصل الأول كما أسلفت من قبل ، كان يوما فريدا من نوعه لا يزال ثراه محفورا في ذاكرتي إلي يومنا هذا حيث خرجنا جميعا من المنزل مبكراً قبيل آذان الظهر و قرر والدي أن نصلي في إحدى المساجد القريبة من مستشفى الكويت الكائن بإحدى الأزقة الضيقة الطويلة المتفرعة من تقاطع شارعين متصلين بالشارع الرئيسي الواقع قبالة المعهد الوطني للعلوم الإدارية و المعروف باسم شارع وزارة العدل أو شارع العدل كما يحلو للعامة في صنعاء تسميته كنوع من السخرية و التندر أو الذم بصيغة المدح من أشياء لا يحبونها دون أن يصرحوا بذلك ، فلقد إرتبط هذا الشارع بوزارة العدل الكائنة فيه و التي من المفترض أنها تقيم العدل في أرجاء صنعاء و بقية المدن اليمنية بأسرها لكن التجاوزات القانونية و المظالم الناجمة من القضاة العاملين فيها حولها بنظر الناس و من بينهم والدتي إلى وزارة الظلم و الفساد و إن كان كلاهما سمتان أصيلتان من سمات مجتمعنا العظيم على مر العصور ، ما علينا يبدو إنني أطلت الحديث في الأمر الذي لا يعنيني كثيرا ، المهم أننا أدينا صلاة الظهر في هذا المسجد و خلال إستماعي لخطبة الجمعة المملة كالعادة و المكررة إلى حد الغثيان في

أي مسجد من مساجد صنعاء بعدما تسيسها من قبل القائمين عليها بعد وحدتنا المباركة لفت إنتباهي أستاذي لمادة العلوم المصري الذي حلت محله الأستاذة إيمان كما أسلفت من قبل مرتديا جلباباً ناصع البياض من إحدى النوافذ المطلة على الصوح[٦] كما هي عادة المصريين الذين يريدون محاكاة سكان اليمن الشمالي و دول الخليج العربي ذوو العقلية التقليدية المتخلفة المفتعلة دون أن أسعى لمقابلته و تحيته حتى بعد الصلاة ، و أثناء خروجنا من المسجد قابل شقيقي الأكبر صالح أستاذهم للغة الإنجليزية في الصف الثالث الإعدادي أحمد الأنسي أمام بوابة الخروج ليدور حديث ملؤه الشوق و الذكريات فيما مضى و لينضم إليهم أخي الأوسط مرشد دام دقيقة و نصف ، و بعد ذلك ندخل بوابة مستشفى الكويت الشاحبة اللون و التي لا زلت أتذكر جنباتها الموحشة و التي لا تقل غربة و رهبة عن مستشفى الثورة بالرغم إنني لم أذهب للأولى سوى من الصف الثاني الإبتدائي إلا أني لم أتحرر من حالة كرهي الشديد للمستشفيات المحلية و روائحها الشبه المعقمة و التي كنت أراها أشبه بمنشآت تحضير الأموات و دفنهم و ليس دورا للشفاء تبعث الأمل و الحياة في نفوس المرضى الغارقة في اليأس و الهم مما هي فيه ، كما إنني لم أنس الحقن التي تلقيتها هناك على يد الممرضات المصريات الذي كان المستشفى يعج

[٦] باحة المسجد الغير مسقوفة باللهجة اليمنية (المؤلف) .

بأمثالهن و أمثال زملائهن الأطباء من أبناء جلدتهن سيما و إن كان معظمهم معار من أفضل مستشفى بالخليج العربي آنذاك إلا و هو المستشفى الأميري الكائن بعاصمة دولة الكويت الشقيقة الممول الرئيسي لنظيره السالف الذكر قبل حرب الخليج الثانية التي جعلت الإخوة أعداء ألداء بشكل سافر بعدما كانت أحقادهم الدفينة في طي الكتمان و حبيسة أدراج القلوب المتربصة ريب المنون إلى حد طرد مليون مهاجر منتمين إلى بلدي الفقير من إمارات الخليج النفطية لا ذنب سوى أنهم يدفعون حماقة قيادتنا السياسية الواقفة علنا بجانب العراق دون مراعاة لظروف شعبها المتخلف الغبي و المغلوب على أمره قبل و بعد الوحدة على حد سواء .... الخ ، المهم أن مرأه حرك المياه الراكدة في ذاكرتي الغافلة عنه منذ خمس سنوات مضت .

وصلنا إلى الرواق المجاور للبوابة النحاسية الباهتة اللون المليئة بمخربشات الفضوليين و المعبرة عن مشاعرهم المكبوتة من ناحية اليسار حيث ترقد والدتي في إحدى أسرتها المتواضعة الذي إختفى بريق طلائها الأبيض من أعمدتها الهزيلة ، مازالت حين وصولنا نائمة ما لبثت أن إستفاقت عيناها لحظة رؤيتي و والدي لترتسم على شفتيها و وجنتيها إبتسامة باردة و مرحبة بنا في آن معا حينما تكون ضعيفة أو واهنة الجسد ، فهي نادرا ما تبتسم لنا و يسود وجهها الغضب و التجهم ، بالإضافة إلى أنها تكثر من الإبتسامة للضيوف أو زوار البيت

من أقربائها و نساء الحي مجاملة لهم ، ثم جلسنا على سرير مجاور خال من إحدى المرضى المتعافين منه ينتظر بفارغ الصبر إستقبال مريض أخر يتمدد على جسده الأبيض الباهت الممزق العفن قبل أن يتحول على يد إدارة المستشفى الجديدة الفاسدة نوعا ما إلى أريكة خمس نجوم تحجزه و أمثاله لأناس كبار فاسدين في الدولة لا يعانون بالضرورة من أية أمراض تذكر ينامون عليه و يأكلون و يشربون بالمجان على حساب دولتهم و حكومتهم المنتمين لها .

ما لبثت أن نسيت أمره تماما حيث إنشغلت عيناي المتعطشتان لكل ما هو غريب و عجيب و جديد بمنظر إحدى المجلات المصورة التي خطفت بصري من الوهلة الأولى جراء الكم الهائل من الصور الملونة بألوان زاهية و صافية و مبهجة تتصدر صفحاتها البراقة المزدانة بها من الغلاف إلى الغلاف بأسلوب يخلب الألباب المختبئة في صدور قرائها قبل أن تتسلل كلماتها المعسولة إلى مسامات عقولهم الصدئة و تكررها و تزكيها من الجهل و التعصب و التطرف الأعمى ، لقد كنت أقصد بمديحي السالف الذكر مجلة الوسط الصادرة عام ١٩٩٣م عن مؤسسة صحيفة الحياة الذائعة الصيت عربيا و عالميا التي أنشاها الصحفي اللبناني الراحل و شهيد الصحافة في لبنان كامل مروة في بيروت عام ١٩٤١م قبل أن تشد رحالها مرغمة إلى لندن و تستقر هناك إلى الأبد بعد عامين من إندلاع الحرب الأهلية في لبنان عام

١٩٧٥م ، و تولى إصدار هذه المجلة العربية الهوى اللبنانية الأصل البريطانية المقام السعودية التمويل و الدعم الفريدة من نوعها في الصحافة العربية ثلاث من كبار الصحفيين العرب المقيمين في لندن و العاملين في صحيفة الحياة المذكورة أعلاها ، إلا و هم السوري و أول رئيس تحرير لها جورج سمعان و اللبناني و أول مدير تحرير لها غسان شربل و الفلسطيني جهاد الخازن ، إطلعت من قبل على الإعلانات المنشورة بصحيفة الحياة عن الأعداد الأولى للمجلة الحديثة العهد و الصادرة من كل أسبوع بحلاتها القشيبة حيث وجدت جميع من في غرفة المرضى بمن فيهم شقيقتي و زوجها يحملون بجعبتهم نسخا منها ، فسرعان ما أخذت ثلاثة أعداد منها و بدأت بمطالعتهم الواحدة تلو الأخرى بنهم شديد مطالعة عالم آثار غربي ينقب في كنوز الفراعنة المصريين و جلها مخصصة للحديث عن العام المنصرم ، كنت مفتونا أيما إفتتان بمواضيعها و موادها المتنوعة قبل صورها الأخاذة لما تحتويه من معلومات قيمة و مفصلة تفصيلا غير مخل بالمعنى تجعل القارئ يستوعبها بسهولة نادرة ، إضافة إلى ثرائها الفني و الأدبي و قدراتها الإعلامية الموازية لإمكانيات قناة فضائية عالية المستوى ..... الخ .

لكني في الوقت ذاته لم تغفل عيناي عن أمي لحظة واحدة سيما حينما كانت تثرثر بسعادة مع زميلتها في الرواق و الحالة المرضية باسمها

المقتبس من اسم بلد عربي شقيق (سوريا) ، و هي من منطقة يافع بمحافظة لحج أي أنها من اليمن الجنوبي أو كما تسميهم أمي على سبيل السخرية الجنوبيين حيث كانت و أبي و إخوتي الأربعة يكرهونهم كرها شديدا ليس لأنهم شيوعيين و كادوا أن يستولوا على بلادنا الواقعة في محافظة إب خلال حرب اليمن عامي ١٩٧٢م و ١٩٧٩م و حسب بل و لأنهم شوافع أو سنة و مخالفين لمذهب عائلتنا العتيد الزيدية ، أنا بدوري كنت أكرههم في طفولتي رغم أن معظم أساتذتي في المرحلة الإبتدائية قبيل الوحدة من هناك ليس لمجرد إنهم شيوعيين أم رأسماليين أم مؤمنين أم كفرة أم زيود أم شوافع أم قبائل أم سادة هاشميين فهذه الأمور و العقد الإجتماعية المرضية التي نخرت عقول اليمنيين منذ قرون طويلة مضت لا تهمني و تخالف حدود المنطق بالنسبة لي ، لكن إحساسي المتزايد آنذاك بأنهم مغرورون بتحضرهم المدني و تفوقهم العلمي علينا نحن الشماليين حتى بعدما صرنا كيانا واحدا في دولة واحدة منذ أربع سنوات دفعني لذلك ، إلا أن تجانسهم و إندماجهم الإجتماعي و الثقافي و العرقي أذهلني و آثار إستغرابي و إعجابي في آن معا حيث كنت أراهم كتلة واحدة في جسد واحد في عاداتهم و تقاليدهم و أزيائهم و فنونهم و رقصاتهم الشعبية و بيوتهم التقليدية عكس إخوانهم الشماليين المشتتين بين أكثر من طائفة و

قبيلة و منطقة و لهجة لها عاداتها و تقاليدها و أزيائها الخاصة إلى حد النخاع .

المهم أن والدتي شعرت بالألفة و الصداقة إلى حد الإخوة ، قد يكون هذا الشعور تولد لديها فجأة تحت وطأة المرض سيما و أنها كانت تشكي لنا من إهمال الممرضات الهنديات الثلاثة ماري و ساجدة و شيكا المسئولات عن قسمهن المتعمد لهن مقابل المال و هن اللائي هربن من بلدهن المطحون بالفقر و الجهل و المرض و التعصب منذ فجر التاريخ بأديانهن الثلاثة الهندوسية و الإسلام و المسيحية بحثا عن حياة أفضل و ملاذ آمن في بلد أفقر من بلدهن ، و قد يكون مرده أيضا الظلم و الفقر سيما و أن سوريا كانت و زوجها مع طفلتهما الوحيدة مغتربون في الكويت قبل أن يغزوها العراقيون أواخر عام ١٩٩٠م ليجبروا ألاف المهاجرين من أرجاء المعمورة إلى هذا البلد الصحراوي الصغير بحجم الكف الغني بثرائه الفاحش النابع من النفط العائم في رماله الجرداء منذ عام ١٩٣٥م من الرحيل عنها إلى الأردن ، و على الرغم من عمرها القصير إلى أن صداقتها ترسخت لدى والدتي إلى حد كبير و هي التي نادرا ما تثق بأقرب الناس إليها ثقة عمياء أو تكون صداقات وطيدة مع جاراتها العزيزات نوعا ما ، بل أنها إستضافتها في منزلنا خلال شهر رمضان عام ١٩٩٥م بعد طعام الإفطار مباشرة بدون أن تخبرنا بقدومهم إلينا البتة و لا سيما أن

كلتاهما عانتا من إهمال الإدارة الجديدة لمستشفى الكويت و طاقمها الفاسد الذي حل محل نظيره الذي كان يقوده مديره السابق المحسوب على الكويتيين و طبيبها المعالج لحالتها و المخلص في مداواتها حسب تعبيرها د/ أمين قائد الذي حماها من مؤامرتهم الدنيئة بحقها و غيرها من المرضى العاجزين عن حماية أنفسهم من الأمراض و من يفترض أنهم ملائكة الرحمة الأمينة على أرواحهم البريئة نوعا ما قبل أن يموت كمدا من شرورهم المستطير العام المقبل .

الدهليز الرابع

أنا و من بعدي الطوفان

ضقت ذرعا من المكوث في غرفة المرضى الرثة الحال تلك أو حتى البقاء مع والدتي أو عائلتي أكثر من اللازم ، فحسمت أمري و قررت الإنصراف من دون إذن من والدي أو حتى إبلاغه بنيتي العودة إلى البيت بمفردي حيث كانت المرة الأولى التي أقدم فيها على مثل هذا التصرف الغريب على طباعي الحسنة آنذاك و أنا الوحيد بين أشقائي المؤدب الطيع الطيب القلب الذي لا يعصي لوالديه أي إمر يطلبانه مني دون احترام أو تقدير يذكر منهما و على حساب كرامتي الشخصية ، ما ولد لدي مع مرور الزمن إحساسا متصاعدا بالقهر و الدونية من قبل الجميع بلا إستثناء سرعان ما تحولت إلى بركان خامد من الغضب المكتوم أوشك أن يتفجر لحظة شجاري مع صاحب الدكان المقابل للمستشفى حول مطالبتي إياه بإعطائي جنبيتي[٧] الذي أخرجته من عسيبي[٨] قبل الدخول حسب القوانين الأمنية السائدة آنذاك لمن يتمنطق بها حين دخوله إحدى المؤسسات الحكومية و المرافق العامة بحجة ولي أمري (والدي طبعا) لم يأذن له بذلك ، فتركته مغتاظا لا أنوي على شيء سوى السير نحو منزلنا مشيا على الإقدام دون نقود أو

---

[٧] الخنجر التقليدي لدى اليمنيين من سكان الأرياف و الصحاري و البداوة و تعني السلاح الجانبي الأبيض باللغة اليمنية القديمة (المؤلف) .

[٨] غمد الخنجر التقليدي و حزامه لدى اليمنيين من سكان الأرياف و الصحاري و البداوة حيث كان قديما يصنع من ورق النخيل و المعروف باللغة اليمنية القديمة بالعسيب حيث كان اليمنيون القدماء يصنعون منه ورق الكتابة منذ حوالي القرن الرابع الميلادي (المؤلف) .

مفتاح باب أو حتى هاتفا نقالا (لم تظهر في اليمن إلا عام ١٩٩٧م) للتواصل مع أهلي في حال إذا ما ضللت الطريق قاطعا المسافة المهولة لطفل صغير السن من شارع الزراعة حتى حي الجراف بحماس غريب ملؤه الغضب العارم غير مكترث لما حولي من شوارع قذرة و سيارات و بشر عفا عليهم الزمن و محلات شبه مزدانة بأفخر البضائع و أغربها نوعا ما و مطاعم صغيرة بحجم علب الكبريت تقدم لك قدر المستطاع ما لذ و طاب و قصاصات ورق لصحف محلية جديدة ظهرت بعد الوحدة المباركة لا هم لها سوى القذف و التشهير بالأخرين دون ضمير أو وازع أخلاقي بالضرورة مستفيدة من مناخها الديمقراطي الفوضوي المزيف بما يخدم أغراضها المشبوهة إلى حد ما من نشر الغسيل الوسخ للحكومة و أعوانها و من بينها صورة لمرضى عراة الأجساد لا يستر سوأتهم ورقة توت واحدة في مستشفى للأمراض العقلية بالعاصمة ، و منظر غلاف قصة حورية البحر للأطفال الصادرة من مكتبة التعارف المصرية و لوحة لامرأة عارية الجسد تحاول تقبيل أفعى سامة بشهوة جارفة لا نظير لها ، و ما أن وصلت بعد جهد جهيد إلى باب منزلي الكبير حتى وجدته مغلقا من الداخل و بلا قفل كما جرت العادة لدينا عند خروجنا جميعا من المنزل بغرض التنزه أو السفر الى مكان بعيد أو قريب حتى حيث نضع القفل على الباب ريثما نعود كيلا يتعرض للسرقة و النهب و السلب على الرغم من إستتباب الأمن التام في أرجاء صنعاء

و ضـــواحيها آنـــذاك ، ســـيما و أننـــا لـــم نـــألف حكايـــة إســـتبدال الأقفـــال التقليديـــة بنظيراتهـــا الأوتوماتيكيـــة الحديثـــة بعـــد و التـــي تفـــتح عبـــر المفتـــاح الخـــاص بهـــا فـــي لمـــح البصـــر دون أن نعـــاني مـــرارة إغلاقـــه و فتحـــه علـــى حـــد ســـواء أو خشـــية إنتزاعـــه بـــالقوة علـــى يـــد اللصـــوص مثلمـــا حـــدث مـــع ســـيارة والـــدي البيضـــاء المتواضـــعة اليابانيـــة الصـــنع التـــي إشـــتراها أثنـــاء عملـــه فـــي صـــعدة مـــن إحـــدى معـــارض الســـيارات فـــي نجـــران الواقعـــة بالجانـــب الســـعودي مـــن الحـــدود عـــام ١٩٧٩م حينمـــا أوقفهـــا ســـهوا خـــارج المـــرآب و المنـــزل معـــا خـــلال شـــهر رمضـــان المبـــارك عـــام ١٩٨٧م عنـــدما حـــاول أحـــدهم إقتحامهـــا و كســـر صـــندوق المقـــود بغيـــة تشـــغيلها دون مفتـــاح و الفـــرار بهـــا بعيـــدا قبـــل أن تلقـــي الشـــرطة عليـــه بســـرعة البـــرق و بـــالجرم المشهود .

فوجئـــت بـــان أبـــي كـــان بانتظـــاري علـــى أحـــر مـــن الجمـــر و الغضـــب معـــا بعـــدما وصـــل إلـــى هنـــاك بســـيارته بســـرعة البـــرق حـــاملا معـــه شـــقيقي الأصـــغر نعمـــان ، فلقـــد أثـــار إختفـــائي المريـــب و المرتجـــل مـــن المستشـــفى قلـــق والـــدتي و وجـــل قلبهـــا المتزايـــد علـــي ، مـــا دفـــع والـــدي إلـــى البحـــث عنـــي قبـــل أن يرشـــده صـــاحب الـــدكان الحـــافظ لخناجرنـــا المحليـــة الصـــنع عنـــده بمـــا جـــرى بينـــي و بينـــه ، و كـــان هـــذه المـــرة الأولـــى التـــي أتشـــاجر فيهـــا مـــع والـــدي بجـــرأة بالغـــة لـــم يســـبق لهـــا مثيـــل إن لـــم نقـــل وقاحـــة شـــديدة أذهلتـــه و أثـــارت إســـتغرابه لصـــدورها مـــن أبـــر أولاده بـــه و أطيـــبهم علـــى الإطـــلاق

بالنسبة له دون أن يدري بأن ما قمت به للتو هو الهدوء الذي يسبق العاصفة التي ستقودني إلى المجهول ردحا من الزمن .

فما إن شفيت والدتي من مرضها تماما إلى حد ما و عودتها إلى المنزل بعد مكوثها المرضي في المستشفى قرابة الشهرين حتى بدأت أشعر بالإنزعاج و التذمر من رجوعها الميمون إلينا و منزلها العتيق بعدما شفيت من المرض و تجاوزت مرحلة الخطر قبل ثلاثة أيام من بدء الفصل الدراسي الثاني ، مما أثار إستغرابها إن لم نقل غضبها العارم المكتوم من ردة فعلي المتسمة بالفظاظة و الجلافة و الصلف و سوء الطباع حيال عودتها إلى البيت حيث كانت أمورا مستجدة بالنسبة لها لم تعهد إقدامي عليها بتاتا و لم تتوقع أن أمارسها كسلوكيات أساسية تحل محل طيبتي و سذاجتي و دماثة اخلاقي و رقة مشاعري و إحساسي المرهف تجاه الأخرين و هي التي إعتادت أن تراني عليه منذ طفولتي قبل أن تستفيق من وهمها الجميل المزعوم و تشاهد أمامها ولدا متحجر القلب مثلها ، سيء الطباع ، متبلد الأحاسيس ، خال من المشاعر إلا ما ندر يتطاول عليها و على شقيقته رباب بالصراخ و الشتائم و الضرب المبرح لأول مرة في حياته الهادئة نوعا ما ، بل وصل غضبه الحاد أن يصب جام حممه الملتهبة على أشقائه الثلاثة نعمان و صالح و مرشد و أولاد حارته القبيحة المنظر و الأهل صغارا و

كبارا بمن فيهم قطاع الطرق و الأشقياء و الصعاليك و البلاطجة[9] و المتنمرين من ذوي الحسب و النسب و المكانة الإجتماعية الرفيعة و كرامة المحتد كما يزعمون بعدما كان يؤثر عدم مجابهتهم خوفا من أذيتهم و بطشهم العنيف ضد الأضعف منهم بدلا من أقواهم على الرغم من شكوته الدائمة ضدهم لدى أولياء امورهم حيث سرعان ما يجتاح أجسادهم المنتفخة بالعضلات الزائفة سيل من الرعب المنهمر الداهم يدفعهم إلى الفرار من عقابهم الصارم نحوهم بلا رحمة أو شفقة ، فلقد مات مازن القديم داخل سويداء قلبي إلى الأبد ليحل محله مازنا جديدا من نوع آخر يدافع عن عزته و كرامته المزعومة كانت أم الحقيقية أيما دفاع بغاية الشراسة و التنمر الوحشي دون خشية من أحد أو يصبح مداسا للأخرين كما يحلو لهم دون أن يدري بأنه بسلوكه هذا الدرب المفخخ بالأشواك السوداء و الأسلاك الشائكة من الأحقاد و الثأرات الدفينة قد حل المشكلة بمشكلة أكبر جعلته يغوص في وحل العقد و الأزمات النفسية لتتحكم به دون أن يتمكن من التحرر منها قيد أنملة ليصبح فريسة سهلة لها تدمره تدميرا ذاتيا كما يحلو لها مع مرور الزمن عبر متاهاتها العبثية التي لا رجعة منها .

[9] مصطلح شعبي سائد في مصر يطلق على الخارجين عن القانون و القتلة و هي تعني قطاع الطرق حاملو البلطة باللغة التركية (المؤلف) .

الدهليز الخامس

الإنتفاضة المدرسية

لم ينحصر غضبي العارم المسجون في قبو الأعوام الماضية على أهلي و عشيرتي الأقربين فحسب ، بل طالت حممها الخامدة زملائي و أساتذتي في مدرسة الأمجاد ، حيث لم أنس ذلك اليوم من منتصف إبريل عام ١٩٩٤م (قبيل الحرب الأهلية بشهر واحد) لحظة إستدعائي و مدرس اللغة الانجليزية الأستاذ من قبل مديرة المدرسة الأستاذة نور الحمزي بعدما آثار زملائي غضبها الهادئ هدوء الجمر قبل اشتعاله في الفحم حيال ما اقدموا عليه من موجة شغب و فوضى عارمتين و جلبة متعمدة أثناء حصته المملة كالعادة ، سيما و أنها ليست المرة الأولى التي تحدث فيها مثل تلك الأمور المخزية لديه كما في السابق ، إلا أنها تجاوزت حدود اللياقة و الأدب و الأخلاق الى حد لا يطاق ضد معلميهم و مدراءهم الذين يجلونهم و يكنون لهم أسمى آيات التقدير و التبجيل و الإحترام قبل أن أجبرهم على إرتكابها رغما عنهم تحت تأثير إنتقامي الدفين ضد رجال العلم و التربية و التعليم منذ عقود مضت ، فما من شغب أو تمرد مفتعل داخل الصفوف و خارجها على حد سواء إلا و كنت وراءها و رأسها المدبر و مثير شعلة نارها الهمجية على الجميع طيلة النصف الثاني من العام الدراسي .

ظلت عيناي المتقدتان غضبا يقدح منهما الشرر لأتفه الأمور كما يظن الآخرون تطوفان بسرعة البرق الخاطفة تخطف الأبصار بمنتهى الدقة و المهارة النادرتين كما يحلو لي أرجاء مكتب المدير العام و زواياه الزجاجية اللون و أثاثه الفاخر بغاية التواضع و مكتبته المزدانة بكتب شتى إلى حد ما في حقول الآداب و العلوم و التربية و من أبرزها الأعمال الكاملة لأبو الأحرار و شاعر الثورة اليمنية عامي ١٩٤٨م و ١٩٦٢م و الزعيم المؤسس لحزب الأحرار الدستوريين و حزب الله و فرع الإخوان المسلمين في اليمن منذ عام ١٩٣٥م و مؤلف رواية (مأساة واق الواق) و أحد أبناء محافظة إب الأبرار الشهيد/ محمد محمود الزبيري تتصدر أغلفتها المجلدة تجليدا أنيقا بحلتها القشيبة النوافذ الزجاجية للدولاب الخشبي المحاذية لباب المكتب على يسار مقعدي الهزاز تزاحمها أكوام هائلة من شهادات و دروع التكريم المصنوعة من أجود انواع الورق الفاخر و المعدن الأصيل المستورد من الخارج طبعا و المقدمة من قبل وزير التربية و التعليم شخصيا بمناسبة و بدون مناسبة لإدارتها المتميزة لمدرستنا البكر نوعا ما .... الخ .

سرعان ما توجهت نظراتهما الحائرتين رأسا صوب الأستاذ صلاح القابع في الطرف الآخر من المكتب يضع يمناه بحجمها العريض على جبهته الوردية اللون المكتظة بتجاعيد السنين الغابرة و يتلو في سره آيات من الذكر الحكيم علها تهدئ من روع أعصابه المشتعلة إشتعال الجمر

الأحمر الملتهب في الموقد بعدما أخرجه الطلاب عن طوره و بلغ السيل زباه حتى أغرق بغثائه السمين من حوله .

توقفت عن التجوال ببصري فيما حولي و عدت بذاكرتي المثخنة بجراح الماضي الجاثمة على صدري حتى يومنا هذا إلى أول صدام همجي عنيف دار بيني و بين أساتذتي المحترمين نوعا ما داخل الحرم المدرسي منذ خمسة أعوام مضت و قبيل حلول شهر رمضان المبارك عندما رفضت الوقوف إحتراما أمام الأستاذ محمود لحظة دخوله حصة اللغة العربية إسوة بزملائي المهذبين و المشاغبين على حد سواء المستغربين من تصرفي الأرعن نحوه :

(ما قمتش ليه قدامي زي بقية زملائك؟)

(ما أشتيش أوقف قدامك)

(يعني إيه مش عايز توقف ؟!!! احنا حانهرج ؟!!! لما اقولك توقف يعني توقف ....)

(و انا باقول لك ما اشتيش اوقف يعني ما اشتيش اوقف ....)

(ليه يا اخويا ؟!!! على راسك ريشة ؟!!! و لا تكونش فاكر نفسك حاجة كبيرة قوي (يضرب عرض الدرج بشدة صارخا) بص لي و انا باكلمك .....)

(ايوه على مزاجي ، ما اشتيش اوقف قدامك ، أنا حر ، عندك مانع؟)

أثار ردي العنيف و السوقي دهشة من حولي بمن فيهم أستاذي السمين نوعا ما الذين لم يتوقعوا أن أفضل طالب في المدرسة علما و إجتهادا و سلوكا و أدبا منذ الصف السادس الإبتدائي قد تحول بين ليلة و ضحاها الى كتلة من المشاغبين و المتنمرين في جسد إنسان مرهف على صعيد مدارس البلاد الحكومية و الخاصة على حد سواء التي كان يضرب بها المثل في مستواها الرفيع من التربية و التعليم النموذجيين آنذاك .

و لم ينته الأمر عند هذا الحد ، بل تطاولت مجددا على مدرسة العلوم السالفة الذكر حيث لم أعد قادرا على تحمل عصبيتها المفرطة المفتعلة في آن معا ، ففجرت غضبي المكتوم نحوها داخل المختبر الكيميائي الوحيد في المدرسة قاطبة و الصغير بحجم علبة كبريت هندية الصنع عديمة النفع إلا ما ندر ، غير آبه بردة فعلها الملتهب و مشاعر من حولي من زملائي الغاضبين علنا المبهورين سرا من تصرفي الأخرق (أنت مستحيل تكوني مدرسة !! أنت وسخة !!!! أنت !!!!!)

[10] قذر أو قذرة بالعامية اليمنية (المؤلف) .

و من بعد ما سلف ذكره ، لم يسلم أحد من وحشيتي المفرطة خلال فترة الدوام الدراسي بمن فيهم مديرة المدرسة أ/ نور التي لم تصدق بأم عينها أن أفضل طالب لديها قد تحول الى وحش كاسر عنيف ينشب مخالبه على الجميع بلا إستثناء ، سيما إثر تحرشي العلني بمدرسة اللغة الفرنسية أ/جميلة في وضح النهار و تطاول فج على زملائها من مدرسي الدين الإسلامي و الرياضيات و الإجتماعيات و الكمبيوتر و الرياضة دون حياء أو خجل أو أن أقيم أي وزن أو إعتبار يذكر لهم بعد ردح من الزمن ظللت خلاله أمارس دور الطالب المهذب الطيب الطيع الساذج إلى حد الغفلة الخاضع لأساتذتي من كلا الجنسين و المنقاد لأوامرهم القراقوشية أتلقى منهم سيلا جارفا من اللكمات و الإهانات الهمجية دون أن أجرؤ على الرد عليهم و لو بالشكوى ضدهم لدى الإدارة أو والدي حتى و لو على سبيل المزاح !

لم أعد أهتم بدراستي أيما إهتمام كما في السابق عندما كنت أحوز المراتب الأولى خلال تحصيلي العلمي في المرحلة الإبتدائية ، أهملت واجباتي المدرسية أكثر من ذي قبل ، فلم أعد أحصل على الدرجة النهائية في كافة المواد كالعادة ما دفعني إلى إخفاء نتائجها المتدنية عن أعين عائلتي الفخورة بتفوقي العلمي ليس حبا في زيد بل كراهية في عمر حتى و لو أدى الأمر الى تمزيق ورقة الإمتحان إربا إربا كما صنعت

مع نظيرتها الخاصة باللغة الانجليزية و أثارت غضب أستاذها السمين حينذاك .

وصل بي الحال الميؤوس منه إلى أن أتغيب عمدا عن المدرسة لأسباب واهية بغية عدم ذهابي إلى المدرسة و لا سيما عندما إستيقظ من نومي متأخرا ، و ما حدث خلال اليوم الأخير من شعبان لا ينسى حينما تعمدت الإختباء داخل الديوان[11] و الغط في نوم عميق زائف حتى موعد انصراف الطلاب و المدرسين من المدرسة الى بيوتهم بعد انتهاء الحصة السابعة في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا ، و لكي لا أثير الشكوك لدى الجميع من مخبأي من هناك حاملا حقيبتي المثقلة بالكتب و الدفاتر و الأقلام المثلجة من برودة المكان القارس و مرتديا الزي المدرسي مدعيا امامهم باني عدت لتوي من هناك ، الا ان خدعتي الساذجة لم تنطلي على والدي للأسف ، سيما بعدما كررتها مرتين في أسبوع واحد لأدخل معه في شجار ساخن سرعان ما انطفأت جذوته قبيل الدقائق الأولى لحلول شهر رمضان المبارك علينا عام ١٩٩٤م دون أن تنطفئ نار الإستغراب و الدهشة المشتعلة في جوف عقله الحائر من تصرفاتي الصبيانية التي لم يشهد لها مثيل من قبل ، و قد شاركته والدتي نفس الشعور بعدما رفعت راية الحرب ضدها منذ البداية لأنها السبب فيما حدث لي ، فلم أعد أطيعها طاعة عمياء و

[11] مجلس الرجال الأرضي التقليدي لدى اليمنيين (المؤلف) .

أتلقى شتائمها السوقية و إزدرائها الدوني نحوي بصدر رحب كما في السابق ، بل وصل بي الحد أن أشوه قيمة الأم و الأمومة بأقذع الألفاظ النابية خلال مادة التعبير بحصة اللغة العربية نكاية فيها غير مبال البتة لآراء زملائي المستغربين من صراحتي المتناهية تلك .

حتى مديرة المدرسة لم تصدق أن أفضل طالب لديها قد تحول بقدرة قادر الى وحش كاسر يتطاول على الجميع بلا إستثناء بمن فيهم مدرسة اللغة الفرنسية التي تحرشت بها علنا دون حياء أو خجل و زملائها المتخصصين في علوم الدين الإسلامي و الرياضيات و الإجتماعيات و الكمبيوتر و الرياضة حيث لم يسلموا من قبضتي النارية و جبروتها اللاهب بعدما أحلت حياتهم المملة سعيا وراء الرزق في بلادي التي يكرهونها كرها جما إلى جحيم لا يحتمل بين ليلة و ضحاها .

الدهليز السادس

الإخوة الأعداء

كان يوما عصيبا و مفاجئا لي منذ الصباح الباكر حيث لم تتوقف النيران الملتهبة الصادرة من فوهات البنادق و المدافع و الطائرات الهوجاء للأسبوع الثالث على التوالي عن إشعال الحرائق و الدمار و الهلع و الفزع و الذعر في أرجاء عاصمتنا المنكوبة على مر العصور صنعاء بعدما أحال شركاء وحدتنا المباركة بيئتها الراكدة إلى جحيم لا يطاق إثر نقضهم المتعمد للعهود و المواثيق التي صادقوا عليها في الثاني و العشرين من مايو عام ١٩٩٠م حيث ما لبثوا أن إستسلموا طواعية و على الفور لأحقادهم الدفينة و عقدهم السياسية و الإنفصالية التافهة دون أن يبرأوا من جروحها العفنة منذ مطلع القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر .

بداية ، ظننتها مناوشات ساذجة بين طلاب متنمرين سخفاء متبلدي الأحاسيس داخل المدارس أو بين نسوة مستهترات داخل التفاريط يقتلن وقت فراغهن الشاسع بالثرثرة الفارغة و الغيبة و النميمة و نشر الإشاعات و تصيد أخطاء الأخريات بين أركان مجالسهن العديمة الفائدة تتخللها شتائم متبادلة عبر وسائل السلطة الرابعة المقروءة بشقيها الرسمي و الأهلي حيث ما فتئهن منذ اللحظة الأولى لإطلاق

سراحهن من سجون الرقابة الحكومية إبان فترة التشطير الشمالي و الجنوبي على حد سواء عبر قانون الحريات الإعلامية و التعددية السياسية أو كما سموه إخواننا المصريين قانون السداح مداح عام ١٩٩١م تدافع بشراسة مبيتة عن وجهة نظر أصحابها المتآمرين على الوطن و وحدته و سلامة أراضيه دفاعا عن نعراتهم الحزبية و القبلية و الطائفية و السلالية و المناطقية و المذهبية العفنة دون أن يكلفوا خاطرهم بمعرفة المعنى الحقيقي للحرية و قيمهم السامية و النبيلة لصالح أغراض دنيئة في نفس يعقوب الذي لم يعد قادرا على تحمل بشاعة ما يرتكب باسمك أيتها الحرية .

بدأت فصولها الدامية بموجة إغتيالات عاصفة طالت العديد من أعضاء الحزب الإشتراكي المقيمين في صنعاء بعد الوحدة على يد إسلاميين متشددين مدفوعين من قبل شركائهم في الحكم ليرد الأول عليهم بالمثل ، ثم أعقبتها مظاهرات عنيفة مفتعلة إجتاحت المدن الرئيسية في البلاد إثر إقرار الحكومة الإشتراكية التوجه زيادة طفيفة في أسعار الوقود عام ١٩٩٢م ما دفع مدرستنا إلى إغلاقها مدة يومين حرصا على حياتنا و ممتلكاتها الثمينة نوعا ما حتى تهدأ الأمور و تعود إلى نصابها كما في السابق قبل أن ينفجر الوضع بين شريكي الحكم من سيء إلى أسوأ إثر أول إنتخابات برلمانية في البلاد الموحدة عام ١٩٩٣م و أدت الى إقصاء أحدهما من السلطة عمدا و عدوانا لصالح

حزب جديد من صنع عمنا ألا و هو التجمع اليمني للإصلاح[١٢] بعدما شهد مراقبوها الدوليون و الأجانب زورا و بهتانا بنزاهتها الناصعة البياض الخالية من الشوائب حسب زعمهم لتعصف الخلافات القائمة بينهما داخل أروقة مجلس النواب (أول برلمان يمني بعد الوحدة) و تسمم أجواءها الملتهبة جلساته المملة التي لا تنفع و لا تضر و فاقت في مللها و ساعاتها الطوال المفتعل المسلسلات المكسيكية الطويلة بصراعات دفينة بين أعضائه المنتمين لكافة التيارات السياسية المختلفة منذ عام ١٩٦٢م سرعان ما وصلت إلى حد المطالبة بمحاكمة النخبة الحاكمة الممثلة بمجلس الرئاسة المنبثق من إتفاقية الوحدة عام ١٩٨٩م ما أوحى لي حسب زعمي بأن برلماننا المبجل قد أفاق من غيبوبته الطويلة و عرف طريقه أخيرا ليمارس دوره الأساسي كممثل للشعب و فئاته أجمع قبل أن يخيب ظني و أكتشف أن وجوده لا يعدو مجرد خيال مآته يضفي رونقا و تألقا على ديكور المشهد السياسي في البلاد توحي لزوارها و لو كذبا بوجود ديمقراطية حقيقية فيها ، علاوة على أنه منذ ظهوره عام ١٩٩٠م لم يحرك ساكنا حيال قضايا جديدة على الساحة المحلية للمرة الأولى كالفساد المالي و الإداري و الفوضى الأمنية و إنتشار المسلحين و الأسلحة و عمليات الإختطاف و الأزمة الإقتصادية إثر حرب الخليج الثانية .

[١٢] أسسه رئيس مجلس النواب الراحل الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر عام ١٩٩٠م بأمر من رئيس الجمهورية علي عبدالله صالح و هو مكون من عناصر جماعة الإخوان المسلمين فرع اليمن (المؤلف) .

و لم تنجو عائلتي من سعيرها الضبابي أبدا ، حيث وقعت في وحلها الهلامي الخانق بملء إرادتها بعدما آثرت لأعوام طوال الإبتعاد عن السياسة و عالمها الضحل و عدم معارضة النظام السبتمبري الحاكم في الشطر الشمالي من الوطن و النأي بنفسها عن خوض أي صراع مسلح ضده بغية إسقاطه إلى الأبد قبل أن تسنح لهم الفرصة و تستغل فترة الإنفتاح الديمقراطي العبثي عام ١٩٩٠م لتجهر صدور أفرادها قبل أفواههم بما تجيش من حقد دفين و غضب مكتوم ضد من أسقط حكم سلالتهم الهاشمية من عرشها الكهنوتي الإلهي المزعوم الجاثم على صدور اليمنيين طوال أحد عشر قرنا ظلاميا إلى الأبد عام ١٩٦٢م و ضد إخوانهم الجنوبيين (ما عدا المنتمين الى سلالتهم المقدسة كما يزعمون) الذين من وجهة نظرهم أحالوا مسقط رأسهم مديرية النادرة إلى ساحة معارك طاحنة أهلكت الحرث و النسل و دكت جبالها الوعرة دكا دكا ، و جعلت الناس هناك يقتلون بعضهم البعض لصالح هذا الطرف أو ذاك ، و أجبرتهم على النزوح أفواجا إلى صنعاء و عدن و تعز خلال حرب اليمن العبثية (١٩٧٢-١٩٨٩م) أو ما كانوا ما يسمونها بجبهة التخريب[١٣] ليتحقق لهم ما أرادوه و لكن هذه المرة ليس على يد واحد من سلالتهم كما كانوا يتمنون بل على يد الفأر الجديد الذي تسبب في إنهيار سد مأرب و البلاد مجددا و إلى

[١٣] مصطلح سياسي كانت تطلقه حكومة اليمن الشمالي على المتمردين اليساريين المنتمين للجبهة الوطنية الديمقراطية المدعومة من حكومة اليمن الجنوبي ضدها (١٩٧٢-١٩٨٩م) و لا سيما عام ١٩٧٩م ردا على تقليب نفسها بجبهة التحرير (المؤلف) .

الأبد ألا و هو عمنا الإبن البار لشعب يتمنى زوال بلاده على يديه دون حياء أو خجل .

كانت هذه المرة الأولى منذ طفولتي المبكرة التي أرى فيها اليمني يقتل أخاه اليمني بدم بارد دون حياء أو خجل و أحتك بالحرب مباشرة و أتلظى خوفا و رعبا بجحيمها المستعر و معاركها الدموية رغم إنتمائي إلى بلد إعتاد ثقافة الحروب الأهلية و القتل و التدمير منذ فجر التاريخ حتى وقتنا الحاضر لأتفه الأسباب و أشدها سخفا و أنا الذي عشت طوال حياتي أرفل في نعيم السلام و الأمن و الإستقرار و رغد العيش من قبل حيث كانت الحرب بالنسبة لي مجرد ترف لا يذكر سوى على شاشة التلفاز بكافة تفاصيلها المرئية و هدير مدافعها المرعبة و دوي الإنفجارات المدمرة و صراخ المارة الفارين بأرواحهم الحائرة من رصاصتها الغادرة داخل بلدان عربية و إسلامية عانت من أهوالها العفنة أمام ناظري البريئين آنذاك كالعراق و إيران و لبنان و فلسطين ، و متى قررت هذه الكارثة المقيتة أن تزور ديارنا ؟ بعد أربع سنوات من قيام الوحدة المباركة التي ظننا أنها ستدفن ضغائن و أحقاد التشطير إلى غير رجعة بعد أن تلم شمل أبناء الوطن الواحد تحت لواء كيان جديد إسمه الجمهورية اليمنية !!

لم أنس تلك الليلة المشؤومة التي سبقت إندلاع الحرب بيوم واحد عندما إنطفأت الكهرباء عمدا و نحن نتابع إحدى حلقات المسلسل المصري المثير للجدل (العائلة) من قناة عدن كاملة بعدما تم إيقاف بثه من نظيرتها صنعاء نهائيا قبل ثلاثة أسابيع ردا على انتقاداته اللاذعة للتيار الإسلامي المتطرف داخل مصر و خارجها و لا سيما جماعة الإخوان المسلمين مما أثار غضبي المكتوم نحوهم قبل أن إبتلعه في جوف عقلي الباطن و آثر الهدوء و السكينة و أنام خلال هذه الليلة الهادئة وسط الظلام الدامس دون علمي بأن هدوئها المريب و الغير طبيعي بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة .

فما إن أطل صباح اليوم التالي حتى بدأت والدتي و شقيقتي الجالستان بجواري تسمعان بقلق و ترقب أصوات أعيرة نارية طفها دخانها المتصاعد على السماء الزرقاء و إمتزجت بهوائها العليل ببطء شديد و سرعان ما إرتفع ضجيج دويها المرعب أكثر فاكثر و إقترب هديره الجارف من نوافذ منزلنا الهشة ليتسلل بقوة إلى قلب أمي القاسي و يستبد الهلع و الفزع به ما دفعها فجأة إلى إيقاظي من نومي بعنف أثار هلعي أنا أيضا حيث ما لبثت أن خرجت معها من المكان القبلي[١٤] إلى غرفة المعيشة زحفا دون أن تحملني ساقاي المرتعشتان على الجري أو

[١٤] مصطلح شعبي صنعاني يطلق على الغرفة الشمالية من البيت نسبة الى قبلة الكعبة المشرفة في مكة المكرمة بالسعودية عكس المكان العدني الذي يطلق على الغرفة الجنوبية من البيت نسبة الى مدينة عدن عاصمة اليمن الجنوبي سابقا (المؤلف) .

الوقوف حتى من هول الموقف المفروض علي لأول مرة في حياتي لم أشهد له مثيل من قبل ما لبثت أن هدأت نفوسنا قليلا بعدما سكتت الذئاب المتحاربة عن عوائها السام و بنادقهم الملتهبة عن الدمار و الهلاك المباح مؤقتا طيلة ثلاث ساعات متتالية قبل أن يستأنفوا عبثهم الجنوني قبيل صلاة المغرب و يطلقون النار الطائش ضد المارة في الشوارع و الأحياء العشوائية و لا سيما شارع المطار دون تمييز حيث لم يجرؤ أحد منهم على الخروج من منزله و لو من أجل الصلاة في المسجد هربا من سيل الرصاص المنهمر بكافة أشكاله على الجميع ، و لم يغب عن ذاكرتي الفيلية[١٥] مشهد والدتي الباكية إلى حد الرعب و الخوف على شقيقي الأصغر نعمان العاشق لحياة التسكع في الشوارع و شوائبها النتنة و أولادها العفنين منذ صغره عندما هم بالصعود مع رفاقه الأشقياء إلى حافة جسر الجراف الحديث العهد[١٦] قبل أن تفرغ قلقها المتراكم باللكم و الضرب المعتاد على جسده الأسمر الصغير كيلا يكرر مثل هذا التصرف الأرعن مجددا ، لتصبح هذه الحرب المفتعلة خبزنا اليومي ليل نهار دون توقف و إن كانت منحصرة معظمها في الخط الفاصل بين المحافظات الجنوبية و الوسطى إلى أنها دفعت العديد من سكان العاصمة المنكوبة منذ القدم إلى الفرار بأرواحهم نحو مواطنهم الأصلية كما فعلت شقيقتي الكبرى و زوجها بسام التي لم

[١٥] معناها أن ذاكرته قوية مثل ذاكرة الفيل (المؤلف)

[١٦] أقامته بالقرب من المؤسسة العامة لمطابع الكتاب المدرسي و مدرسة الكبسي على شارع المطار عام ١٩٩١م (المؤلف) .

تتحمل كابوس الغارات الجوية و رنين المدافع الهوجاء خوفا على نفسها و طفلها الأول سعيد الذي أنجبته للتو منذ شهرين و لا سيما بعدما رأت ما حدث للمستشفى الجمهوري في صنعاء و محطة المخا الكهربائية في تعز و مصفاة صافر في مأرب من قصف مركز و مريع خلف العديد من القتلى و الجرحى في صفوف المواطنين .

لم تكتف تلك الحرب بنشر الخراب و الرعب بين الآمنين و الفساد في البر و البحر فحسب ، بل جلبت لنا العار في أرجاء المعمورة و لا سيما شماتة أولياء نعمتنا الخليجيين سرا و علانية فينا و على رأسهم صديقنا الحميم أيام عزنا و نعيمنا الوفير و عدونا اللدود مذهبيا و طائفيا أيام فقرنا المدقع ألا و هي السعودية التي لم تكل و لم تمل منذ اليوم الأول لإندلاعها المفاجئ عن شن حربها الباردة عبر تسليط معظم وسائل الإعلام العربية المقروءة و المسموعة و المرئية التابعة لها و الواقعة معظمها في كنف عاصمة الضباب[١٧] و في مقدمتها قناة الإم بي سي[١٨] ضدنا بسبب ما سمته تحالفنا مع العراق إبان حرب الخليج الثانية رغم أن هذا التحالف المذكور سلفا تم بتحريض منها تحت الطاولة نكاية في الكويت و العراق و مساعيهما الحميدة لتحسين أوضاعنا اليومية و مساعداتهما السمينة لنا حكومة و شعبا قبل الوحدة

[١٧] مصطلح سياحي شهير يطلقه السياح العرب و المسلمين على عاصمة بريطانيا لندن لجوها الرطب و البارد و المكتظ بالضباب منذ الصباح الباكر (المؤلف) .

[١٨] هي قنوات (m.b.c) الترفيهية أو تلفزيون و إذاعة الشرق الأوسط التي تأسست في لندن عام ١٩٩٢م (المؤلف) .

و بعدها ، ناهيك على أن هذه الحرب قلبت حياتنا رأسا على عقب و سممت يومياتنا الصباحية و المسائية إلى حد لا يطاق و فرقت بين الإبن و أبيه و الإبنة و أمها داخل العائلة الواحدة لصالح هذا الطرف أو ذاك مثلما حدث لعائلتنا الموقرة التي تحولت بعد الوحدة بقدرة قادر من أسرة تمشي على الحائط تخشى غضب الدولة و أجهزتها القمعية إلى منتدى سياسي شغله الشاغل تحليل الأخبار و مجريات الأمور داخل البلاد و خارجها رغم وقوف معظمهم مع عمنا ضد خصمه و شريكه السابق في الحكم علي سالم البيض عكسي تماما الرافض لكلاهما و جرائمهما الشنعاء بحق الوطن أثناء القتال الدائر بينهما و كان آخرها إعلان الجنوب الإنفصال عن الشمال و تأسيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بنظامها الشيوعي الشمولي مجددا و إجتياح الجيش النظامي الشمالي لعاصمتها عدن و إباحتها و أهلها لجنوده الميامين و المليشيات الاسلامية المتطرفة و القبلية الهمجية المشكلة من قبل الدولة و الموالية له مدة ثلاثة أيام على طريقة يوم الحرة[١٩] معلنين إنتهاء حربهم الضروس ضد من أسموهم الشيوعيين الإنفصاليين بعد شهرين من إندلاعها دون أن يتوقف سمها الزعاف عن بث موتها البطيء في أجسادنا و عقولنا المريضة أصلا و ترسم لنا

[١٩] مصطلح تاريخي يطلق على المذبحة البشعة التي إرتكبها قائد الجيش المحمدي مسلم بن عقبة المري ضد سكان المدينة المنورة (السعودية) بأمر من خليفته الاموي يزيد بن معاوية بن سفيان (٦٤٥-٦٨٣م) عقاباً لهم على تأييدهم لثورة الحسين بن علي رضي الله عنه ضده التي أخمدها بوحشية عن بكرة أبيها خلال معركة كربلاء بالقرب من مدينة الكوفة (العراق) عام ٦٨١م (المؤلف) .

ملامح عصر جديد يتشح بسواد مستقبل قاتم سيظل جاثما على صدورنا الى أبد الآبدين من إنهيار إقتصادي و فساد تجاري و رفع الدعم الحكومي لأسعار السلع الضرورية و فوضى أمنية و مرورية مسلحة و فساد مالي و اداري و تعليمي و صحي لا يطاق بعدما تحولت الدولة الى جمعية خيرية عديمة النفع غير قادرة على فرض سيادتها و سيادة القانون عمدا و حماية المواطنين الأبرياء من حثالة المجتمع و الظالمين و المجرمين الآتين من أصلابهم و أرحامهم العفنة على يد المنتصرين الجدد الذين أعادوا كتابة تاريخ بلادهم المشوه أصلا وفق أهوائهم و نزواتهم الشخصية بعدما كانوا مدفونين تحت التراب غير مأسوف عليهم لا يجرؤون على الخروج من جوفه الآسن طوال عقدي السبعينات و الثمانينات خوفا من قبضة الدولة الحديدية و عصاها الغليظة تنهال عليهم آنذاك دون رحمة أو شفقة .

الدهليز السابع

سعيد

ليس إسما ذائع الصيت لأحد المشاهير أو واحدا من اصدقائي الاعزاء أو أقربائي البعداء أو حتى زملائي المجهولين في الدراسة الذين لم تعتد ذاكرتي الحديدية سوى على أسمائهم و وجوههم فقط ، بل هو الإبن البكر لشقيقتي رباب بعد مرور عام على زفافها المضطرب نوعا ما و المتزامن مع أول انتخابات تشريعية متعددة الأحزاب و الإتجاهات السياسية بنواياها البريئة و اللئيمة يشهده هذا البلد الحديث العهد بهذه الأمور عام ١٩٩٣م حيث كانت هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها أحد أشقائي يدخل القفص الذهبي في عرس مهيب يحضره لفيف من الحضور الأعداء قبل الأصدقاء و يعلن عنه في الصحف الرسمية كما جرت العادة بدلا من إعلانات الوظائف الشاغرة التي ليست من أعراف صحافتنا المحلية منذ ولادتها أواخر القرن التاسع عشر حتى وقتنا الحاضر ، و هي المرة الأولى أيضا التي أشارك في تجهيز عرسها الفريد من نوعه بمشاكله البسيطة قبل أن تتحول عمدا على يد القائمين عليه إلى مستعصية و تجهيزاته المتواضعة إن لم نقل سيئة و التي بدأت بوادرها مع تعرفنا المقتضب على زوجها سالم السقاف عند قدوم والدته و شقيقاته الصغار لتمهيد موضوع الخطوبة إلى منزلنا العامر عام

١٩٩٢م حيث سمح سني الصغير قبل أن أبلغ الحلم أو سن المراهقة بمخالطة النساء كبارا و صغارا داخل صومعتهن المنعزلة و التعرف عليهن دون حياء أو خجل كما هو متعارف عليه ضمن تقاليد العائلات الريفية المحافظة في صنعاء و ضواحيها ، و نفس الشيء ينطبق على الفتيات الصغيرات قبل بلوغهن الحلم اللائي حضرن آبائهن و أشقائه الكبار إلى منزلنا مجددا منتصف الظهيرة لتحديد موعد العرس و الزفاف بعد عيد الأضحى عام ١٩٩٣م قبل تعديله إلى ما بعد انتهاء العام الدراسي تحت إعتراض والدتي الملح عليه إثر شجارها العابر مع أشقائي و والدي حوله حيث إعتبرته نوعا من التلكؤ و الإستهتار بالموضوع من قبل أسرة الحريو[٢٠] حسب وجهة نظرها القائمة على المبدأ المصري في الزواج (خير البر عاجله) .

ثم تأتي مشكلة سقف المنزل المبني على الطرق التقليدية العائدة أرومتها إلى الهندسة المعمارية اليمنية القديمة في البناء و المعتمدة أساسا على القوالب الخشبية و اللبن بدلا من الأسياخ الحديدية و الإسمنت المسلح حيث كان يتسبب لنا بمزيد من التشققات الناشئة عن عوامل التعرية و الرياح التي تسمح بتسرب قطرات الأمطار الغزيرة بكميات هائلة الى داخل غرفنا الصغيرة و الكبيرة على حد سواء ، سيما و أني لم أنس كيف كان والداي يجتمعان بضيوفهم داخل الديوان

[٢٠] كلمة يمنية قديمة معناها العريس و هي عكس الحريوة التي تعني العروس (المؤلف) .

تحت وقع أنغام طناجر المطبخ المنتشرة في كل ركن من أركانه العتيدة الحاضنة لسيل جارف من قطرات المطر الذي لا ينضب معينه عن الهطول دون أن يكترثوا لذلك معتبرين إياه أمرا واقعا يجب أن نقبل به لينسحب بدوره على كيفية تعاملهم الغريب و الغير منطقي مع هذه المشكلة الملحة منذ إنشائهم المنزل عام ١٩٧٩م ، فبدلا من سد الشقوق بالإسمنت المسلح و الحديد فوق الطبقة الأصلية أثروا تغطيته بالقار الأسود الذائب مؤقتا رغم علمهم علم اليقين بأنه سريع التآكل و التشقق بعد شهر تقريبا من طليه على الشروخ العميقة على السطح و لا يفي بالغرض في حال سقوط الأمطار عليه ؟! و هذا ما إكتشفوه بعد ثلاث ساعات من وضع دلوين منه على أرجاء السقف قبل أن يجف عندما تفاجأوا بزخات مطر مباغتة تنهال عليهم ما أثار غضب والدتي العارم و تصب حممه الملتهبة على من حولها بمن فيهم والدي العزيز حيث لم تهدأ ثورة غضبها عند هذا الحد ، بل إجتاحت أعاصيرها السامة إخوتي بمن فيهم العروس و أنا لعد التزامنا التام حسب زعمها بالتجهيز الكامل لأمور العرس كما هو مطلوب منها بالرغم من أني في تلك الأثناء كنت أودي إمتحانات الشهادة الإبتدائية و هي تعلم ذلك علم اليقين إلى جانب عملي المتواصل في تجهيز عرس شقيقتي البكر آنذاك ، و جدي الضئيل الحجم و مدير مدرسة الفتح الحكومية الواقعة في رؤوس جبال العود الجرداء معظم العام لحظة مجيئه إلى

منزلنا وصلت إلى حد الشجار المعتاد بين الزوجة و حماها العزيز بحجة أنه آتى إليهم في وقت غير مناسب للضيافة ، و أهل بلادنا الأصلية (ما عدا أولاد خالي يوسف) و لا سيما أخوالي مصلح و صالح و حمود و أولادهم و أسرة العريس الذين من وجهة نظرها لم يقدموا اية مساعدة تذكر في التجهيز لعرس إبنتها البكر أو يساهموا في نفقاتها الباهظة سوى الفتات الهزيل الذي لا يسد الرمق من أموالها الوفيرة على تجهيزات العرس رغم إعتبارها من أهم الأسر الهاشمية المحتد في مسقط رأسها بمديرية السدة و النادرة و ثرائها الفاحش و إسرافها العبثي بالنفقات على مصاريفها الخاصة دون حياء أو خجل لمن هب و دب و حضورهم أيضا رجالا و نساء زرافاتا و وحدانا حفل الزفاف و مأدبة الغداء المتواضعة التي أقيمت على شرفهم في باحة منزلنا الواسعة الغير ممهدة فقط ..... و غيرها من الأمور التافهة التي لا تستحق الذكر من وجهة نظر من حولها قبل أن يخمد بركانه الثائر و يتحول بردا و سلاما على صاحبته التي تنفست الصعداء بعد مرور العرس بسلام و إحياء الليالي الملاح لكل من حضر هذا الزفاف العامر من كل حدب و صوب التي ظلت حتى بعد إقامته بثلاثة أسابيع أخر .

و رغم شعوري الزائد بالضيق من الضغوط الأسرية المنهالة على كاهلي أثناء تجهيز هذا العرس الأول لواحد من إخوتي رغم صغر سني و عدم قدرتي التامة على تلبية حاجاته على أكمل وجه ، إلا أني سرعان ما

تبخرت تلك المصاعب من مخيلتي تماما بعدما أحيينا زفافها العامر و شعرت حينها بالسعادة الغامرة تجاه أختي و عريسها الشاب حيث كنت لا أزال على طيبتي و سذاجتي الطاغية و قلبي المفعم بالمشاعر الجياشة البريئة براءة الأطفال الحقيقيين لا المزيفين قبل ان اقلب ظهر المجن لما سبق بين ليلة و ضحاها .

لم أخف سعادتي تجاه صهري الجديد مدة شهر بأكمله خلال زياراته المكوكية نحو بيتنا بصحبة عروسه لما تلمسته من حس الدعابة و اللباقة السائدة في شخصيته الجذابة و كلامه الهادئ أثناء مخاطبته لنا لم أعهده من قبل في سلوكيات عائلتي الرشيدة حتى هذه اللحظة رغم عدم إختلاطي الشديد به أثناء وجوده النادر عندنا ما جعلني أنظر إليها نظر شك مطلق في نواياها الحسنة بعدما باتت بالنسبة لي من الوهلة الأولى مجرد جزء مكرر من آداب الضيافة الشكلية المزيفة المتعارفة لدينا نحن اليمنيين المعروفين بنفاقنا الطاغي نظهر خلاف ما نبطن خيرا كان أم شرا حيال الآخرين ، و على الرغم من إنتمائه لأسرة رفيعة المستوى و سليلة الحسب و النسب و تمتلك العديد من الأراضي و الأموال المشروعة و الغير مشروعة التي ورثوها عن والدهم منذ عمله في القضاء إبان العهد الامامي البائد إلا أنهم لم يكلفوا خاطرهم بمنحه نصيبه من الميراث أو بيت خاص له و عروسه الجديدة حيث أقامت معه في منزل متواضع بالإيجار في حي مسيك الواقع على سفح جبل

نقم المتشح بالظلام الحالك السواد ، بل إن حتى شقيقاته الصغار اللائي يفضلهن على إشقائه الكبار المنصرفين عنه و لهن السمع و الطاعة في كل صغيرة و كبيرة تتعلق به و الأمر و النهي في أمور حياته اليومية عامة و الشخصية خاصة منذ نعومة أظافره إلى حد طلب والدتي موافقتهن على أن تكون شقيقتي رباب زوجة له نيابة عنه لم يكلفن خاطرهن في دعم شقيقهن المدلل بالمال و النفس و لو بشق تمرة ، علاوة على ذلك فهو موظف بسيط في مصلحة الضرائب منذ عام ١٩٨٨م أي قبيل تخرجه من الجامعة بسنتين دون أن يعرف السبب بالنسبة للجميع و أنا أولهم .

على العموم ، مضت عام بأسره على زواجهما الشبه متعثر ، و إزدادت زياراتهم المكوكية إلى منزلنا و التي ضقت بها ذرعا بعد أن وصلت إلى حد الإقامة و المبيت لدينا لأسابيع أو أشهر عدة ، سيما إثر تزامنها مع مكوث والدتي في مستشفى الكويت كما أسلفنا من قبل ، اذا كانوا يحبون بعضهم البعض فلما تقيم رباب في منزل العائلة طوال هذه الفترة ؟ هل يعود ذلك إلى أوضاعهم المعيشية الغير مستقرة آنذاك أو إلى الخلافات الزوجية الموجودة في كل بيت سرا و علانية قبل أن يجف حبر زواجهما على الورق ؟ أم أنني أضحيت كثير التململ إلى حد الغضب من وجودها بين ظهرانينا بعد زواجها أم بعد مرض والدتي و تغير طباعي الحسنة إلى الأسوأ أم بعد ولادتها نجلها الأول سعيد ؟

سيما و أن هذه الأخيرة سرعان ما عمقت شقة الخلاف و حدة الصراع بيني و بينها ، حيث فوجئت بولادته أمامي إثر عودتي من المدرسة تحت أشعة شمس الظهيرة الحارقة سيرا على الأقدام حيث لم أعتد من قبل على ممارسة دوري كخال لأولاد أختي أو حتى جاهزا لأداء هذا الدور المنوط بي البتة و أنا الذي كنت فيما مضى أضيق ذرعا من الإعتناء بشقيقي الأصغر نعمان و هو في المهد حتى بلوغه العاشرة من عمره و لأتفه الأسباب فما بالك بطفل من صلب احد اشقائي حملني همه صغيرا ؟ سيما و أنها المرة الثالثة التي أرى فيها طفلا يخرج من أحشاء والدته امام ناظري في نفس المشهد الحامي الوطيس الذي تتعرض له كل إمراة ريفية حامل تفتقر لأبسط مقومات الرعاية الصحية الكاملة في بلادنا يفوق في أهواله الجمة أهوال المعارك الطاحنة تحت لهيب الوغى و جحيمها المستعر و نيرانها الملتهبة بدماء جنودها القتلى من كلا الطرفين دون أن تبرد و اتحمل همه قليلا بعد ولادة نعمان خلال عملية قيصرية أجريت لوالدتي بعد وصول حملها إلى مرحلة حرجة في مستشفى الثورة العام عام ١٩٨٣م و ولادة فؤاد إبن عم والدي نبيل غافر داخل داره على يد القابلة عام ١٩٨٥م ، إلا إنها المرة الأولى التي أشاهد طفلا رضيعا يختن أمامي و تحديدا داخل منزلنا بدلا من المستشفى و كادره الطبي المتخصص و أدواتهم الجراحية المعقمة في هذه المسائل أمام أعيننا و في غرفة نومنا الضيقة عندما حضر الحلاق مرزوق إلينا و هو رجل في العقد الرابع من عمره بثيابه الرثة و شعره الأشعث الأغبر و منظره المقزز و أدواته الجراحية الغير معقمة رغم كونه واحدا من أقرباء جارنا الجزار منصور الرحبي و كلاهما من طبقة المزاينة المحتقرة إجتماعيا من قبل عائلتي العريقة و القابعين أدنى السلم الطبقي للمجتمع الصنعاني

التقليدي و فقا لعاداته و تقاليده القبلية العفنة المتوارثة من المذهب الزيدي الهادوي[٢١] ، بل و الأغرب من هذا أنه من قام بختاني و إخوتي الذكور الواحد تلو الآخر و نحن في خدر أمنا ؟!! لم أكن أعلم شيئا عن الختان و أغراضه و ماهيته جملة و تفصيلا ، فالمرة الأولى التي سمعت بهذا الأمر عندما ذكره الفنان الكوميدي السوري دريد لحام الشهير لدى الجمهور العربي و اليمني على حد سواء بشخصية غوار الطوشي في مسرحيته الشهيرة (شقائق النعمان) التي شاهدناها عبر الفيديو عام ١٩٩٢م و هو يسخر في إحدى المشاهد من رئيس البلدية في مسقط رأسه بعد "تطهيره"[٢٢] ؟ ظننتها منذ الوهلة الأولى أنها طقس من طقوس الوضوء في الإسلام عبر الماء الطاهر ، لكن صراخ سعيد المروع و المتزامن مع بكائه الحاد و الدماء المتناثرة تقطر من عضوه التناسلي الواقع بين ساقيه الرخوتين قبل أن يطفئ مرزوق لهيبها بسيل من البودرة البيضاء لمداواة الجروح الناتجة من الختان دون أن يطفئ حرارة بكاء الأول المنهمر على وجهه الاسفنجي الرطب البريء طوال ساعتين تقريبا جعلتني أشمئز من المنظر و أتوجس خيفة منه ، أهذا هو الختان ؟ عملية جراحية شبه تجميلية لإستئصال الجزء الزائد الذي يسد فتحة مجرى البول في العضو التناسلي للرجل على يد الحلاقين أو الأطباء ؟ ما المثير للاهتمام في ذلك الأمر ؟!!! أشياء عديدة كما ذكرها بعض الكتاب اليمنيين و على رأسهم الأديب و الصحفي حمزة علي لقمان الشقيق الأصغر لمؤسس صحيفة فتاة الجزيرة و مؤلف رواية (سعيد) محمد علي لقمان في كتابه (الأساطير اليمنية) ، منها إعتبارها طقسا من طقوس الإسلام الأساسية لمن أراد إعتناقه كما يزعمون ؟!!! و تجرى عملياته للذكور و الإناث

[٢١] نسبة إلى الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسسة دولة الأئمة الزيديين في صعدة شمال اليمن منذ عام ٩٣٠م حتى قيام ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م (المؤلف) .

[٢٢] معناها ختانه باللهجة السورية (المؤلف) .

على حد سواء و لاسيما في المناطق الحارة لإطفاء لهيب الهوس الجنسي لديهم ؟!!! و يتم إجراؤها بالبركة على الشخص المراد ختانه سواء أكان صغيرا أم كبيرا في السن دون التشدد في التعقيم الصحي الضروري لأدواته الجراحية و مكان إجرائه ؟!!!! دون أن يمنع هذا بعض الناس من إجراء الختان لأولادهم داخل المستشفيات أو العيادات المتخصصة بذلك و في عمر مناسب لتحمل أعراضها الجانبية حرصا منهم على صحتهم و سلامتهم إيما حرص من أي ضرر يعرض حياتهم للخطر .

لم يكن الختان التحدي الوحيد الذي واجهني إثر ولادة سعيد ! فلقد تحول منزلنا إثر ولادته القيصرية إلى غرفة عمليات أسرية من أجل إقامة مناسبة تقليدية مدتها أربعين يوما إحتفاء بالمولود الجديد تمثلت في تهيئة الموضع المثالي لجلوس الأم و طفلها بحيث يتيح لها إستقبال الضيوف المهنئين و جلهم من النساء بشكل مناسب و مرصع بأبهى حلتها التقليدية المتواضعة و تجلس ممددة على فراشه الوثير جلوس الملكة على عرشها المخملي يوم التتويج و إن كان مصنوعا من خشب عادي خشن أساسه سرير متواضع تم شراؤه من عند النجار المجاور لنا عام ١٩٨٤م قبل أن تحيله والدتي سعيا وراء هذه المناسبة إلى سرير ملكي ناعم مرفوع عن الأرض نوعا ما يقبع في أقصى ركن في الديوان مبطن ببطانيتين سميكتين للغاية لا يستخدمان إلا في الطقس البارد لمجموعة محدودة من أفراد عائلتنا مطرز بأفخر أنواع السجاد التركي و الإيراني و الأفغاني الرخيص المغروس في نفس المكان منذ طفولتنا

الغابرة تبهر و تمتع الناظرين بروائع الفن الإسلامي المنحوتة على خيوطها الذهبية و المعبرة عن الأنامل الخلاقة الفقيرة التي صاغتها بغاية الإبداع و الجمال تحت ظروف معيشية سيئة لا يتحملها إنس و لا جان و لا سيما صور الكعبة المشرفة في مكة المكرمة و المسجد النبوي في المدينة المنورة و المسجد الأقصى في القدس متجاورون مع بعضهما البعض بقمة الإخوة و المحبة في خندق واحد ، و صورة جماعية للنساء اللواتي ملأن سطور ألف ليلة و ليلة بقصصهن الشيقة و المثيرة للخيال و الشبق في آن معا يجتمعن في جناح واحد بإحدى قصور الخلفاء العباسيين في بغداد و أبرزهم الخليفة هارون الرشيد ..... الخ .

فضلا عن تخصيص منزلنا لإستقبال النساء فقط دون الرجال بمن فيهم والدي و إخوتي و صهري العزيز حيث أجبروا على البقاء خارج الدار طيلة هذه المدة مشردين عند أصدقائهم المخزنين[٢٣] حتى آذان العشاء في بلد لا توجد فيه ثقافة المقاهي و الاجتماعات الاليفة فيها لتبادل الاحاديث الودية فيما بينهم و لم يعتد عليها منذ دهر من الزمن تاركينني إياي رهين المحبسين في غرفة المكان القبلي طوال اليوم و محاصر من قبل جيش هائل من الجنس الناعم بكافة الأعمار قادمات من كل حدب و صوب زرافات و وحدانا ! الأقرباء قبل الغرباء !

[٢٣] تعني الذين يمضغون القات طوال الوقت باللهجة اليمنية (المؤلف) .

الأصدقاء قبل الأعداء ! البعداء قبل الجيران يتكاثرن عليه تكاثر الجراد المسعور على حصاد الموسم الوفير يجتمعن براحتهن و يثرثرن و يملأن المكان صخبا و ضجيجا فارغا و دخانا كثيفا خانقا يتدفق من نارجيلهن التقليدية التي لا تطاق .

و فوق كل هذا تنشد بعض المنشدات و المطربات الشعبيات العاملات لقاء أجور باهظة جدا في الموالد و الأفراح و المآتم تواشيح دينية و أناشيد طفولية و أغاني قديمة منبثقة من التراث الصنعاني بأسلوب ركيك و فظ و طقوس إحتفالية غاية في الغرابة ، بل وصل بهم الأمر إلى حد إرسال إهداء عبر الأثير لبرنامج (أفراح) الذي يذيعه المذيع المخضرم عبدالعزيز شائف طالبين منه أغنية (ماما زمانها جايه) للمطرب و الموسيقار المصري الراحل محمد فوزي بمناسبة ميلاده الميمون .

و علاما كل هذا الضجيج ؟ على مولد طفل طوال شهر و نصف ؟!! لم أظفر بربع هذا الحشد الغفير من الزائرات حولي و الإهتمام المبالغ به يوم ولدت فما بالك بسعيد ؟!! من هو حتى يحظى بهذه المكانة الرفيعة من الجميع يوم ولادته كما لو كان رئيس للجمهورية أو ملكا متوجا على عرشه بالرغم من سنه الصغير و حجمه الضئيل ملفوفا على قماط أبيض ؟!! و ما زاد الطين بلة المصاريف المهولة لتلبية إحتياجاته

و متطلباته الغذائية و الدوائية فاقت ما أنفق علينا جميعا من قبل ؟!!! ألأنه أفضل منا بولادته مطلع العهد الجديد و جيلها الواعد بمستقبل مشرق عكس جيلنا المولود في فترة التشطير و عهدها البائد ؟!!! ..... الخ .

رغم كل ما سبق لم تكن معظم ظنوني في محلها ، فلقد رأيت رباب تعاني الأمرين جراء رعايتها الدائمة نوعا ما لوليدها الأول مثلما عانت والدتي من قبل و هي في مقتبل العمر حيث لم أنس تلك الليلة المضطربة تحت وقع القصف الجوي المتقطع و قبل آخر إمتحان لي من الإمتحانات النهائية للصف الأول الإعدادي نحيبه المتواصل إلى حد إزعاجنا و إصابتنا بالأرق المزمن طوال الليل و هي تحاول عبثا تهدئته أو إسكاته أو إرضاعه أو إطعامه قدر المستطاع دون أن تدرى علة بكائه الشديد و المفاجئ أهو نابع من الجوع أم إصابته بالحمى أم تعلقه الشديد بوالدته أم الخوف من الظلام ؟ قبل أن يعم الهدوء و السكينة غرفة نومنا المتواضعة إثر تناوله جرعة زائدة من الحليب الصناعي أعدته سريعا له خصيصا لهذا الغرض بعدما باءت محاولاتها الأولى لتهدئة روعه بالفشل لأدرك لاحقا و عبر قراءتي المختصرة لكتب علمية و طبية الخاصة بها عن الطفولة و الأمومة أنه بالرغم من فرحة الأم الحاضن الغامرة بالأمومة لأول مرة عبر مولودها الجديد في حياتها المضطربة أساسا ستدرك مليا مدى الصعوبات الجمة التي

ســـتواجهها طوعـــا أم كرهـــا مـــن خـــلال الإعتنـــاء بـــه منـــذ نعومـــة أظـــافره حتـــى بلوغه سن الرشد إلى يوم الدين .

الدهليز الثامن

ريم وادي بنا

كانت زيارة مفاجئة لهم هي الأولى من نوعها لنا و لهم إليهم منذ خمس سنوات و في وقت غير مناسب ! حيث لم يقم بها والدى إلا بعد مرور ثلاثة أسابيع من إندلا ع الحرب الأهلية خلال العام الراهن و لم تخمد نيرانها بعد ، و أسبوعين على إجتيازي الإمتحانات النهائية بسلام رغم بعض المشاكل أو المشاجرات التي دارت بيني و بين أساتذتي و زملائي و التي تنفست الصعداء برحيلي عنهم إلى الأبد بعد دفعي القسط الأخير من رسوم دراستي الباهظة التكاليف ، المهم أن غرض والدي من هذه الزيارة التسرية عني و الإطمئنان على أهل مسقط رأسه النادرة و لا سيما إبن عمه نبيل المنتشرين بمساكنهم التقليدية المتواضعة على إمتداد ربوع منطقة جبل نقم حيث تعتمر قمته الشماء الحالكة السواد القلعة التركية القديمة بمدافعها الأثرية التي شيدها الوالي العثماني سنان باشا لحماية صنعاء من قطاع الطرق القبليين و أئمتهم المتمردين الفاسدين الإنتهازيين ، و حاراته الشعبية بطرقها الترابية الغير المعبدة و أزقتها الأضيق من عنق الزجاجة تعج في أرجائها رائحة المجاري العفنة و مياهها القذرة التي تتفجر بين الحين و الآخر و تتدفق إلى أسفل السائلة الجافة الفاصلة بين صنعاء القديمة من باب

اليمن جنوبا إلى ضواحي الروضة إلى شطرين دون حل جذري لها من قبل حكومتنا الرشيدة منذ عقود مضت رغم مجاورتها لحي مسيك الشبه راقي و شوارعه الإسفلتية الشاهقة و أنفاقها الشحيحة الإضاءة ، دخلنا منزل إبن عم والدي العم نبيل غافر الشاحب اللون و القابع في وسط الحارة الترابي حيث كان و أبنائه عمر و عاصم و مازن و فؤاد و زوجته فندة في إستقبالنا على أحر من الجمر و بغاية الحفاوة و الإهتمام البالغين بنا قلما يحدث مثله إلى حد دعوة كلانا أنا و أبي لتناول الغداء معهم رغم أن زيارتنا خاطفة و قصيرة الأجل تنتهي مدتها قبيل آذان الظهر بسويعات قليلة فقط !

سرعان ما حرك هذا الشوق الجارف من قبل عائلة العم نبيل غافر للقائنا مياه ذاكرتي الراكدة لتعيدني إلى أول زيارة لي إلى موطني الأصلي منذ نعومة أظافري حتى هذه اللحظة حيث لم يغب عن ذهني أبدا تلك الرحلة المفاجئة بالنسبة لي و التي بدأت فصولها المكوكية في العطلة الصيفية عام ١٩٨٩م أي بعد شهر من إجتيازي إمتحانات الصف الثاني الإبتدائي بنجاح باهر عندما قرر والدي أن نسافر جميعا إلى النادرة على متن سيارته التويوتا اليابانية الصنع البنية اللون التابعة لمقر عمله ببنك الإسكان آنذاك بغية قضاء عطلة عيد الأضحى المبارك هناك بعدما أعددنا العدة و المتاع و الرحال مبكرا و إشترينا ملابس العيد الجديدة من قلب ميدان التحرير التجاري إثر إستحمامنا

في حمام المتوكل[٢٤] المحاذي للبنك اليمني للإنشاء و التعمير لهذه الرحلة الفريدة من نوعها بالنسبة لي رغم خروجي الأول من حدود منزلي و العاصمة الى المحويت و إب و تعز عام ١٩٨٥م ، سيما و أنها أول مرة أزور فيها موطن أجدادي منذ زمن طويل .

سرعان ما إنطلقنا من فورنا في الدقائق الأولى من فجر اليوم التالي صوب هدفنا المحتوم قاطعين شوارع الأمانة الجنوبية و أبرزها باب اليمن و شارع تعز و شارع خولان حتى خروجنا من حدودنا الإدارية الوهمية منذ عام ١٩٨٢م لندخل عقبها جنوب نظيرتها محافظة صنعاء عابرين أولى مناطقها القاحلة و جبالها الجرداء حزيز و قحازة و بلاد الروس التي ظننتها من إسمها الغريب أن جل سكانها قدموا من روسيا إلى هنا إبان الإستعمار التركي لبلادنا قبل أن أستدرك لاحقا سبب تسميتها الحقيقي يعود إلى رؤوس الجبال المحيطة بها من كافة النواحي ، ظللنا على هذا الحال قبل أن يقشعر بدني عندما علمت من أخي الأكبر صالح بأمر دخولنا محافظة ذمار بعد قليل إثر مرورنا من أولى مدنها المقابلة لنا مدينة معبر ! تلك المحافظة التي تعرضت لزلزال مدمر قوته ٦ ريختر عام ١٩٨٤م ، فما إن دنونا من مركز المحافظة ذمار الواقعة وسط منطقة عنس و جبالها الموحشة المحيطة بها من كل جانب حتى توجست خيفة لحظة مرورنا منها و خشية أن ترجف أرضها

[٢٤] إحدى الحمامات الشعبية في صنعاء القديمة و ميدان التحرير بأمانة العاصمة صنعاء (المؤلف) .

الرخـــوة مجـــددا تحـــت أقـــدامنا و عجـــلات ســـيارتنا رجفـــا و تخســـف بنـــا خسفا كما فعلت بأهلها الأمنين منذ خمسة أعوام :

(ما لك يا مازن ؟ ليش أنت خايف ؟)

(كيـــف مـــا أخـــافش يـــا صـــالح ؟ مشـــي هـــذه ذمـــار اللـــي ضـــربها الزلـــزال ؟ طبيعي لازم أخاف)

(قصدك عيجي زلزال ذلحين و يقلب السيارة حقنا و يموتنا ؟)

(ايوه !!)

(ســـعليك ، مـــا بـــش هـــذا الخبـــر ، هـــي هـــذه المـــرة اللـــي حصـــل زلـــزال عنـــدنا و ما عيتكررش نهائي)

(أكيد ؟)

(الله المستعان ! أكيد !!)

رغـــم تأكيـــده الجـــازم حـــول مـــا يـــدور فـــي خلـــدي مـــن مخـــاوف حيـــال الزلـــزال إلا أنـــه كـــبح جماحهـــا مؤقتـــا ، ســـيما و أنـــي قـــرأت كثيـــرا عـــن الـــزلازل و أســـبابها و مخاطرهـــا و البلـــدان الأكثـــر تعرضـــا لهـــذه النوعيـــة مـــن الكـــوارث الطبيعيـــة التـــي تهلـــك الحـــرث و النســـل و تحديـــدا الواقعـــة فـــي الخارطـــة الزلزاليـــة كتركيـــا و إيـــران و الجزائـــر و أمريكـــا و المكســـيك و اليابـــان ، كمـــا أن زلـــزال ذمـــار لـــم يكـــن الوحيـــد الـــذي هـــز أركـــان العربيـــة الســـعيدة و

سكانها الكسالى مثلما زعم صالح بعظمة لسانه ، فلقد زلزلت الأرض زلزالها مجددا في مسقط رأس جيراننا منطقة العدين بمحافظة إب عام ١٩٩٢م مخلفة خسائر جسيمة في الأرواح و البنى التحتية و الممتلكات لا تقل عما جرى في ذمار .... لكن موضوع الزلزال لم يشغل بالي بقدر ما شغلني و أثار إهتمامي هو مدينة ذمار التي شعرت بالأسى نحوها بعد هذا الحدث الجلل دون أن أعي طبيعة أهلها و أرضها القاسيتين الوحشيتين جيدا إلى حد ما ، فبالرغم من أخلاقيات أهلها السيئة السمعة و سلاطة لسانهم و أرضهم الجرداء إلا ما ندر إلا أني إعتبرتها قلب الشطر الشمالي من الوطن و ذاكرة مآسيه و أحزانه و نكباته الموجعة للقلب و صندوقها الأسود على مر العصور ، علاوة على ذلك فمعظم المبدعين من أهل صنعاء في كافة المجالات و بالأخص عائلات الآنسي و العنسي و المروني و الأكوع و السوسوة و الوريث تعود أصولهم إلى ذمار ، فضلا عن تلقيبها بكرسي الزيدية لكونها مركزا مهما لتعليم فقه الأقلية الزيدية و نشر تعاليمها المتشددة المتطرفة بعد تسييسها على يد حكامهم في أرجاء المعمورة عبر المدرسة الشمسية ما جعلها تتبوأ مكانة رفيعة بين أقرانها في صنعاء و حجة و صعدة ، و هذا ما لاحظته عند تأملي لقاع جهران الزراعي المنخفض عن سطح الجبال المحيطة به بأمتار عديدة و شوارعها و مبانيها القديمة التي لا يختلف معمارها التقليدي تماما عن نظيره

الصنعاني ما عدا إستخدامهم الدائم و الفريد من نوعه للأحجار النارية السوداء اللون و المعروفة لدينا بإسم أحجار الحبش لأنها سوداء كالأحباش أو الإثيوبيين حسب زعمنا العنصري بدلا من اللبن و الياجور[٢٥] لوجودها بكثرة لديهم عن غيرهم من المناطق الأخرى .... و غيرها من الأمور الملفتة للنظر التي أوحى إلي بأني مازلت في صنعاء لم أتزحزح عنها قيد أنملة رغم أن تاريخها يعود إلى عهد مؤسسها الذي منحها إسمه لها الملك الحميري ذمار علي في القرن الثالث الميلادي و تعني الوطن باللغة اليمنية القديمة و ليس الدمار كما زعم أصدقائي المقربين منذ الطفولة عاطف و ياسين و جلال على سبيل المزاح السمج السائد لدى شعبنا الغريب بتصرفاته الطفولية التي لا تخلو من البذاءة و سوء النوايا الساذجة ، سيما و أن منظر المدينة السكنية الجديدة للمتضررين من الزلزال و المركز الوطني للزلازل اللذان تم إنشائهما عام ١٩٨٥م و إعادة تخطيط الدولة العمراني و الحضري البطيء للمدينة الذي يجري على قدم و ساق منذ عام ١٩٨٦م أكد لي بما لا يدع مجالا للشك بأنها مازالت علي قيد الحياة و لو على إستحياء و أن زلزالها الشهير بعنفه الأرضي الفريد من نوعه في شبه الجزيرة العربية ليس نهاية المطاف و لم تمح من الخارطة تحت وقع ضرباته المجلجلة بجرة قلم .

[٢٥] أنواع من أحجار البناء المصنوعة من الطين المجفف بالنار و المستخدمة في البيوت التقليدية في صنعاء و ضواحيها (المؤلف) .

ما إن مررنا من ذمار مرور الكرام حتى ولجنا باب جارتها الجنوبية و أولى مدن محافظة إب المقابلة لنا مدينة يريم نسبة إلى أحد الملوك الحميريين يريم بن يحصب كما أخبرني والدي حسب زعمه بذلك و التي ذكرها المستشرق الالماني كارستن نيبور في كتابه الشهير (وصف بلاد جزيرة العرب) و الذي ترجمه سفيرنا السابق لدى اليونسكو الأستاذ محمد الرعدي[٢٦] النسخة الفرنسية الى العربية بعنوان آخر إلا و هو (من كوبنهاغن إلى صنعاء) عن رحلته الإستكشافية إلى الشرق الأوسط بتكليف من ملك الدنمارك عام ١٧٦٢م حيث رسم لوحة فنية رائعة إلى حد ما عنها و تحدث عن الصراع الأزلي الطفولي الدائر بين سكانها و سكان ذمار منذ القرن السابع عشر الميلادي حتى وقتنا الحاضر و وصلت إلى حد تبادل الشتائم و السباب و المزاح السمج أو الزبج الحامض[٢٧] و الألفاظ النابية فيما بينهم دون أن يعرف السبب و بالرغم من عاداتهم و تقاليدهم المشتركة و لهجتهم الخبانية[٢٨] الواحدة و تخطيطهم الحضري العشوائي الواحد .

و مع ذلك فهي لا تقل شأنا في دورها التاريخي عن نظيراتها في الشمال و الجنوب على حد سواء ، فهي بلا فخر كانت مقر عاصمة الدولة الحميرية ظفار حتى القرن الرابع الميلادي و الموطن الأصلي

---

[٢٦] من رجال النهضة الحضارية و العمرانية في اليمن الشمالي بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر الخالدة و نظامها الجمهوري عام ١٩٦٢م (المؤلف) .

[٢٧] تعني المزاح الثقيل باللغة اليمنية القديمة و اللهجة الصنعانية (المؤلف) .

[٢٨] نسبة إلى مخلاف خبان أو إقليم خبان الجغرافي الحميري الشامل لمحافظات ذمار و إب و أبين و الضالع و البيضاء و تعني بلاد الحب باللغة اليمنية القديمة (المؤلف) .

لعائلة الزبيري و لا سيما أبو الأحرار الشاعر و الأديب محمد محمود الزبيري رغم ولادته في حي بستان السلطان بصنعاء القديمة .

و على ما يبدو أنها حافظت على مكانتها التاريخية رغم تواضع نهضتها العمرانية و إقتصاره ضمن إطار المحافظة ، فحسب التقسيم الإداري آنذاك و المقتبس معظمه من التراث التركي العثماني و الذي وضعها في قلب اللواء الأخضر[٢٩] أضحت يريم قضاء إداريا يشمل العديد من المديريات التي وصلت الى حدود الإثنى عشر مديرية من أبرزها مديرية كتاب و مديرية الرضمة و مديرية السدة و مديرية النادرة ، فالأولى لا تبعد كثيرا عن عاصمة القضاء يريم حيث سرعان ما وصلنا اليها قادمين من هناك حيث عرفت بهذا الإسم الغريب نسبة الى حقل قتاب و المعروف حاليا بقاع الحقل ليحرفه سكانها عن أصله الحميري بعاميتهم الخبانية البسيطة الركيكة الى "كتاب" ، تأملنا عن كثب قاعها الدائري الأخضر المائل للإصفرار و الواسع الحجم و الملاصق لشقيقه قاع جهران تحيط به جبال عراس أحد معاقل الطائفة الإسماعيلية الشيعية في اليمن و ينتسب إليها محافظ عدن السابق و عضو الحزب الإشتراكي في الشطر الجنوبي من الوطن علي عبدالله العراسي و جبل بيت الأشول المكون من بيت و مزرعة واحدة تتسع لعائلة صغيرة مؤلفة ثلاثة أفراد و حيواناتهم الأليفة فقط في أعلى قمته البتراء ، و ما

[٢٩] لقب محافظة إب لدى اليمنيين (المؤلف) .

لفت نظري حينها مرور جرارتين زراعيتين من ذوات الحجم المتوسط ، إحداهما حمراء تركية الصنع صدرت مؤخرا إلى البلاد و الأخرى خضراء محلية الصنع تم إنتاجه في مصنع صغير و مبتكر لصناعة الجرارات الزراعية بمحافظة صعدة تم إنشاؤه على يد ثلاثة مهندسين ميكانيكيين متخصصين في صيانة و إصلاح الآلات الزراعية التابعة لمكتب وزارة الزراعة هناك عام ١٩٨٧م حيث تعرفنا عليهم عبر برنامج (الزراعة و الفلاح) التلفزيوني عام ١٩٨٩م الذي يقدمه المذيعان الشهيران ببرنامجهما الإذاعي (في ربوع الريف) منذ عام ١٩٨٤م صالح العابد و علي يوسف الأمير ، لكن ما لفت نظري في هذه الطريق كثرة اللجان الأمنية و العسكرية في ركن من أركانها حيث كان غيض من فيض أمثالها على إمتداد الطرق الإسفلتية و الوعرة في كافة أنحاء الجمهورية و لا سيما المناطق القبلية في الشمال و مناطق الإشتباكات الحدودية في الجنوب لمطاردة المطلوبين أمنيا و المجرمين و اللصوص و قطاع الطرق المسلحين و مكافحة المخدرات و السرقة و الأسلحة و الممنوعات و الفوضى المرورية و الأمنية و عناصر جبهة التخريب[٣٠] أيضا .

[٣٠] لقب الجبهة الوطنية الديمقراطية المدعومة من قبل النظام الشيوعي في اليمن الجنوبي لدى معارضيها من سكان المناطق الحدودية الوسطى بتعز و إب و البيضاء و مأرب و قادة النظام الحاكم في اليمن الشمالي قبل الوحدة (المؤلف) .

بعد ذلك ، عبرنا الرضمة أو ما يجاورها دون أن ندخل إليها مرورا عابرا و التي لم تثر إهتمامي كثيرا قبل أن يتبدل هذا الشعور عند دخولنا مديرية السدة العامرة بشوارعها المعبدة و بيوتها الفخمة إلى حد ما و مدارسها و مستشفياتها و متاجرها المحدودة و إن كانت تفوق كثيرا ما لدى النادرة من هذا القبيل بفضل تحويلات أبنائها المغتربين في أمريكا و كندا و بريطانيا رغم أنهم لم يكلفوا خاطرهم بإنشاء جسر معلق و كبير فوق وادي بنا يربطهم بالنادرة حيث إضطررنا لعبوره بسيارتنا إلى الضفة الأخرى مستفيدين من جفافه و إنحسار مياهه آنذاك و إلا كان مصيرنا تحت لجة سيوله الجارفة في موسمه المعتاد صيفا أو عبثت بمحركه و عجلاته الرباعية الدفع كما يحدث لغيرها ليلا ، و ما إن وصلنا بحذر شديد إلى النادرة حتى إجتزنا أول محطة فيها أو إن صح التعبير بوابتها الخلفية دار سعيد حيث كانت من قبل محطة عبور للعربات و السيارات القادمة من السدة و الرضمة للإستراحة و تناول الغداء فيها كما أخبرني والدي بذلك حسب زعمه ، إلا أنها واقعة أسفل المدينة و منخفضة عن سطح الوادي بأمتار عدة جعلت مهمة صعود سياراتنا المتخصصة في عبور الأراضي الوعرة كما هو مكتوب على عرض جسدها الحديدي باللغة الإنجليزية إلى مركز المديرية إنطلاقا منها بصعوبة بالغة وصلت إلى حد تسلقها تسلق المغامرين الأجانب للجبال الشاهقة ، سيما و أنها مازالت حديثة العهد

بهـــذه الأمـــاكن الخطـــرة و مخصصـــة للعمـــل الحكـــومي أيضـــا دون أن يكترث والدي لذلك .

و مـــا إن وصـــلنا إلـــى مركـــز مديريـــة النـــادرة حتـــى خابـــت ظنـــوني و توقعـــاتي الحســـنة عنهـــا حيـــث لـــم تكـــن تختلـــف كثيـــرا عـــن أحيـــاء صـــنعاء المقفـــرة و تحديـــدا حينـــا البـــائس الجـــراف رغـــم ميـــدانها الترابـــي الأكبـــر و الأوســـع حجمـــا مـــن ميـــداني التحريـــر و الســـبعين معـــا و كـــاف لعبـــور مئـــات مـــن الســـيارات و البشـــر و مـــن ضـــمنها ســـياراتنا التـــي عبـــرت مـــن خلالـــه صـــوب زقـــاق عـــريض أمامهـــا و وقفـــت قبالـــة بيـــت ضـــخم متعـــدد الطوابـــق علـــى الطـــراز المعمـــاري ، و مـــا إن خرجنـــا منهـــا حتـــى رأينـــا جـــدتي عاتكـــة كاشـــفة الوجـــه علـــى غيـــر عادتهـــا بإنتظارنـــا أمـــام عتبـــة الـــدار و بابهـــا الخشـــبي التقليـــدي دون أن تخفـــي تجاعيـــدها البســـيطة المحفـــورة فـــي وجههـــا القمحـــي منـــذ قـــرون و جســـدها النحيـــل للغايـــة رغـــم كتـــل اللحـــم و الجلـــد المتراكمـــة بداخلـــه و خصـــرها الأضـــيق مـــن عنـــق الزجاجـــة ، و مـــا إن نزلـــت بســـرعة مـــن الســـيارة متلهـــف علـــى أحـــر مـــن الجمـــر لعناقهـــا حتـــى صـــدتني بمنتهـــى الفظاظـــة و الجفـــاء بـــدلا مـــن البشاشـــة و الفرحـــة المرســـومة علـــى وجههـــا الشـــاحب لحظـــة لقائنـــا بهـــا ، بـــل و منعتنـــي مـــن الإقتـــراب مـــن المنـــزل لكـــي تتـــيح الفرصـــة للجـــزار مـــن أجـــل ذبـــح الخـــروف أمامنـــا ترحيبـــا بنـــا حســـب عـــادات المنطقـــة ، ذلـــك المنـــزل التـــي طـــردت منـــه إثـــر وفـــاة زوجهـــا عبـــدالرحمن غـــافر قائـــد لـــواء الحديـــدة الســـابق فـــي العهـــد الإمـــامي أواخـــر

العشرينات قبل أن تعزله حكومة الثورة من منصبه و تجرده من معظم أمواله و عبيده و جواريه و أملاكه العقارية الواسعة داخل النادرة و قعطبة و البيضاء و الحديدة و تعز التي جناها خلال حملاته العسكرية الموجهة الى هذه المناطق بأمر من الإمامين يحيى حميدالدين و نجله و خلفه أحمد لإخضاعها كمدا عام ١٩٧٢م على يد أولاده من زوجته الأولى ليستأثروا بما تبقى من ثروته الضئيلة تاركين فتاتها الذي لا يسد الرمق لإخوتهم و أخواتهم من زوجاته الثلاث و جواريه العشر ، ما دفعها إلى خوض غمار المحاكم و متاهاتها القضائية الشهيرة بفسادها الأزلي الذي مازال ينخر في جسدها البدائي العفن المحكوم بنظم و شرائع عفا عليها الزمن لتخرج من معركتها الماراثونية طيلة عشر سنوات عجاف بخفي حنين ، فلم تطال يداها بلح الشام أو عنب اليمن قبل أن تحط رحالها في منزلنا النائي في شمال العاصمة و بعدما أن أغراها والداي باقامة بيت لها داخل حينا البدائي قبل أن يعدل أبي عن قراره هذا و يبيعه لصالح إكمال تسوير دارنا و توسعته هذا العام ليدخل في شجار بارد مع أمي انتهى ببيع جزء منه لها .

و على ما يبدو لي أن منزل العائلة السالف الذكر لم يكن يستحق كل هذا الصراع العقيم بين أفرادها من أجل الظفر و لو بجزء من جسده الطيني الشامخ في وجه الزمن إلى حد ما ، فهو بحسب تعبير إخواننا الكويتيين من بره هالله و من جوه يعلم الله ، فما إن ولجنا إليه

حتى تبدد إنبهارنا و إعجابنا الشديد به ، أروقته ضيقة جدا تحسبها من ضيق مساحتها سراديبا رصاصية أو أقبية تعذيب سرية متشحة بالظلام إلا من بصيص ضوء ضئيل يتسرب اليها من خلال القمريات[31] الملونة البراقة المتناهية الصغر المحيطة بها حيث يتم الصعود عبرها بمنتهى الصعوبة و الحذر من خلال سلالمها الحجرية البدائية المتآكلة على مر العصور و القابلة للكسر في أي لحظة بعدما تهوي بمن وطأت قدماه إلى غير رجعة في ثوان معدودات توصلنا إلى غرف أضيق من الزنازين الصفراء التي يحشر في جوفها آلاف السجناء و المعتقلين و ضعيفة التهوية تدفع ساكنيها للصعود الى السقف (الجبا) لتنشق الهواء العليل في الصباح الباكر ، أما الحمام و المطبخ فحدث و لا حرج ، قبوان مظلمان متواضعان يفتقران إلى مجارير حديثة للصرف الصحي و النظافة يسودهما الظلام الدامس ما عدا بعض الثقوب المحفورة أعلاهما ينفذ إليها نور الصباح على إستحياء أو بعض الشموع الهزيلة الصينية الصنع و لا تفي بالغرض و دون أن يكلف أهل البيت خاطرهم عناء توصيل أسلاك الكهرباء إليهما ..... و غيرها من الأمور التي أوحت لي بأننا ولجنا إحدى الجبال الجرداء الشديدة الوعورة و إختبأنا داخل مغارتها و كهوفها المظلمة فارين بأرواحنا من وجه العدالة الغائبة

.

[31] عقود نصف دائرية مصنوعة من الجص و مزخرفة من الداخل بقطع من الزجاج الملون توضع فوق النوافذ في البيوت التقليدية اليمنية عامة و الصنعانية خاصة و تعود جذورها الى السبئيين القدماء الذين كانوا يزينون بيوتهم بها تقربا لإله القمر المقة (المؤلف) .

و مع ذلك لم يمنعنا هذا الوصف القاتم لما سبق من التعرف على الجانب المشرق منه حينما إلتقيت عن كثب بأولاد و بنات أخوالي الكبار المقيمين في النادرة منذ زمن طويل حيث لم يتزحزحوا من مكانهم قيد أنملة خارج أسوارها الجبلية إلا ما ندر ، و من أبرزهم على الإطلاق ابن خالي يوسف حسام و شقيقته الكبرى عفاف اللذان أصبحا من أعز أصدقائي رغم أن والدهما أذاق أمي الأمرين بعدما حرمها من ميراثها و إكمال تعليمها و أخرجها من المدرسة الحكومية الجديدة في المدينة و في الصف السادس الإبتدائي و تزويجها قسرا بأحد ضباط الثورة النافذين في منطقتهم و قد بلغ من العمر عتيا بأمر من والده عام ١٩٦٥م قبل أن تترمل مبكرا في مقتبل العمر بعد مرور ثلاث سنوات عجاف على إستشهاده إبان ملحمة السبعين عام ١٩٦٨م ذاقت خلالها الذل و الهوان و الظلم الزؤام على يديه و زوجتيه و أولادهما الذين حرموها من نصيبها الشرعي في ميراث زوجها الراحل ليطردوها من منزلهم خالية الوفاض من المال و الأهل و السند و الحب الحقيقي قبل أن تجدهم جميعا في شخص إبن عمها أبي الطيب الذي أنقذها من هذا الجحيم الذي لا يطاق بزواجه منها في تعز عام ١٩٦٩م رغم أنف أسرتيهما المعاديتين لكليهما و على رأسهم والده و شقيقها الأكبر اللدود ، كما تعرفت أيضا على بسملة الخادمة الأثيوبية الشابة الأرملة الفارة من الجحيم الشيوعي الجاثم على صدر

بلدها منذ ١٥ عاما الذي لم يرحم أفراد عائلتها الصغيرة المعدمة و لا تركهم على قيد الحياة بعدما أزهق زبانيته أرواحهم و ذبحوهم ذبح البعير عام ١٩٨٥م في مسقط رأسهم الواقع في قلب التيغراي و ريفه الجبلي الهادئ الأخاذ الذي لم يمسسه بشر قط بتهمة الخيانة العظمى حسب زعمهم ، لتسوقها الأقدار و من معها من الناجين بجلدهم من هول المذبحة إلى موطن أجدادها السبئيين الغارق بدوره حتى أذنيه في مستنقع الإضطرابات و القلاقل الداخلية و الفقر و الجوع و العوز و الحرمان و الحقد و الحسد الأسن لينتهي بها المقام خادمة وحيدة دون زوجها و أطفالها الثلاثة غريبة الوطن و اللسان لدى أناس رحماء مع غيرهم أشداء على أنفسهم غرباء في وطنهم حاقدين ضد بعضهم البعض على مر العصور حتى بعد تحرر وطنها العزيز من نير النظام الشيوعي عام ١٩٩١م إلى غير رجعة بعدما رحل مؤسسه الطاغية و رئيس الجمهورية مانغستو هيلو مريام منها هاربا إلى كينيا حيث ألقت رحالها أم قشعم غير مأسوف عليه .

علاوة على ذلك إستمعت كثيرا بقضاء أول أيام العيد هناك رغم إفتقارها الشديد للبنية التحتية و المعالم البارزة لأي مدينة حديثة كالطرق و الجسور و المدارس و المستشفيات و المتاجر الحديثة رغم شرائي للملابس و الألعاب العيدية الجديدة من إحدى محلاتها المتواضعة، فلقد كان ميدانها الترابي الواسع يزخر بالعديد من مظاهر

الإحتفال الشعبي بهذه المناسبة العزيزة على قلوبنا نحن المسلمين كمهرجان أمراء العيد[٣٢] حيث يرقصون رقصات البرع الشعبية الدائرية فيها متنكرين بأقنعتهم المفزعة و ثيابهم الغريبة و جواري سادة القوم إبان العهدين التركي و الأمامي في زمن إنتهى عصر الجواري حيث حل الرجال محلهن متخفين تحت ثيابهن التقليدية القديمة تفوح منها رائحة العصور الغابرة ينظمهم و ينظم الحشد المحيط بهم رجل نصف عار ملطخ بالدهان الرمادي مرتديا معوزا[٣٣] مزركشا و منتعلا قبقاباً مطاطيا مهترئا ، و إطلاق البوالين الملونة في الهواء الطلق و ممارسة الألعاب الشعبية و من بينها لعبة الكيرم [٣٤] و الطنج في الشوارع و التنزة بالقرب من السيل و السباحة على ضفاف الوادي .... و هلم جرا .

كما أنني أيضا تابعت مظاهر الإحتفال بعيد الأضحى في الشطر الجنوبي من الوطن عبر بث تلفازه الرسمي القوي على هذه المناطق لقربها الشديد من الحدود الجنوبية و الذي يعد أكثر جرأة و إمتاعا من تلفازنا الرسمي المحتشم نوعا ما عبر ما يقدمه من برامج ترفيهية و أفلام و مسلسلات مسلية و مثيرة للجدل لكافة الأعمار حيث تحمل في طيات معظمها الفكر الشيوعي السائد لدى دولتهم الماركسية الوحيدة في العالم العربي آنذاك .

---

[٣٢] مهرجان تقليدي سائد في المناطق الوسطى من محافظة إب و تعود جذورها إلى الحميريين القدماء (المؤلف) .

[٣٣] إزار تقليدي من حضرموت يلف حول خصر الرجل حتى ركبتيه (المؤلف) .

[٣٤] لعبة شعبية هندية الأصل منتشرة في الهند و باكستان و بنغلاديش و اليمن تتكون من لوح خشبي مثقوب محمول و قطع خشبية ملونة دائرية الشكل يقوم اللاعب بإدخالهن عبر سبابته الى ثقوب اللوح الأربعة (المؤلف) .

و تكررت نفس مظاهر الضيافة الإستقبال لنا و معها المظاهر الإحتفالية السالفة الذكر عند زيارتنا لمسقط رأس والدي في قرية الدوير بمنطقة العود في اليوم الرابع من أيام العيد و كأنه سيناريو متفق عليه من قبل أقربائنا المتربصين بزيارتنا في كلا القريتين ريب المنون ، فما إن نزلنا من سيارتنا المرهقة من جراء الصعود المتكرر إلى هنا عبر طريقها الوعرة المتصل بأسفل الوادي بلا جسر ثابت يربط بينهما دون أن يخطر ببال المواطنين الغارقين في أحقادهم و صراعاتهم الصبيانية المفتعلة لأتفه الأسباب آنذاك مجرد التفكير بإنشائه و إنشاء أمثاله من الجسور المعلقة و الطرق المعبدة بالأسفلت أو القرميد المرصوص على طريقة أسلافنا الحميريين التي تمهد السبيل للمسافرين من كل حدب و صوب و التواصل بين أبناء المنطقة الواحدة و ترحمهم من عناء و مشقة الصعود و النزول العبثي إلى قراهم و مدنهم الشديدة الوعورة كما لو كانوا قرودا منبوذة مسجونة في تلال جبلية جرداء معزولة لا طالت رحمة السماء و لا جحيم الأرض .

و صلنا أخيرا إلى منزل جدي لأبي الأستاذ عامر التقليدي المحاط بشجرة أثل عملاقة بعمر أسلافنا الحميريين الرابض على شفا ربوة عالية من جرف هار تشرف على منظر خلاب للوادي مع نسائم الفجر العليل لينسحب طوعا إلى جوفه السماوي أمام بزوغ الخيوط الأولى لبزوغ شمس يوم جديد حتى رأينا جدتي لأبي (فنده) واقفة أمام باب

المنـــزل الخشـــبي لإســـتقبالنا ، فمـــا إن دنـــوت بضـــع خطـــوات منهـــا حتـــى كـــررت نفـــس تصـــرف جـــدتي عاتكـــة الأرعـــن نحـــوي وفـــق الســـيناريو الســـالف الـــذكر مـــزج فـــي نصوصـــه الشـــفهية مشـــاعر الغضـــب و الفـــرح و الحـــزن المتناقضـــة حيـــال ضـــيوفهم بإســـلوب فـــج و مقـــزز يلفهمـــا غمـــوض خـــانق مفتعـــل لأتفـــه الأســـباب كمـــا هـــي عـــادة اليمنيـــين البـــارعين فـــي إخفـــاء عيـــوبهم و أعمـــالهم بخيرهـــا و شـــرها دون أن يعـــرف الســـبب ، المهـــم لـــم يفـــاجئني ردهـــا العنيـــف و نهرهـــا الفـــظ الوحشـــي البـــرئ نوعـــا رغـــم مـــا أحدثـــه مـــن فـــزع جعلت فرائصي ترتعد من الخوف الشديد :

(صباح الخير يا جدة ....)

(وخر[٣٥] !)

(ايش به يا جدة ؟! حصل شي مني و لا شي ؟!!!...)

(قلت وخر من غير عدامة)

(.....؟!)

(يـــاوه[٣٦] ؟!!! أيـــش بهـــذا الوليـــد البليـــد ؟!! قلـــت لـــك وخـــر مـــن قـــدامي علاسب يذبحوا الكبش !! وخر !)

[٣٥] إبتعد أو أغرب عن وجهي بالعامية اليمنية (المؤلف) .

[٣٦] يا إلهي بالعامية اليمنية السائدة في المناطق الوسطى بمحافظات إب و تعز و البيضاء و الضالع (المؤلف) .

لما كل هذا التعامل الجاف السخيف معي ؟ أمن أجل ذبح ذلك الخروف المسكين الهزيل ترحيبا بقدومنا أيما ترحيب و تقديمه قربانا شهيا لأمعائنا الخاوية من أثر النصب و التعب و على رأسهم إبنها الضال العائد إلى حضنها الجاف بعد غياب دام ثلاثة عشر عاما ؟

فضلا عن أن المنزل لم يكن بغاية الضخامة و الفخامة التقليدية التي عهدناها لدى نظيره الكائن في النادرة ، لكن جوهره المتين أثبت بما لا يدع مجالا للشك بأنه النموذج الأفضل للمنزل القروي البسيط المنحوت في الصخر المحتذى به لدى ريفنا الجبلي و لا سيما فيما يتعلق بمرافقه الأساسية من حيث الحمام و المطبخ و الباحة الخلفية و السقف العلوي و غرفة الضيوف الأرضية و غرفة النوم ، فالأول تجده صغير الحجم أضيق من عنق الزجاجة يفتقر لملامح الحمامات الحديثة تماما بلا بلاط أو قرميد براق مزخرف يغطي أركانه الأربعة ملطخ بدهان بسيط لا يصلح أن يكون علبة ألوان رسم لطالب في مدرسة حكومية و مفروش بالإسمنت الجاف المتشح بالرماد على ما يبدو دون أن يلغي هذا إعجابنا الشديد بنظافته الرائعة و رائحته المعقمة و إتساعه لأحد عشر رجلا و إمرأة و طفلا يستحمون معا في حوض إستحمام عريض للغاية من البلاستيك المقوى محلي الصنع بعيدين كفاية عن غسالة الملابس و سخان الماء اليدوي الكهربائي أمامهم و المرحاض السفلي التقليدي الحديث الطراز دون الحاجة الى

كرسي تابع له نظيف و معقم أيضا و خال من الروائح الكريهة المنبعثة منه تماما من خلفهم ، و بجانبهم دلو ماء لدائني أحمر شاحب و واسع جدا و بسيط للغاية يحتضن في قعره الفسيح المياه الوفيرة المتدفقة من صنبور قديم مازال صالحا للإستعمال الأدمي بسهولة و يسر ، أما الثاني فبالرغم من صغر بابه المعدني الأملس و ظلامه الدامس طوال اليوم إلا من بصيص نور وهاج لسويعات قليلة تسد الرمق في أحلك الظروف ، إلا أنه مطبخ قروي نموذجي لا يشق له غبار سواء من ناحية التنور (الفرن باللهجة اليمنية) أو الطابون[٣٧] بلهجة سكان منطقتنا الحجري المتشح برماد الفحم الناري و المكفت بالجص الأبيض حيث يمتص الحرارة المتصاعدة من نيران الحطب المشتعل في أتونه الجهنمي الهادئ دون أن يمس جاره المخصص للغاز المنزلي و يحول جنبات المنزل الباردة برد الزمهرير طوال العام إلى جنة الله في الأرض المفعمة بالدفء و السكينة المبثوثين في أرجائه الصماء ، علاوة على ذلك يؤدي نفس وظائف الموقد (البوتوغاز) و الفرن في آن معا كنظيره الحديث و دون أن يؤثر لهيبه الساخن على سلال الفواكه و الخضروات و البقوليات و المكسرات و البهارات المتنوعة من أرض وادي بنا الخيرة الطيبة المعلقة على الحائط و المتدثرة برداء البرد القارس في ركن قصي من المطبخ يحفظ جودتها و نظارتها لأيام عدة

[٣٧٣٧] كلمة تركية الأصل متداولة في تركيا و مصر و اليمن تعني الفرن (المؤلف) .

أو حتى يزاحمهن أماكنهن الصغيرة عنوة رغم إتساع صدر غرفة الطعام الحجري الرحب لهم و لزواره البشر من الطباخين و الضيوف على مائدتها المتواضعة المكونة من طاولة مستديرة مصنوعة من القش و الخيش الناعم كالتي عندنا تعرف بالقروانة[٣٨] تحيط أربع كراس بلاستيكية زرقاء زرقة باهتة محلية الصنع و العامرة بما لذ و طاب من المأكولات الشعبية السائدة هناك و معظمه صنعاني قح كالعصيد[٣٩] و المعصوبة[٤٠] و الشموطة[٤١] و الزوم[٤٢] و الهريش[٤٣] و الشفوت الأحمر[٤٤] ، و من أطعمتي المفضلة آنذاك كالفول المدمس و البيض المقلي مع الكراث بالزيت أو السمن البلدي و البيض المسلوق و الجبن و القشدة و الزبادي و الخبز بكافة أنواعه مع الشاي و الحليب و الحلويات حيث تناولت طعامي عليها بنهم و إستمتاع شديد تحت ضوء مصباح جاز مبتكر من قبل جدتي فندة[٤٥] صنعته من علبة حليب مركز جاف فارغة من نوع داتش ليدي[٤٦] المفضلة لدي و جوه

---

[٣٨] الطاولة المستديرة المتحركة باللغة التركية (المؤلف) .

[٣٩] وجبة مكونة من الهريش الساخن المخلوط بالماء و دقيق الهريش الأصفر بعصا خشبية بيضاء صغيرة معدة خصيصا لها إسمها المحواش على هيئة جبل بركاني بفوهة مفتوحة يصب على فوهته و جوانبه حساء اللحم أو مرق الدجاج ، و هي وجبة أساسية لدى سكان وادي بناء في محافظة إب و سكان دبع بمحافظة تعز (المؤلف) .

[٤٠] وجبة ساخنة مكونة من الدقيق الأبيض و السمن البلدي المخلوطين معا بالماء بعصا المحواش على هيئة جبل بركاني مفتوح يصب على فوهته مزيج من العسل و السمن البلديين ، و هي وجبة إساسية لدى سكان وادي بنا بمحافظة إب (المؤلف) .

[٤١] وجبة سائدة في منطقة وادي بنا و هي النسخة المحلية من الفطير المشلتت المصرية حيث ٩٠% منها مصنوع من السمن البلدي و الذرة الشامية (المؤلف) .

[٤٢] حساء ساخن أبيض من الزبادي المخلوط بالماء و اللبن يؤكل بمفرده أو يضاف على العصيدة (المؤلف) .

[٤٣] وجبة ساخنة على هيئة جبل بركاني بفوهة مفتوحة من دقيق الهريش الأصفر المخلوط بالماء يضاف إليه اللبن أو السمن أو العسل (المؤلف) .

[٤٤] وجبة سائدة في منطقة وادي بنا فحسب مكونة من قطع الخبز البلدي المصنوع من الذرة الشامية و لبن مخلوط بالخل و الطماطم المفرومة أو مسحوق الطماطم المعروف لدينا بالسحاوق (المؤلف) .

[٤٥] الوردة باللغة اليمنية القديمة (المؤلف) .

[٤٦] السيدة الهولندية باللغة الإنجليزية (المؤلف) .

الشاعري نوعا ما الذي سيظل نوره الشاحب راسخا في مخيلتي طالما حييت ، أما الثالث ففريد من نوعه حيث كان مجرد باحة مفتوحة على مصراعيها خالية من أية أسوار أو أبواب محيطة بها من كافة الجوانب إلا من شجرة أثل عملاقة و حظيرة صغيرة للأبقار و الماعز ، و مع ذلك تعتبر أكثر أمانا من بيوتنا المدججة بالأسوار العالية و الأسلاك الشائكة و المكهربة و الأبواب المتحركة داخل مدننا البدائية و ضواحيها ، حيث لا يجرؤ من تسول له نفسه الأمارة بالسوء على إقتحامها أو سرقتها حتى سواء من داخل القرية أو خارجها إلتزاما بما يشبه العرف السائد الذي يجبرهم بعدم إرتكاب هذه الأفعال المشينة بأي حال من الأحوال . إلا أن ما أثار إستغرابي أكثر هو رؤيتي للبقرة تلد و تبول و تقضي حاجتها من مخرج واحد لا من مخرجين كبقية الكائنات الحية و على رأسها الإنسان على مسمع و مرأى من الجميع رغم إعتيادي منذ نعومة أظافري رؤية الناس من مختلف الأعمار يتبولون و يقضون حاجاتهم في شوارع صنعاء و ضواحيها بوضح النهار ، فضلا عن قدرة الإسطبل الطيني الصغير على إستيعابه العجيب لجمع غفير من الأبقار و الأغنام و الماعز و الدجاج و الأرانب و البط في بوتقة واحدة توفر بين جنباته البدائية الدفء و الطمأنينة لهن صيفا و شتاء بعدما قسم جدي حجمه الضئيل إلى خانات متساوية عليهم و خصوصا الأبقار المحتاجة لحيز كاف لأكلها و نومها و روثها الذي يتم

جمعه و تجفيفه و تخصيص بعضا منه كسماد زراعي طبيعي يعرف بالذبل و البعض الآخر يستخدم وقودا لإشعال النار في الموقد أو الفرن أو المدفأة عوضا عن الحطب أو الفحم أو الغاز المنزلي يعرف بالقبا ، أما الأخير فحدث و لا حرج عنه كونه الأروع من بينهم الذي رأيته في حياتي و لا سيما بعد طلوع الفجر حيث ينسحب القمر من مكانه مفسحا المجال للشمس بعدما إستيقظت من نومها السماوي و خرجت من قمقمها الناري لتسطع بأشعتها الذهبية على قريتنا النائمة و توقظها إيقاظا خفيفا على وقع أنغام صراخ الديك النشيط و تباشيرها المفعمة بالأمل ليبدأ أهلها الكسالى إلى حد ما من خلالها يوما جديدا في حياتهما العملية المملة و المرهقة دون أن يطرأ عليها أي تغيير إيجابي يذكر سوى المزيد من العمل الشاق الذي لا طائل منه وسط الحقول و الطرق و المتاجر و المراعي الشبه خضراء مقابل فتات يومي لا يسمن و لا يغني من جوع ، بالعكس مني تماما ، فما إن صعدت إلى السطح العلوي للمنزل حتى شعرت بمتعة الحياة الخالية من الهموم و الضغوط و استنشقت معها نسيم الصباح العليل بأريحية طاغية لم أعهدها من قبل و أنا استمتع معها بمنظر الريف الساحر رغم أنف سوره المجصص باللون الأبيض الباهت و المحيط بأركانه الأربعة إحاطة السوار بالمعصم حيث كانت الجبال الشاهقة الجرداء و قراها المرتفعة

عن قريتنا كالثجر و الحصباني [47] و العرمة و بيت عبادي و وادي الردي و منقير و عمار و الخشعة و شعب المريسي و الفجرة أو قرية اليهود الوحيدة في المنطقة (قبل أن تصبح خاوية على عروشها بعد رحيلهم إلى فلسطين عبر عدن بتواطؤ من الإمام يحيى [48] و خلفه أحمد [49] مع المستعمر البريطاني خلال عملية بساط الريح عام ١٩٥٠م) و حقولها الخضراء المائلة للإصفرار تزاورها الشمس ذات اليمين و ذات الشمال و النساء اللائي يصعدن إلى سفح جبل العود الشامخ حاملات على رؤوسهن جرارا فخارية مملؤة بالماء و الطعام بجلد و إتزان دقيقين بغاية العجب و الذهول و الراعيات يقدن قطعان الماشية من حظائرهن بإنتظام فريد إلى المراعي الصخرية في العرمة على مرمى من ناظري حتى و أنا أتناول وجبة إفطاري الشهية من بيض مقلي و فول مدمس بالسمن البلدي و شموطة بالعسل و هموس باللبن [50] و بنفس جدتي الأصيل في الطبخ الذي لا يضاهى و تحت أنغام تغريد البلابل و زقزقة العصافير و هديل الحمام و سجع شيخ الطيور [51] في مشهد فريد لم يفارق مخيلتي أبدا ذكرني بما عبر عنه الشاعر و

[47] إحدى قرى مديرية النادرة و لا علاقة له بنهر الحاصباني في لبنان (المؤلف) .

[48] حاكم اليمن السابق (١٩١٨-١٩٤٨م) و محررها من الإستعمار التركي عام ١٩١٨م (المؤلف) .

[49] حاكم اليمن السابق (١٩٤٨-١٩٦٢م) و ولي العهد (١٩٣٥-١٩٤٨م) و والد آخر حكامها الإماميين الإمام البدر (المؤلف) .

[50] وجبة إفطار سائدة في منطقة وادي بنا مكونة من كعك مصنوع من الذرة الشامية تعرف بالكبانة مخلوطة مع اللبن البلدي (المؤلف) .

[51] من طيور منطقة وادي بنا (المؤلف) .

الأديب و عالم الآثار المخضرم مطهر الإرياني[٥٢] و معه المطرب الكبير أحمد السنيدار[٥٣] عبر أغنيتهما الرائعة (ما أجمل الصبح في ريف اليمن) ، و في المساء يتسامر أهل البيت رجالا و نساء و أطفالا بين أركانه البيضاء هربا من حرارة الجو صيفا يمرحون و يلهون و يمضغون القات و يدخنون السجائر و الشيشة بنهم شديد تحت ضوء القمر الساطع و هوائه الطلق ، و ما دفع والدتي أحيانا في فترة مراهقتها أن تجتمع خلسة بصديقاتها ليلا و هن عرايا تماما بعيدا عن الأنظار بعد أن يغلقن باب السقف عليهن متحررات من جيش كامل من الملابس الثقيلة اللائي يسترهن من ناصية الشعر حتى أخمص القدم تحت ذريعة العادات و التقاليد البالية و الحفاظ على الشرف إرضاء لمجتمعهن المتطرف و المنافق باسم الدين معا تاركات لأجسادهن العارية حرية المشاركة معهن في إستنشاق نسيم السحر و عبقه الأخاذ و الإستحمام بنور البدر الوضاء في كبد الليلة الظلماء رغم رفض والدي القاطع لهذا السلوك المشين من وجهة نظره بحكم تدينه العصري المتزمت حسبما هو ظاهر لنا آنذاك .

---

[٥٢] من مواليد قضاء إريان بمنطقة وادي بنا و أحد مؤسسي مركز الدراسات و البحوث اليمني بصنعاء و رواد علم الآثار اليمنية و الشعر الغنائي في الشطر الشمالي من الوطن أواخر الستينات و الشقيق الأكبر لرئيس الوزراء السابق عبدالكريم الإرياني (١٩٨٠-١٩٨٤م/١٩٩٨-٢٠٠١م) و إبن عم رئيس الجمهورية السابق عبدالرحمن الإرياني (١٩٦٧-١٩٧٤م) (المؤلف) .

[٥٣] مطرب مخضرم و أحد رواد الأغنية الصنعانية في الشطر الشمالي من الوطن منذ منتصف الستينات حتى تعيينه ملحقا ثقافيا بسفارة اليمن في مصر عام ١٩٩٢م و ينتمي إلى أسرة السنيدار العريقة في تجارة الآلات و المعدات و المضخات الزراعية الإيطالية الصنع في صنعاء و ضواحيها ، و السنيدار كلمة تركية تعني إمام المسجد (المؤلف) .

في منتصف الظهيرة و بعد أن وضعنا أمتعتنا المبللة من عناء السفر و تناولنا وجبة دسمة مكونة من أكلات المنطقة الشعبية التي ذقناها في النادرة من قبل كالعصيدة و المعصوبة و الهريش باللبن الى جانب الأرز و البطاطس أقيمت على شرفنا و تذوقنا الفواكه قبل تناول اللحم ثم إرتشاف الشاي كما جرت العادة لديهم ، ثم تفرق شملنا في أرجاء قريتنا النائمة المترنحة على شفا حفرة من الوادي بين المقايل و التفاريط المسائية بهمة و نشاط عجيبين حسب المعتاد عندهم ، فآثرت جدتي و أمي و أختي رباب البقاء في منزل العائلة مع عماتي و زوجات أعمامي و بناتهن الكبيرات ، بينما فضل أبي و جدي و شقيقاي صالح و مرشد و أعمامي و أزواج عماتي و أولادهم الكبار الذهاب إلى منزل أحد الأصدقاء و المعارف ، بينما أنا و شقيقي الأصغر نعمان و من في مثل سني ذكورا و إناثا موزعين بين هذا و ذاك و غالبا ما كنا نتركهم و شأنهم و نلهو مع بعضنا البعض بين أشجار القرية و أفنانها الوعرة الفسيحة حينما نضيق ذرعا من أجوائهم الخانقة الملبدة بغيوم الدخان الرمادي المنبعثة من سجائرهم المحلية و الأجنبية و مدائعهم و شيشهم و نراجيلهم الصماء و أرضيات مجالسهم الملطخة ببقايا أوراق القات الجافة التي لا تصلح للمضغ و ما يتم مضغه بشراهة فجة و المعروف بالبزغة فيبصقون ما تبقى منه في أوعية معدنية محلية مخصصة لذلك تعرف بالمتافل ، و نضجر من ثرثراتهم

الهيروغيلفية الغامضة العقيمة الفارغة التى لا يفقه الإنسان الطبيعي منها شيئا كما لو كنا دولة مستقلة عن هذه البلاد قائمة بحد ذاتها لديها أسرارا عسكرية و سياسية بالغة الخطورة رغم أنها تعج بالإشاعات و القيل و القال و الغيبة و النميمة و الحقد و الحسد من فلان أو علان و أخبار الأجداد و الأسلاف و حروبهم و نزاعاتهم القديمة على أتفه الأسباب و القذف و التشهير بهم و بأعراضهم دون حياء أو خجل و مشاكلهم اليومية الغير قادرين على حلها بشكل سليم غير مكترثين بنداء المؤذن الداعي إلى صلاة المغرب بعدما برر معظم فقهاء مذهبهم الزيدي الجهلة ممارسة إدمانهم المفضل لمضغ القات عبر فتوى شرعية مشبوهة تجيز لهم الجمع بين صلاتي المغرب و العشاء طالما يمضغون هذه النبتة المخدرة في الليل و النهار على أكمل وجه و من ثم يتخلصون من أثاره العالقة في أسنانهم الصفراء المسوسة و حناجرهم المخنوقة من مضغهم المتواصل لأوراقها الغير صالحة للبلع أو الهضم حتى .

عندما يحل الظلام الدامس و يسدل ستاره المطرز بالنجوم علينا يلملم الجميع أغراضهم و يعودون الى منازلهم في التو و اللحظة كان شيئا لم يكن ، إجتمعنا معا بين جدران غرفة المعيشة الأضيق حجما من زنزانة إنفرادية دون أن يضيق قلبها الكبير بزوارها المفترشين أرضيتها المتواضعة أمام تلفازها الصغير بحجم ١٥ بوصة و لونيه الأبيض و

الأسود نشاهد من خلاله برامج المقدمة من تلفزيوننا الرسمي و نظيره في الشطر الجنوبي من الوطن و تحت ضوء مصباح يتيم لا بأس به حيث كلاهما يعمل بالطاقة الشمسية في حين لم تصل خطوط الكهرباء العمومية إلى منطقتهم المضطربة بعد ، و حتى و إن وصلت فلأماكن محدودة و عائلات متنفذة معينة على إستحياء و تمهل شديد دون أن يعرف السبب .

عموما كانت هذه المرة الأولى منذ ٢١ عاما على زواجه و إنتقاله للعيش في صنعاء التي جمعت أبي بوالديه و أشقائه و شقيقاته و بصحبة زوجته و أولاده معا دون أن يخفف من وطأة الخلاف القائم و المكتوم بينهم و الذي لم تنطفئ جذوته بعد و لا سيما عند جدي الأستاذ عامر غافر المربي الفاضل و أول مدرس في قريته اثر تخرجه من دار المعلمين العليا في صنعاء عام ١٩٥٥م متخصصا في علم الرياضيات و الهندسة اللذان يحبهما حبا جما يفوق مقتي الشديد لهما و أحد المؤسسين الأوائل لأول مدرسة حكومية في مسقط رأسه ألا و هي مدرسة الحرية عام ١٩٧٠م و مديرها منذ عام ١٩٨٤م حتى إحالته الى التقاعد عام ١٩٩١م بعد أن جعلها مفخرة المدارس النظامية في هذه المنطقة المعزولة حيث عاني الأمرين و جابه من أجلها و بمساعدة والدي طبعا العديد من المشكلات و الأزمات القاصمة لظهره بدءا من البيروقراطية المفتعلة من قبل وزارة التربية و التعليم و

مكتبها في محافظة إب ضده و مرورا بمضايقات الأهالي و ولاة أمور الطلاب و مراكز القوى التقليدية و إنتهاء بإعتداءات المتمردين الشيوعيين في السبعينات و خصومهم الإسلاميين في الثمانينات و محاولة إغتياله مرارا و تكرارا عبر مجموعة من التلاميذ الفاشلين المفصولين من قبله بين عامي ١٩٧٩-١٩٨٢م لم يغفر لأمي إستيلاء والدها عبد الرحمن على ميراث والده و ضمه إلى ممتلكاته الضخمة إبان ذروة مجده في العهد البائد رغم أنها قطرة يتيمة في بحرها الواسع ، فضلا عن أنها أرملة و مطرودة من منزل زوجها الأول و هذه الدوافع كانت كافية بالنسبة له لشن حرب شعواء ضدها و رفضه الدائم لإقتران نجله الأكبر منها طيلة عشر سنوات قبل أن يرضخ للأمر الواقع و يوافق على مضض على زواجهما بحجة أنها مظلومة مثله و لكي يستخدمها كسلاح مضاد ضد أخيها الأكبر يوسف الذي مازال يرفض إعادة ميراثه بالكامل مرارا و تكرارا ، و على العكس منه تماما كانت زوجته ودودة للغاية مع كنتها تبادلها نفس المشاعر و تعاملها معاملة طيبة جدا معاملة الأم الرؤوم لمجرد أن الخير و البركة حل على منزلها العتيق لحظة قدوم الأخيرة إليه و جعل أبقار حماتها تدر لبنا وفيرا يتدفق من أضرعهن الجافة منذ أعوام فاق كل التوقعات بطريقة حلبها الخاصة المكتسبة من أمها بعد أسبوع واحد من عرسها الميمون آنذاك ، بل إنها لم تقدم على ممارسة دور الحماة ضدها و لا حتى المبيت

معها في غرفة واحدة على الإطلاق مما يبرهن على طبعها الهادئ و فكرها المعتدل و عدم رغبتها الملحة في إثارة المشاكل مع أحبائها و أعدائها على حد سواء ، حتى عندما زارت صنعاء للمرة الأولى و الأخيرة و مكثت في منزل والدي الأول الذي إستأجره في حارة باب السبح الواقعة بين السائلة و شارع علي عبد المغني بميدان التحرير بمناسبة مرور أسبوع كامل على ميلاد شقيقي صالح عام ١٩٧٥م لم تطق صبرا العيش بعيدا عن قريتها الوديعة الهادئة و الوديعة في اللواء الأخضر و منزلها القديم على مشارف الوادي و أهلها و صديقاتها و معارفها و ماشيتها و قططها الأليفة التي تحبها إلى حد الأكل و النوم معها غير عابئة بمن حولها و دفن نفسها في غابة إسمنتية جرداء مليئة بالوحوش البشرية الغامضة القادمة من غاباتها العفنة في ديارها النائية منذ مطلع الستينات تمقتها مقتا شديدا لتفضل الرحيل عنها إلى غير رجعة بعد شهر من إقامتها اليتيمة فيها مفضلة البقاء في مسقط رأسها أبد الدهر .

لم تكن إبنتيها عزيزة سعاد و إبنها الأوسط عبدالقادر يشاطرونها نفس الشعور حيال أمي في السر و العلن ، فالأولى عانت مرارة الغدر و الخيانة على يد زوجها و إبن عمها مدير أمن النادرة المقدم نصر غافر إثر زواجه من جميلة المريسي كريمة أحد وجهاء و مشائخ شعب المريسي التي تعلو قريتنا شمالا بعدما أنقذها من محاولة خطف

تعرضت له بالقرب من منزل عائلتها الكائن في حنول[٥٤] وسط المدينة على يد مسلحين تابعين لأحد المشائخ المنافسين إنتهت بقتل ثلاثة منهم و إعتقال من بقي منهم حيا عام ١٩٨٨م ، و عرفانا منه بالجميل قرر الأب أن يزوج إبنته من صهرنا نصر بعدما أقسم له أغلظ الأيمان الغموس المرفوضة شرعا و ترجاه بألا يكسر بخاطر الأول ، فما كان من الأخير سوى الإنصياع لطلبه على مضض و لو أدى دمار عائلته كيلا يكفر له عن يمينه الغموس بدلا منه في حال رفضه القاطع لهذا الأمر وفقا لأعرافنا القبلية السخيفة المخالفة للشريعة الإسلامية دون حياء أو خجل و وعده له أيضا بمساعدته في الحصول على الترقية و الإنتقال إلى مديرية أمن إب في التو و اللحظة ، فما إن علمت بما جرى حتى قررت الرحيل غاضبة مع إبنتها سمر من منزلها الإبي الى منزلنا البعيد عنهم أميالا طوال تاركة إبنها الأكبر علاء يواجه مصيره المحتوم بمفرده مع زوجة أبيه الجديدة لتخوض بدورها صراعا مريرا من نوع أخر طيلة إقامتها الوجيزة عندنا من مشادات و مشاجرات حادة دارت في الخفاء بعيدا عن أعيننا مع شقيقتي رباب من جهة و مع أمي و جدتي عاتكة من جهة أخرى ، و قد ظلوا على هذا المنوال العصيب إلى أن بلغ السيل الزبى و إنفجر الوضع علنا أمامنا أثناء التحضير لطعام الغداء داخل المطبخ عندما وقع كأس الحليب على

[٥٤] إحدي ضواحي مدينة النادرة بمحافظة إب (المؤلف) .

الأرض من يد أخي نعمان دون إنتباه منه فتحطم أشلاء و صار هباء منثورا ، فثارت ثائرة أمي كعادتها عند إرتكابنا الأخطاء عظيمة كانت أم بسيطة ، فما كادت تصب حمم غضبها على نجلها المرتعش من شدة الخوف حتى وقفت عمتي عزيزة لها بالمرصاد و حالت بينهما ، مما أثار غضب الأولى أكثر فأكثر و إعتبرت تصرف الثانية تعد صارخ على أمومتها و تدخل سافر في تربيتها لأولادها ، فتشاجرتا حول الموضوع طوال أسبوع برمته قبل أن يحسمه والدي لصالح أمي ما دفعها إلى مغادرة منزلنا مع إبنتها سمر الى غير رجعة .

و هذا ما حدث للثانية و إن كان بشكل آخر ، فزوجها الأول و زميل والدي في مدرسة جمال عبدالناصر الثانوية في صنعاء و إبن قرية الثجر المجاورة لمسقط رأسها عارف مثنى لم يضرها بالزواج عليها من أخرى بل بسبب ميوله السياسية التي ألبت حكومة صنعاء ضده ، فمنذ حصوله على بكالوريوس الهندسة من جامعة بغداد عام ١٩٧٦م لم يتحرر من تأثير زملاء دراسته الشيوعيين و لا سيما اللبنانيان راغب تلحوق و مازن رضوان و مواطنه و رئيس أشيد[٥٥] في العراق معاذ الكهالي الذين تشرب على يدهم مبادئ الإشتراكية العلمية و الشيوعية الماركسية ، و لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تخلى من أجلهم عن مستقبله الواعد المنتظر في بلده كمهندس مدني تحقيقا لرغبة والده

[٥٥] إتحاد شباب اليمن الديمقراطية التابع لحكومة الشطر الجنوبي من الوطن منذ عام ١٩٧٢م (المؤلف) .

الحارة من أجل الإنضمام إلى سلاح المهندسين في جيش اليمن الجنوبي المنضوي تحت لواء قوات الردع العربية في لبنان لنصرة الثوار الفلسطينيين ضد أعدائهم الإنعزاليين المسيحيين و حلفائهم السوريين و الإسرائيليين هناك ، فسرعان ما حزم أمتعته للسفر إلى الشطر الجنوبي من الوطن عن طريق سفارتها في العراق و لا سيما ملحقها الثقافي و ضابط المخابرات العامة أمين العيدروس دون أن يلقي بالا لمشاعر زوجته المشتاقة له على أحر من الجمر و لا بطفليه التوأمين ماجد و هناء اللذين لم يحظ برؤيتهما أكثر بعدما غادرهما في الشهر الثاني من ولادتهما إلى أرض المهجر بغية دراسته الجامعية و لا بوالده الذي أقام الدنيا و أقعدها بالويل و الثبور و عظائم الأمور عندما علم بما نوى عليه بعدما أطاح بآماله المعقودة الملقاة على عاتقه و ضرب بها عرض الحائط سعيا وراء أفكاره الشيوعية التي قادته إلى حمل السلاح ضد أهله و ذويه القاطنين في الشطر الشمالي من الوطن خلال حرب اليمن الثانية أو حرب المنطقة الوسطى حيث كان والديه من ضحاياها الأوائل عام ١٩٧٩م دون أن يغمض له جفن من شدة الندم قبل أن يجبر نفسه على الإحساس المفرط بفداحة ما أقدم عليه بعدما قرر إعادة النظر كليا في النظام الشيوعي الحاكم في الجنوب الذي آمن به و قاتل في سبيله ضد السعودية و عمان و إسرائيل و العراق و الصومال و مصر و اليمن الشمالي و أمريكا و أعدائه الداخليين من

الأحزاب المناوئة له إثر اكتشافه حجم القمع الدموي الذي يمارسه ضد معارضيه إلى حد لا يطاق و إجبار بلده الفقير على خدمة أجندات و مصالح حليفه السوفيتي الخاصة بلا مقابل دون رحمة أو شفقة و لكن بعد خراب البصرة عندما غرقت روحه الحائرة في قعر حمامات الدم الطاحنة التي إندلعت رحاها في الثالث عشر من يناير الأسود عام ١٩٨٦م ، لتعاني بعد رحيله الأمرين ، مر الترمل و الوحدة القاتلة بين أهلها الذين نبذوها و أولادها مبكرا و مر المشاجرات النارية الخامدة تحت الرماد داخل منزلنا بينها و بين والدتي ، مما جعل إقامتها عندنا جحيما لا يطاق قبل أن ينقذها والدي من لهيبها المستعر بتزويجها من عم الأولاد و شقيق زوجها الراحل عماد و تلميذه النجيب في إقتحام عالم السياسة و النعرات الحزبية لكن هذه المرة عن طريق الناصريين حيث كاد أن يغرق معهم في نكبتهم الدامية إثر مشاركته معهم في إنقلابهم العسكري الفاشل ضد عمنا عام ١٩٧٨م قبل أن يكتب له الحظ بالفرار من إحدى سجون الأمن القومي السيئة السمعة بصنعاء ثم الرحيل إلى ليبيا عن طريق الشطر الجنوبي من الوطن عام ١٩٨٠م بعد معاناة عسيرة طوال عامين متواصلين ، إلا أنه عاد إلى مهنته القديمة كمهندس معماري يعمل في المقاولات في أرض المهجر بعدما تاب عن مغامراته السياسية الطائشة و عن الخوض في غمارها العفن توبة نصوح ، فقررت عمتي دون تردد الموافقة عليه و الرحيل مع إبنيها

إلى مهجره الليبي رغم رفضي التام لرحيلها من بيتنا إلى حد البكاء بعد تعلقي الشديد بها و حنانها الأمومي الطاغي نحوي ، ما دفع جدتي عاتكة إلى حملي على ظهرها و إلهائي ببعض الاغاني الطفولية الشعبية المتوارثة عندهم التي مازلت أحفظها عن ظهر قلب ريثما ترحل عنا إلى غير رجعة حيث مازالت حسب علمي مقيمة في هذا البلد الإفريقي الغني الآمن و المجاور لمصر من الغرب رغم العدوان الأمريكي ضده (١٩٨٤-١٩٩٠م) و الحصار الجوي المفروض عليه عام ١٩٩٢م ، سيما بعدما أنجبت من زوجها الجديد ثلاث بنات و ولد يعيشون مع ولديها في تراحم و وئام .

أما الثالث فحدث و لا حرج ، فلقد كان أكثر أعمامي شقاوة في صباه حيث ظلت جدتي فندة تفسده بدلالها الزائد الذي لم يحظ نجلها البكر بربعه لمجرد أنه ولد في أول جمعة من شهر رجب المباركة لديها و لدى غيرنا من اليمنيين الذين مازالوا يحتفلون به يفوق إحتفالهم بعيدي الفطر و الأضحى المباركين بإعتباره اليوم الذي إعتنقوا فيه دين الإسلام على يد رسولنا الكريم (ص) في عام الوفود الموافق لعام ٦٣٠م ، فلم يكن يصلي أو يذهب إلى المدرسة بتاتا و يدخن السجائر و يشرب الخمر و يدمن المخدرات و يمض القات في سن مبكرة و يطارد فتيات القرية مع رفاق السوء في مسقط رأسه حيث كان يقضي معظم وقته خارج المنزل من الصباح الباكر حتى حلول الظلام

..... و غيرها من الأمور التي آثارت غضب المربي الفاضل العارم جدي من جراء تصرفاته المستهترة و إنحلاله الأخلاقي الصارخ بعدما طغت شهرة الأول الفاسدة الآفاق و مرغت مكانة والده العظيمة بين الناس في التراب آنذاك .

هذا الوضع المخجل دفع جدي إلى ممارسة القسوة معه و تشديد قبضته عليه وصلت إلى حد تجنيد ضابط شرطة من أبناء عمومته خصيصا لهذا الغرض كي يلاحقه و يعتقله في حال إذا بدر منه عدم إلتزام بأوامره و نواهيه الأبوية ، و بعد جهد جهيد إنصلح حاله و أضحى رجلا عاقلا رشيدا يشار له بالبنان يسير على الصراط المستقيم دون أن يحيد عنه قيد أنملة و لا سيما إثر تخرجه من كلية التجارة بجامعة صنعاء عام ١٩٨٤م و إلتحاقه بالعمل في وزارة الاقتصاد عام ١٩٨٦م .

إلا أن زواجه من فتحية الجبري عام ١٩٨٣م فتح أبواب العداء الملتهبة مع والدتي التي تمقت زوجته مقتا شديدا على مصراعيها رغم أنها كانت صديقتها الوفية أيام الطفولة و زميلتها أيام الدراسة الإبتدائية قبل أن تخونها بالقدح في شرفها و عرضها أمام والدها بطلب من خالي الأكبر يوسف (الذي وعدها بالزواج منها قبل أن ينكث بوعده لاحقا) عبر إدعائها الكاذب عن علاقتها الغير شرعية مع منصور راعي الأغنام

الـذي يعمـل لـديهم مـا دفـع جـدي إلـى قتلـه و حبسـها و تزويجهـا قسـرا مـن اللـواء قاسـم السـقاف عـام ١٩٦٥م ، و رغـم مـا مضـى ظلـت العـداوة مشـتعلة حيـث مازالـت فتحيـة تنفـث سـمومها السـوداء فـي عقـل عبـدالقادر الكـروي و ذاكرتـه السـمكية ضـد أخيـه الأكبـر و زوجتـه بـلا هـوادة حتـى وقتنـا الحاضـر و لكـن فـي سـرية تامـة بعيـدة عـن الأنظـار كمـا هـي عـادة نحـن معشـر اليمنيـين و لا سـيما المنتمـين للطائفـة الزيديـة رجـالا و نسـاء و أطفـالا و شـيوخا فـي إخفـاء عيـوبهم و خطايـاهم و معاصـيهم و أخطـائهم و مـؤامراتهم الخطيـرة و الجسـيمة و التافهـة عـن الأخـرين بغايـة الدقة و منتهى الإحترافية المتوحشة لغاية في نفس يعقوب .

أمـا عمـي الصـغير ياسـين ضـابط الشـرطة النشـيط السـيء الحـظ فـي عملـه و حياتـه رغـم توليـه منصـب مـدير أمـن أرحـب كأصـغر شـخص يتـولى هـذا المنصـب لبرهـة مـن الـزمن لـم تتجـاوز العـامين و إجادتـه اللغتـين الإنجليزيـة و الهنديـة بطلاقـة جـراء إدمانـه الشـديد علـى مشـاهدة الأفـلام الأجنبيـة ، و مـا زاد الطـين بلـة زواجـه مـن إبنـة خالـه مصـلح نوريـة السـيئة الظـن و كثيـرة الإرتيـاب بـالأخرين و لا سـيما معـه دون حسـيب أو رقيـب مـع أنهـا حامـل بمولـوده البكـر عبـدالعزيز فـي شـهرها الثـامن لحظـة مجيئنـا إلـيهم ، و رغـم كـل هـذا تعامـل معهـا بمرونـة عاليـة مثـل تعاملـه مـع والـدتي عنـد زياراتـه المتكـررة إلينـا و تجنبـه الحـذر لمضـايقاتها الخفيـة و العلنيـة ضـدها إحترامـا لوالـدي الـذي يعـد بمثابـة والـده الثـاني رغـم معاناتـه المزمنـة مـن

نوبات الصراع الحادة منذ طفولته ، و هذا ما فعلته شقيقته التؤام و أستاذة التربية الفنية بمدرسة الحرية ياسمين أثناء إقامتها الدراسية لدينا رغم تكوينها صداقة وطيدة معي و مع شقيقتي رباب ، و ذلك يرجع إلى ثقافتها الراقية و سعة إطلاعها المعرفي و إنفتاحها المدروس على العالم المحيط بنا قبل أن يدفن زواجها البائس دونما إعتراض من أحد من ناصر شقيق نورية و إبن خالها مصلح الفهام المعقد الرجعي و ضابط الرماية الموهوب إبان عمله في الحرس الجمهوري مواهبها الفذة إلى الأبد .

في صباح اليوم التالي ، و بعد أن تناولنا إفطارنا المعتاد حتى فوجئنا بأن إبن عمتي علاء سيأخذني أنا و إخوتي في نزهة إلى شلالات الوادي المتساقطة من أعلى أحراش الحصباني حتى أسفل المنحدر الصخري الرابط بين جبل العود و وادي الردي بغية الإستجمام و السباحة بين مياهه الدافئة صيفا رغم عدم حدوث أمطار غزيرة تعقبها سيول جرارة كما جرت العادة السنوية لها هذا العام .

بداية ترددت كثيرا في الذهاب إلى هناك خوفا من الغرق ، سيما و أني لم أكن حينها أجيد السباحة و أضحيت معقدا منها طيلة أربع سنوات بعد محاولتي العوم في حوض سباحة صغير يعج بالبشر برفقة والدي و أخي صالح أثناء قضاء نزهتنا في منتزة الحمدي السياحي الواقع بمنطقة

عصر فما بالك بواد من السيول الجارفة و الشلالات الهائجة تمخر مياهها عباب الأرض و الشجر و البشر و تقتلع أي شيء من جذوره يعوق دربها الهائج إلى الهاوية ؟

لكن سرعان ما تبددت مخاوفي تماما عندما أقنعني صالح بالسباحة في مكان ضحل مجاور لشلال صغير بمياهه الهادئة هدوء البحر عند المغيب حيت تعلمت عبر تعلقي بصخوره الناتئة نوعا ما المحاصرة من قبل مياه الشلال الضحلة أصول السباحة بسرعة فائقة لم أعهدها من قبل ، ما أدخل السعادة و السرور الغامرين إلى قلبي الخائف بعدما كسرت حاجز الخوف الذي كان يلازمني منذ أعوام مضت و تحطم لاحقا عندما سبحت بنجاح منقطع النظير في نفس الحوض الموجود بمنتزة الحمدي امام الملأ عام ١٩٩١م و أنا الذي لم أجرؤ على الإقتراب من مياهه اللازوردية الباهتة و الغوص فيها مجازفا بحياتي في يوم من الأيام .

بينما كان الجميع يتمتعون و يمرحون بالسباحة في مياه الشلال و جداوله الرقراقة و يداعبون قطراته الندية طفت بنظري إلى الأفق البعيد متأملا هذا الوادي الفريد من نوعه المتواضع بضفافه الحجرية الفقير بمياهه العذبة رغم إختراقها الحدود التشطيرية للوطن بدءا من منبعه بمحافظة إب حتى مروره بمحافظة أبين خلال فترة الأمطار الغزيرة في

فصل الصيف إلى أن تصب في البحر العربي مما جعلها هي و وادي تبن من أهم روابط الوحدة الوطنية في هذا البلد الانفصالي حكومة و شعبا حتى النخاع ، و حديث الساسة و الأدباء و الشعراء و المطربين الذين تغنوا بطبيعتها الخلابة في أشعارهم و أغانيهم و خطاباتهم الرنانة رغم أن معظمهم لم يكلفوا أنفسهم عناء الزيارة إليها من قبل كالمطرب الراحل علي الأنسي صاحب أغنية (خطر غصن القنا) و زميله علي السمة صاحب أغنية (يا ريم وادي بنا) و كلاهما من أشعار عالم الآثار و الشاعر الغنائي السالف الذكر مطهر الإرياني ، حيث يحتضن بين ضفتي قلبه المفعم بالأزهار و الورود الفيحاء و المروج الخضراء و الطيور المهاجرة الغناء أفراح قومه و أعيادهم و أعراسهم و مواسم حصادهم و المثخن بأتراحهم و جراح ماضيهم الأسود النابعة من حروبهم و ثاراتهم الشخصية و الإجتماعية و القبلية و الطائفية و المذهبية و السياسية العفنة التي لا تنضب و نكباتهم و مآتمهم و مواسم قحطهم و جفافهم و هجرتهم إلى أرجاء المعمورة داخل البلاد و خارجها و الزاخرة بقصصهم و حكاياتهم الشعبية و أقوالهم المأثورة و أسرارهم الدفينة من بينها ما روته أمي عن ذكريات طفولتها التي قضتها بالقرب من جداوله الدافئة حينما كانت تسبح و تلهو فيها مع أصدقائها الذكور و الإناث و هم عرايا تماما دون أن يثير حفيظة احد ، ثم يصعدون إلى الكهوف الخفية المتوارية خلف شلالاته المتدفقة

ليشاهدوا نساء القرية و هن يغسلن الملابس و يسبحن و يقمن بالإستحمام و ممارسة الجنس مع عشاقهن في غياهبه المظلمة بعيدا عن الأنظار ، و من أبرز من جئن إليهن فاطمة الدودحي أو المعروفة بالدودحية بطلة أشهر قصة حب شعبية في منطقة الوادي برمتها و تغنى بها المطرب محمد عبده زيدي[٥٦] عبر أغنيته الشهيرة (أمان يا نازل الوادي أمان) و الكاتب المسرحي الكبير عبدالمجيد القاضي[٥٧] في مسرحيته (بنت الدودحي) التي احبت إبن عمها الراعي الفقير حب العبادة رغم رفض والدها الشديد و القاطع لزواجها منه ، فعصت أمره و تزوجته في السر و سكنت معه في إحدى هذه الكهوف لتمارس معه حبهما العذري الطاهر غير مبالية لردة فعل أبيها الغاضب من تصرفها المشين الذي يعد في عرف مجتمعها البدائي زنا فاحش و جريمة لا تغتفر ما دفعه إلى قتلها لغسل شرفه بعدما وضعها في كيس مغلق و رماها من ربوة شاهقة إلى أسفل الوادي لتمتزج دمائها الزكية بمائه العذب الفرات و يدفن جسدها الجميل في إحشائه الصخرية الأرحم من قلوب البشر عليها مثلما دفن بطل حكاية سيل الأعور الشعبية العجيبة الحوت الرمادي الأعور المتوحش الذي كان يهدد سكان المنطقة و يبتلع الرجال و النساء و الأطفال في جوفه أثناء سباحتهم أو الإبحار فيه عندما كان نهرا كبيرا يفوق حجمه نهر النيل أضعافا

[٥٦] مطرب شعبي رومانسي يمني و من رواد الأغنية الشعبية في أبين و لحج (المؤلف) .

[٥٧] رائد أدب الأطفال الحديث في اليمن الجنوبي خاصة و اليمن عامة (المؤلف) .

مضاعفة ، فلم يجرؤ أحد على مواجهته سوى بحار صغير إسمه ناجي العرمي حيث قرر قتله إنتقاما لوالديه ، فينجح في مبتغاه و يقتله إثر معركة دامية دامت ثلاث ساعات متواصلة أدت إلى مقتله هو أيضا و تحلله و تحلل الحوت الشرس إلى عظام حجرية دفنت في قعر الوادي الذي تحول جراء ما حدث من نهر عظيم يفيض جوفه الواسع بالمياه الغزيرة و الأراضي الخصبة و خيراتها الوفيرة الزاخرة إلى واد فقير يعاني الجفاف و الجدب و شح الأمطار و قسوة البشر ة الحجر و الزمان و المكان عليه .

الدهليز التاسع

عيد الكريسماس

لم تسعن الفرحة كثيرا عند قدوم العام الجديد ١٩٩٥م ، أولا لكونها عطلة رسمية و هذا الممتع في الأمر حيث من المعروف عني و غيري من أبناء جيلي آنذاك عشقنا الدائم للعطل و الإجازات بكافة أنواعها كي تريحنا من هموم المدرسة و ضجيجها الخانق و التحرر من سجونها الإسمنتية مؤقتا قبل أن أرتاح من رؤيتها تماما بعدما قررت مؤخرا و بعد موافقة والدي طبعا عليه و هو كاره مواصلة دراستي من المنزل ضمن فئة طلاب المنازل حيث لا أحضر إليها إلا في حالات أخذ رقم الجلوس و إداء الإمتحانات و التسجيل ، ثانيا لأنها أتت عقب حرب أهلية هزلية سخيفة خمدت نيرانها العبثية خلال هذا الصيف الجاف لصالح عمنا ضد شركائه الجنوبيين و على رأسهم علي سالم البيض و القضاء على محاولتهم الإنفصالية اليائسة عن الشمال بغض النظر عما إذا كانت هذه الحقيقة الدامغة أم لا ، و ثالثا هو رحيل شقيقتي رباب مع نجلها سعيد من منزلنا العامر بالزوار الفوضويين من كل حدب و صوب إلى منزل زوجها الكائن أقصى الجنوب من العاصمة ما يجعلني أمارس حياتي براحة تامة داخل أسوارنا الحجرية

المهترئة دون أن تضايقنا نساء الحي بدخولهن و خروجهن علينا دون سابق إنذار .

لكن سرعان ما إنطفأت جذوتها البراقة في عيني بعد علمي بقرار الدولة الفوري بسحب الكريسماس من قائمة الأعياد و العطل الرسمية بقرار جمهوري من المنتصر بعدما قرر محو أي شئ يتعلق بالمهزوم أو عهده البائد من وجهة نظره سلبا كان أم إيجابا بمن فيها الدينار الجنوبي و إستقلالية مدينة عدن الإدارية من ذاكرة شعبه الجمعية كما هي عادة اليمنيين في هذا المضمار على مر العصور و تماشيا مع رغبة حلفائه الإسلاميين الذين تنفسوا الصعداء بعد إنتصارهم المزيف ضد الشيوعيين حسب زعمهم الذين أقاموا الدنيا و أقعدوها ضد عيد الكريسماس بعد إقراره عطلة رسمية عام ١٩٩٠م حيث وصلت مماحاتكم بهذا الخصوص إلى عقدهم جلسة طارئة للبرلمان عام ١٩٩٣م أي قبيل أسبوع من بزوغ العام الجديد مطالبين بإلغائها و سحبها من قائمة الأعياد و العطل الرسمية قبل أن يبوءا مخططهم بالفشل الذريع بعدما إكتشف عدد من النواب و على رأسهم رئيس حزب الأحرار الدستوريين عبدالرحمن نعمان نيتهم المبيتة في إستغلال هذه الجلسة ذريعة لسحب أعياد ثورتي ٢٦ سبتمبر و ١٤ أكتوبر و الإستقلال في ٣٠ نوفمبر و الوحدة في ٢٢ مايو من قائمة الأعياد و العطل الرسمية أيضا .

و قد شاركتهم عمتي ياسمين هذا الشعور بحجة أن الكريسماس عيد للكفار و لا يحق للمسلمين الإحتفال رغم أن هناك العديد من البلدان الاسلامية التي تحتفل بها دون أن ينتقص من إيمانهم البتة كالكويت و تركيا و مصر و ايران و الجزائر و السعودية و تونس ....الخ .

كيف لا و في هذه المناسبة العالمية ولد سيدنا عيسى أو المسيح عليه السلام الذي يعد الإعتراف به و بإخوانه من أنبياء الله و دياناتهم السماوية ركنا أصيلا من أركان الإيمان الستة لدى المسلمين ؟ سيما و أن الكريسماس معناها (عيد المسيح المقدس) باللغة اللاتينية ؟ أم مازلنا نحن المسلمين نعادي أي شيء يرتبط بالأديان الأخرى بغض النظر عما إذا كان سلبا أم إيجابا لمجرد أننا شعب الله المختار الجديد الذي حل محل نظرائهم اليهود في الإستعلاء على غيرهم من شعوب العالم بحجة أننا الوحيدين الذين سيدخلون الجنة حتى و لو سرقنا أو زنينا و غيرنا سيدخل النار حتى و لو حاربوا السرقة و الزنا في ديارهم ؟

بغض النظر عن تحليلها أو تحريمها جزافا إلا أن هذا الأمر لم يمنعني من إهتمامي الزائد بها و بطابعها العالمي و الديني و الإحتفاء بها أيما إحتفاء ، سيما و أنها المرة الأولى التي أسمع بها منذ أن أبصرت عيناي نور الحياة و ما فيها إما لعدم إكتراثي لهذه الأمور الثانوية آنذاك و إما عدم معرفتي التامة بها و من إعتيادي على الأعياد و المناسبات

السائدة في شطرنا الشمالي من الوطن قبل الوحدة ...الخ ، فضلا عن أنها مناسبة عالمية سعيدة توحد البشر في أرجاء المعمورة بمختلف أديانهم و أعراقهم تحت لوائها الكرنفالي رغم جذورها الشرقية الفلسطينية و الرومانية أيضا بعدما قرر الإمبراطور قسطنطينوس اثر إعتناقه المسيحية الإحتفال بذكرى ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام مطلع كل سنة ميلادية جديدة عام ٣٣٤م ، و هذا ما لا حظته في الإحتفال الأول له عام ١٩٩١م داخل شطرنا الشمالي الغارق في عصوره الحجرية البدائية بأمر من جارنا السعودي و عملائه من مراكز القوى التقليدية و القبلية الفاسدة رغم مرور ٢٩ عاما على إندلاع ثورتنا السبتمبرية المجيدة حيث لا يعدو مجرد مجاملة مكبوتة لشركائهم الجنوبيين في الحكم مثل غيرها من المجاملات السياسية التي لا تعد و لا تحصى لغاية في نفس يعقوب من القوى الرأسمالية العظمى تمهيدا للإجهاز على ما بقي من قواعد المعسكر الشيوعي في أنحاء العالم .

و قد شاهدنا عبر قناة عدن أو ما كان يعرف تلفزيون اليمن الجنوبي سابقا مقتطفات حيوية من إحتفالات بلدان أوروبا الشرقية و الإتحاد السوفيتي بهذه المناسبة رغم مخالفتها لمعتقداتهم الشيوعية المعادية للدين إلا أنها تتماشى مع نهج البريسترويكا (إعادة البناء باللغة الروسية) الذي نادى به الزعيم السوفيتي السيء الحظ ميخائيل

غورباتشوف (١٩٨٥-١٩٩٢م) داخل بلده و حلف وارسو الشيوعي منذ عام ١٩٨٩م سعيا وراء الحفاظ على كيان ثاني أعظم حلف دولي في العالم بموازاة نظيره الأطلسي الرأسمالي بقيادة عدوه اللدود أمريكا دون أن يدر بخلده مطلقا أنه بهذا النهج الديمقراطي المدمر سيحفر قبره إلى غير رجعة ، و هذا ما أدركه لاحقا بعد خلعه من السلطة بإنقلاب عسكري هو الأول من نوعه عام ١٩٩٢م .

لم أجد في هذه المناسبة ما يميزها عن بقية الأعياد سوى شجرة الميلاد المزدانة بالقناديل الزجاجية المضيئة و النجوم البراقة و الشموع الملونة و الهدايا الجميلة الموضوعة في الجوارب الصوفية المزخرفة التي يقوم الأطفال بتزيينها مع آبائهم و أمهاتهم يرتلون تحت قبتها الخضراء و ظلالها الوارفة و التراتيل و الصلوات و الأناشيد الدينية ليلة الميلاد ، و حسب علمي هي عبارة عن شجرة صنوبر خضراء موطنها الأصلي فلسطين يقال بأن مريم العذراء عليها السلام كانت تستند عليه أثناء ولادتها لسيدنا عيسى عليه السلام في إحدى غابات بيت لحم تحفها الملائكة و على رأسهم جبريل عليه السلام برعايتها الإلهية .

أما العام الثاني لعطلة الكريسماس ١٩٩٢م تابعت اللقاءات الميدانية التي أجرتها قناة عدن مع بعض المقيمين العرب و لا سيما الشيوعيين

منهم في ثغر اليمن الباسم المطل على البحر العربي (؟) و معظمهم من اللبنانيين حيث تحدث أحدهم و كان يعمل في إحدى مقاهي عدن الراقية عن الأجواء الإحتفالية بهذه المناسبة في بلده الخارج لتوه من حرب أهلية طاحنة أهلكت الحرث و النسل كتزيين البيوت و الشوارع و الحارات بأشجار الميلاد و قناديلها المضيئة و إقامة الحفلات الموسيقية و الراقصة و الغنائية و الأدبية داخل دور العبادة الخاصة بأبناء ملته المسيحيين ألا و هي الكنائس أو الأديرة ! ما آثار إستغرابي و إستهجاني بحكم ثقافتنا الأخروية المتشددة كمسلمين حول سماح القائمين عليها من أساقفة و قساوسة و كرادلة بإستباحة هذا المجون الدنيوي و مظاهره النجسة لحرماتها المقدسة الطاهرة ما يدل على المرونة العالية التي يتمتع بها أتباع الديانة المسيحية إلى حد الإنفلات و لو على حساب كرامتهم الدينية فاقت إنغلاقنا المتطرف الأضيق من عنق الزجاجة .

كما تعرفت أيضا على أهم رموز الكريسماس على الإطلاق و بدونه لا يتم الإحتفال به ألا و هو سانتا كلوز[٥٨] أو بابا نويل[٥٩] عند الفرنسيين ، رجل الدين المسيحي العجوز الطيب القلب الذي يحب الأطفال حبا جما و لا سيما الفقراء و الأيتام و اللقطاء المشردين منهم حيث

[٥٨] القديس الرحيم باللغة اللاتينية (المؤلف) .

[٥٩] أبو السنة الجديدة باللغة الفرنسية (المؤلف) .

ينتظرون قدومه إليهم كل عام بفارغ الصبر على متن زلاجته الخشبية البراقة تجرها الأيائل الذهبية في السماء بلحيته الكثة البيضاء الناعمة و ثيابه الحمراء الفريدة من نوعها و طرطوره[٦٠] الأحمر بزبيبته البيضاء يحمل على ظهره كيسا صوفيا مليئا بالألعاب الجميلة كي يملأ جواربهم الفارغة المعلقة على أسرتهم بلمح البصر دون أن يوقظهم من النوم ، في البدء ظننتها شخصية اوروبية صميمة و تحديدا من جنوب فرنسا لأفاجأ بأنها إختراع تركي بحت إبان الحقبة العثمانية على يد أسقف سرياني من سكان مدينة مرعش جنوب تركيا كان يحب الأطفال الفقراء و المشردين مسلمين كانوا أم غير مسلمين حبا جما .

أما العام الثالث من هذه المناسبة (١٩٩٣م) فكان إحتفاؤنا بها إحتفاء باهتا و باردا للغاية لا يتناسب مع مستوى الحدث رغم متابعتي الحثيثة للفعاليات الإحتفالية المقامة في الجزائر و مصر خصيصا لها من حفلات غنائية صاخبة راقصة في الساحات و الميادين العامة أحياها مطربو الراي الجزائري الشاب خالد و الشابة الزهوانية و عبدالرحمن جلطي و الراقصة الإستعراضية نيللي و حسن كامي مطرب الأوبرا المصرية و مصطفى قمر و إستعراضات شبابية على متن الدراجات النارية في الشوارع الرئيسية و إطلاق الألعاب النارية في الهواء الطلق ...الخ .

---

[٦٠] قبعة حمراء اللون مخروطية الشكل (المؤلف) .

حيث قضيت عطلتها الرسمية في نزهة عائلية تكتظ بالحرج و التوتر إلى قحازة إحدى المناطق المقفرة لمحافظة صنعاء الواقعة على طريق صنعاء – إب جنوب العاصمة الذي يقودنا إلى مسقط رأس عائلتنا في وادي بنا الأشم الأبكم قبل أن تنتهي بشجار حاد بين والداي داخل المنزل حولها دون أن يعرف السبب .

تكررت نفس الأجواء الإحتفالية الباهتة في العام الأخير من عطلة الكريسماس سيما و أنها تزامنت مصادفة مع بداية عام ١٩٩٤م الكبيس حيث من المعروف عني تشاؤمي الدائم من السنوات الكبيسة[٦١] و تفاؤلي بنظيراتها البسيطة[٦٢] رغم الإحتفالات الساهرة التي شهدتها مهد الديانة المسيحية و مسقط رأس عيسى عليه السلام بيت لحم (بيت الخبز باللغة السريانية) الفلسطينية و تقاطر المسيحيين عليها زرافات و وحدانا من أرجاء المعمورة للمرة الأولى إثر خروج القوات الاسرائيلية منها العام الماضي ، فضلا عن إحتفالات الأتراك الباذخة بها في شوارع إسطنبول و أزمير و أنقرة و يولوداج و توزيع بطاقات المعايدة الميلادية و تماثيل ابن بلدهم بابا نويل الصغيرة و الكبيرة و ملابسهم الحمراء المزركشة و أشجار الميلاد المضيئة لكافة الأعمار ، يقابله إحتفاء رمزي باهت من قبلنا أقامته قناة عدن شارك فيه

[٦١] السنوات التي تقبل القسمة على أربعة (المؤلف) .

[٦٢] السنوات التي لا تقبل القسمة على أربعة (المؤلف) .

العديد من الفنانين العرب المقيمين في الشطر الجنوبي من الوطن و على رأسهم المطرب العراقي الكردي الأصل اليمني الجنسية (تعرف عليه والدي في عرس نجل أحد من معارفه الأباعد و اللواء بوزارة الداخلية موسى الجوري) و عضو الحزب الشيوعي العراقي سابقا قبل فراره و شقيقته من قبضة السلطات البعثية الحاكمة في بلاده إلى بلادنا عام ١٩٧٦م جعفر حسن حيث إشتهر لدينا بأغانيه الثورية الشيوعية و بمشاركة فرقة سمراء عدن اليمنية (يا بو جاكوج) و (هيلا) و (يمانية) و (يا صياد) و (عدن) .... و غيرها من الأمور و الأشياء التي تبرهن لنا عدم إعتيادنا على هكذا مناسبات عظيمة الشأن تماشيا مع المثل التركي (لا تصلح العادات الجديدة مع القرية القديمة) رغم أننا معروفين منذ القدم بتقليدنا الأعمى للأخرين دون قيد أو شرط .

الدهليز العاشر

حرب الخليج

منذ تصفحي العابر لكتاب صادر عن سلسلة عالم المعرفة أواخر صيف ١٩٩٤م أي بعد مضي شهر على حربنا الأهلية الهزلية و إنقطاع تدفق الإصدارات و المطبوعات و المنشورات الخليجية و العربية إلى أسواقنا المحلية المتعطشة لها طوال ثلاثة شهور عجاف بعنوان (حرب الخليج و آثارها المستقبلية) ألفه عالم الإقتصاد الأكاديمي المصري و صاحب الكتاب الشهير (الشركات عابرة القوميات) محمد السيد سعيد .

بالرغم من أن هذا الكتاب يحمل وجهة النظر الكويتية فقط حيال هذا الحدث المفصلي في تاريخ العرب الحديث إلا أنه سرعان ما حرك مياه ذاكرتي الراكدة بشأنه حيث ما زلت حتى هذه اللحظة أتذكر ذلك اليوم المسائي الهادئ في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠م عندما ألقى المذيع المخضرم محمد الرميم بصوته الجهوري على مسامعنا نبأ إقتحام الجيش العراقي للكويت بالصوت و الصورة ضمن نشرة أخبار التاسعة مساء الناطقة باللغة العربية بتوقيت صنعاء ، لم إستوعب حينها فداحة ما جرى و آثار إستغرابي إن لم نقل إستهجاني حيال أعز بلد إلى قلبي حتى من بلدي اليمن و الذي إنتصاراته العظيمة ضد اسرائيل عامي ١٩٧٣م و ١٩٨٢م و ايران عام ١٩٨٨م و تركيا عام ١٩٨١م

و حضارته العريقة و أمجاده الرياضية و الثقافية و أغانيه الجميلة الرائعة و تراثه الفني و الثقافي الرفيع الفائق الجمال لا تفارق مخيلتي في الليل و النهار ألا و هو العراق الذي لم يمض شهر واحد على إستضافته القمة العربية أو قمة الوحدة العربية تيمنا بوحدتنا المباركة المعلنة مطلع هذا العام (قبل أن ينكشف زيفها التام و كيانها الهش أمام الجميع عام ١٩٩٤م) حيث عقدنا آمالنا العريضة حولها في دفع العرب حكاما و شعوبا لتحرير فلسطين من نير الاستعمار الاسرائيلي البغيض و إنهاء الحرب الأهلية الطاحنة في لبنان و دفع الرئيس العراقي صدام حسين بطلي المفضل و قائدي العظيم و حامي عروبة الخليج العربي و حمايته من الأطماع الايرانية الفارسية الموغلة في القدم الى الأبد قبل أن أفاجأ بتوجيه سلاحه إلى نحر أعز أصدقائه المخلصين آنذاك (الكويت) و أندد بصوت عال بهذا التصرف المشين الصادر منه قبل أن يسكتني والدي برد مبهم زاد من حيرتي و إستغرابي أكثر فأكثر (يا ولدي ! ليش ما تفهمش ؟ الكويت جزء من العراق من فجر التاريخ !) .

لم أستوعب جيدا أخر عبارة تلفظ بها والدي لتوه و بحماس شديد حيال بلد كريم معطاء رغم منه و تكبره المستفز إلى حد لا يطاق في أعماله الخيرية التي لا تنضب على غيره من البلدان العربية و الإسلامية و لا سيما اليمن حكاما و شعبا حيث مد يد العون و المساعدة لهم في السراء و الضراء بصدر رحب تفوح منها رائحة الإخوة و التعاون

الظاهرة للعيان و الإبتزاز و الدناءة الخفية ، الكويت جزء من العراق ؟! إذن لماذا إنفصلت عنه ؟!! لماذا العراقيون لم يطالبوا بضمها اليهم الآن ؟!!! .... و غيرها من الشكوك و الأسئلة الحائرة تجاه إخواني العراقيين الذين إعتبرت نفسي واحدا منهم حينما صرحت بمشاعري الجياشة نحوهم أمام حضرة سفيرهم لدى اليمن قبيل الوحدة الذي صافحني بحرارة و أمر بعدم تحصيل الكتب التي إقتنيناها من الجناح العراقي بمعرض الطفل العربي المقام في جامعة صنعاء صيف ١٩٨٩م عرفانا و تقديرا لتأييدي المطلق لهم أيما تقدير ، فسرعان ما تبخرت في لحظات و عدت إلى الوقوف بجانبهم في قضيتهم المصيرية دون أن أدري السبب الحقيقي لحدوثها ألا و هو سرقة الكويتيين و السعوديين دون حياء أو خجل لبترول الجنوب العراقي عبر أنابيب شفط سرية عابرة للحدود انطلاقا من المنطقة المحايدة المقسمة بين الكويت و السعودية بموجب إتفاقية عقير عام ١٩٢٦م ، سيما بعد قرار أمريكا و بريطانيا إرسال قواتهما إلى السعودية و الإمارات و عمان و قطر و البحرين بموجب قرار القمة العربية الطارئة المنعقدة في مصر بعد شهر من الغزو العراقي للكويت و السعودية حيث تم إقراره من قبل معظم الدول ضمن جلسة تصويت ختامية سرية هزلية خالية من الشفافية أثارت غضب الزعيم الليبي معمر القذافي الذي حاول عبثا إفشالها و نقضها بعدما أحالها إلى جلسة ساخنة للغاية بين الحضور

إتسمت نقاشاتها بالتوتر و التلاسن الحاد بأقذع الألفاظ فتحولت على إثر ذلك إلى جلسة سرية إنقطع البث المباشر عنها لتغطية مجرياتها حينما رفع معمر خلالها عقيرته إلى أقصى حد ضد رؤساء الدول الخليجية المشاركة و الرئيس المصري محمد حسني مبارك و أمين عام جامعة الدول العربية آنذاك الشاذلي القليبي معتبرا ما جرى بالمهزلة المدبرة من قبل إخوانه الخليجيين كي يعطوا عبرها الضوء الأخضر للتدخل الأجنبي في شئونهم و نوعا من أنواع التكريس الشرعي لعودة الإستعمار الغربي إلى العالم العربي مجددا بدلا من الإعتماد على أنفسهم لحل هذه المشكلة الفادحة السالفة الذكر فيما بينهم كما فعل الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر معها من قبل عندما درسنا في مادة التربية الوطنية بالصف السادس الإبتدائي عام ١٩٩٣م عن جهوده المبذولة لرأب الصدع بين العراق و الكويت مطلع الستينات إثر خروج القوات البريطانية من الأخيرة و رفض رئيس الوزراء العراقي عبدالكريم قاسم الإعتراف باستقلالها عن بلده و إرسال جيشه لضمها عام ١٩٦١م تمثلت بإجبار أمير الكويت عبدالله سالم الصباح بطرد القوة العسكرية البريطانية الموجودة بناء على طلبه من أراضيه و إستبدالها بقوات عربية مشتركة تقودها على طول الحدود الفاصلة بين البلدين الجارين معتبرا ما حدث شأن داخلي لدى العرب لا يحق للأجانب التدخل فيه لا من قريب أو من بعيد رغم إكتشافنا لاحقا أنه

فعل ما فعل ليس حبا في زيد بل كراهية في عمر بمعنى آخر ليس من أجل العروبة بل نكاية في عدوه اللدود عبدالكريم قاسم ، و لعل إعترافه بالكويت و ضمها إلى جامعة الدول العربية بعدما وقف فيتو حليفه السوفيتي حائلا أمام إنضمامها إلى الأمم المتحدة عام ١٩٦١م لخير دليل على ذلك ، و على ذكر إنضمام الكويت للأمم المتحدة إستوقفتني طرفة محلية لئيمة وردت زورا على لسان الزعيم الصيني ماو تسي تونغ عندما إستجدى وفد الكويت إليه إعتراف دولته الرسمي بدولتهم عام ١٩٦٣م أي بعد عامين من إنضمامهم إلى الأمم المتحدة بشق الأنفس ، فسألهم (كم عدد سكان بلادكم ؟)

(حوالى ٧٦ الف نسمة)

(في أي فندق لدينا سينزلون ؟)

و بالرغم من الهرج و المرج الذي ساد أجواء هذه القمة بعيدا عن أنظارنا و مسامعنا و دون الأخذ برأينا في تلكم المسائل بعين الإعتبار و نحن كذلك على هذا المنوال منذ الأزل حتى قرر العرب العودة إلى عادتهم القديمة و أعلنوا الحرب على بعضهم البعض و فتح أجوائهم و بحارهم و أراضيهم لجيوش الغرب و على رأسهم أمريكا المتعطشة إلى بسط نفوذها الكامل على هذه المنطقة المضطربة منذ فجر التاريخ دون منازعة تذكر من غريمها التقليدي اللدود الاتحاد السوفيتي بعدما آثر

الإنسحاب من حلبة الصراع الدولي أواخر الثمانينات و ما فتئت أساطيلها و طائراتها الحربية تمخر عباب و أجواء مضايق جبل طارق و باب المندب و هرمز و قناة السويس و المحيط الأطلسي و البحرين المتوسط و الأحمر و بحر العرب وصولا إلى قواعدها العسكرية الجديدة على سواحل الخليج العربي المحاذية للعراق بحرية تامة في وضح النهار رغم أنف الإسبان و البريطانيين و المغاربة و المصريين و اليمنيين و الإيرانيين و العمانيين و دونما أي إعتراض منهم بعدما أحلوا دوي المدافع و البنادق و براكينها الملتهبة محل رايات السلام العادل و عطر زيتونها الأخضر و هديل حمائمها البيضاء ، و صوت الرصاص الأرعن بدلا من صوت العقل و الحكمة ، فينقسموا على إثر ذلك إلى ثلاث طوائف متناحرة فيما بينهن ، إحداهن موالية للعراق تضم في محيطها اليمن و الأردن و السودان و فلسطين و تونس و الجزائر و موريتانيا و الإخوان المسلمين في أرجاء العالم الاسلامي ، و الأخرى موالية لأمريكا فتضم معظم الدول العربية و على رأسهم الكويت و السعودية و من ورائهم بقية دول الخليج العربي و سوريا و لبنان و المغرب ، أما ثالثة الأثافي من بينهن فعلى الحياد لا مع هذا و لا مع ذاك و قد تفردت ليبيا بزعامته دون شريك لها ، و كل طرف من الأطراف السالفة الذكر يغني على ليلاه و يحمل الآخر مسئولية ما حدث و يبرئ نفسه من دم يعقوب زورا و بهتانا ليس من أجل سواد

أعين أصحابهم الأغبياء بل سعيا وراء غايات دنيئة و تافهة في نفس يعقوب لا يعلمها سوى الله عز و جل و العارفين بخباياها و أسرارها الدفينة و الضاحكين على تفاهاتها بلا حد أن لم نقل الباكين حسرة و ندما عليها ، و على إثر ذلك الإنقسام البغيض لهؤلاء تعددت مسمياتهم الدعائية لهذه الحرب المشئومة عليهم و وحدتهم القومية ، فمنهم من يسمها حرب الخليج الثانية أو حرب تحرير الكويت (؟) و آخرون يلقبونها بأم المعارك (؟) أو حرب البرابرة الصليبية .... و هلم جرا .

و ما أثار إستغرابي أكثر سر حماسة العرب عامة و اليمنيين خاصة الطاغية نحو الحرب و مقتهم الشديد للسلام و لو على حساب بعضهم البعض .

بداية لم أكترث لموضوع نشوب هذه الحرب اللعينة التي فرقت بين الإبن و أبيه و الأخ و أخيه بتاتا ظنا مني أن بلادنا بعيدة كل البعد عن نيرانها الملتهبة في حال حدوثها في القريب العاجل ، لكن هبوط أسراب من الطائرات الامريكية في القواعد العسكرية بمدن نجران و عسير و حفر الباطن و خميس مشيط السعودية على مقربة منا و تصريحات الرئيس الامريكي السابق جورج بوش العدائية المرتبطة بإعلان الحرب ضد العراق و حلفائه و إعتداء سفن المارينز الحربية

على سفينة إبن خلدون المدنية المتضامنة مع العراق في عرض الخليج العربي أشعرني بالخوف الشديد على نفسي و شعبي و بلادي من مصير مأساوي قاتم بدأ يلوح في الأفق البعيد سيجردها من حريتها و إستقلالها و سلامها الأهلي الدائم بعدما أضحت على مرمى حجر من نيران عدوانهم الغاشم .

لم تفارق مخيلتي تلكم التحذيرات المتعمدة لجس نبض الشارع المحلي و المبثوثة عبر وسائل الإعلام الرسمية عن الحرب القادمة و التي حملت في طياتها و بين سطورها سمات التحدي و المواجهة الساذجة ضد عدو قادر على إلتهامنا في أية لحظة تماهيا مع المثل الشعبي السخيف (البهررة نص الشجاعة) على الرغم من أننا لم نحرك ساكنا و لو بشق تمرة لا بالمال أو الجنود أو السلاح حيال حليفنا العراقي في مجلس التعاون العربي الذي علقنا آمالا عريضة على قيامه عقب إنتهاء الحرب العراقية – الايرانية عام ١٩٨٨م في سعيه الحثيث لتوحيد العرب في دولة واحدة و تحرير فلسطين من الإستعمار الاسرائيلي إثر نجاحه في إخراج الإسرائيليين من طابا المصرية عام ١٩٨٩م و إنهاء الحرب الأهلية الطاحنة في لبنان و توحيد اليمن في دولة واحدة عام ١٩٩٠م تحت لوائه قبل أن تطلق هذه الحرب رصاصة الرحمة الأخيرة عليها بعدما إنفرط عقدها الهش تحت وطأة الخلافات الحادة المفتعلة من قبل أعضائه الأربعة و سعي كل طرف

منهم السيطرة على بقية الأعضاء دون حياء أو خجل قبيل إندلاعها بثلاثة شهور ، بل أن تعاطف أبناء وطني الشديد معه لم يتجاوز حدود التصريحات العنترية التي ما قتلت ذبابة و منطق الطبلة و الربابة و المشاعر القلبية الجياشة الفياضة نحوه و ذلك أضعف الإيمان .

ظللت أتوجس خيفة من إحتمال سقوط بلادي في قعر هذه الحرب المشئومة التي ستهلك الحرث و النسل و تأكل الأخضر و اليابس و أنا أشاهد عبر شاشة التلفاز الرسمي بقناتيه الأولى و الثانية برامج و أخبار و أغان تبشر بقدومها الأسود المقيت علينا كما حدث مع برنامج إستراحة الأسبوع الترفيهي الشيق و المقدم من قبل المذيع الموهوب الشاب الصاعد لتوه إلى عالم الشاشة الفضية قادما من فرقة الكشافة الوطنية خالد عمر الذي تحول في تلك الأثناء بين ليلة و ضحاها إلى برنامج سياسي ممل بإمتياز .....و غيرها من الأمور و الإيماءات الدعائية المدسوسة إلينا و أثارت مخاوفي منها و دفعني إلى كتابة رسالة ساذجة إلى سكرتير الأمم المتحدة خافيير بيريز دي كويلار أطالبه بتدخله الفوري لإيقاف إندلاعها المريع ما لبثت أن مزقتها إربا إربا بعدما أثارت سخرية من حولي من أبناء جلدتي البلهاء الشعوفين بهبوب رياحها السامة و إجتياح إعصارها المدمر لأرضهم العربية السعيدة بالخراب و الدمار رغم علمهم علم اليقين بأن الحرب مقامرة خاسرة

لمن يشعلها خيرا أم شرا وقودها الناس و الحجارة و الأبرياء الذين لا حول لهم و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

و لكن ، و بعد أن قضي الأمر و تحدد موعدها المعلن في الخامس عشر من فبراير عام ١٩٩١م أي قبيل عيد جمعة رجب حتى باتت صنعاء و لا سيما مدارسها الحكومية و الخاصة خاوية على عروشها من البشر إلا ما ندر حيث لم يجرؤ معظم الطلاب و المدرسين على إرتيادها خوفا على أرواحهم من تعرضهم لغارات جوية إنتقامية من قبل طائرات التحالف الأمريكي ، و هذا ما لا حظته في مدرستي الأهلية عندما غاب العديد من زملائي عن الحضور و تقلصت على إثر ذلك الحصص الدراسية من ستة إلى حصتين دون أن يمنع الحاضرين منهم و الذين كانوا يعدون بالأصابع من محاولاتهم العابثة مغادرة المدرسة قبيل إنتهاء الدوام الدراسي بثلاث ساعات .

لكن سرعان ما تبخرت مخاوفنا الحادة على وقع الضربات الجوية العراقية الموجعة للإسرائيليين خلال إحتفالنا بعيد جمعة رجب في الساعات الأولى من الصباح الباكر حيث حولت نصف عاصمتهم تل أبيب قاعا صفصفا و دفعت سكانها الأوغاد المدنيين و العسكريين إلى الفرار من نيرانها الملتهبة و شظاياها الحارقة فرار الفئران المذعورة من مطارديها إلى جحورها المحفورة في باطن الأرض ، فضلا عن قدرة

الـــدفاعات الجويـــة العراقيـــة الفائقـــة فـــي إســـقاط العديـــد مـــن الطـــائرات الأمريكيـــة و البريطانيـــة و الفرنســـية المغيـــرة علـــى بغـــداد و ضـــواحيها ليـــل نهـــار و أســـر طياريهـــا المحتـــرفين و عـــرض صـــورهم عبـــر رشاشـــات التلفـــاز الرســـمي و صـــد جيشـــهم النظـــامي لهجمـــات القـــوات البريـــة الأمريكيـــة و حلفائهـــا الفاشـــلة لإقتحـــام حـــدودهم الجنوبيـــة – الغربيـــة إنطلاقـــا مـــن قواعـــدهم العســـكرية فـــي الســـعودية مـــرارا و تكـــرارا ..... و غيرهـــا مـــن الأحـــداث المفصـــلية فـــي بدايـــة الحـــرب التـــي دفعتنـــي إلـــى العـــدول عـــن مـــواقفي الســـابقة و ألهبـــت حماســـتي و دعمـــت تعـــاطفي المطلـــق للعـــراقيين أكثـــر مـــن قبـــل و بـــددت كافـــة الشـــكوك التـــي كانـــت تســـاورني حيـــالهم ، فلـــم أعـــد أخشـــى مـــن البـــوح بمشـــاعر التأييـــد الفياضـــة نحـــوهم و ناصـــرتهم جهـــارا و شـــاركت فـــي المظـــاهرات المؤيـــدة لهـــم و التـــي طافـــت شـــوارع العاصـــمة و ضـــواحيها قاطبـــة و التـــي تزامنـــت مـــع نظيراتهـــا فـــي الأردن و الجزائـــر و مصـــر و تـــونس و المغـــرب ، إضـــافة إلـــى تبرعـــي بـــدمي ســـرا لجرحـــاهم المنكـــوبين و المتضـــررين مـــن جـــراء القصـــف الوحشـــي علـــيهم و الـــذي كـــان منظـــرهم يوجـــع القلـــب ، فضـــلا عـــن صـــيامي الأيـــام الثلاثـــة البيضـــاء[٦٣] مـــن شـــهري رجـــب و شـــعبان مـــن أجلهـــم أنـــا و زملائـــي المتحمســـين لهـــم و إنشـــغالي بتحليـــل أخبـــار المعـــارك و الوقـــائع الحربيـــة الـــدائرة رحاهـــا علـــى الأرض للمـــرة الأولـــى ليـــل نهـــار معتمـــدا علـــى إعـــلام الطـــرف العراقـــي رغـــم

[٦٣] تعرف لدى اليمنيين بالثلاث البيض و هو صيام ثلاثة أيام ألا و هي اليوم الثالث عشر و الرابع عشر و الخامس عشر من كل شهر هجري ماعدا شهر صفر تطوعا (المؤلف) .

التعتيم الإعلامي من كلا الطرفين مما أثر سلبا على مستواي الدراسي و أثار غضب والداي الشديد من جراء ما أسلفت رغم تأييدهم المطلق للعراق و زعيمها صدام حسين ، إلا أنه كان تأييدا مزيفا خال من الصدق و الشفافية ما يلبث أن ينكشف غوره عام ١٩٩٣م عندما عرفت أن سر وقوفهم إلى جانبهم يعود إلى كرههم الشديد للسعودية كرها طائفيا فحسب ، و إلا من يكون العراق هذا حتى يقفوا إلى جانبه و هو حسب زعمهم عدوهم اللدود لسلالتهم الهاشمية المقدسة و حبيبة قلبهم إيران الخمينية رغم علمهم علم اليقين أن الأخيرة لا تحبهم أو تحب أمثالهم من العرب بمن فيهم نسل رسولنا الكريم (ص) و تحقد عليهم حقدا دفينا منذ الأزل كونهم وراء إسقاط إمبراطوريتهم الفارسية الغابرة تحت سنابك خيولهم الفاتحة لبلادهم في عهد خليفتهم المحمدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، علاوة على أنها أحد المتأمرين المتعاونين سرا مع أمريكا هذه الحرب السالفة الذكر ضد العراق و العراقيين عندما أغارت طائراتها الحربية غدرا عليهم في شهر سبتمبر قبل أن ينجحوا في إسقاطها و أسر طياريها الستة عرض مقابلات حصرية معهم عبر تلفزيون بغداد مدلين بإعترافات دامغة عن تورط بلادهم في هذا الموضوع الشائك على الهواء مباشرة .

بل أن تركيا التي أحببتها حبا جما منذ نعومة أظافري لا يقل عن حبي للعراق بشعبها الودود و أرضها الخضراء و جبالها الثلجية الشماء و

طبيعتها الخلابة التي لا تقل جمالا أخاذا عن نظيرتها في اوروبا غير مكترث لحقد عائلتي الطائفي المزيف الدفين ضدها و لا بمشاكلها اليومية و جراحها الغائرة التي لا يغمض لأهلها جفن بسببها وقفت منذ الوهلة الأولى ضد جارتها الجنوبية خلال هذه الحرب ، بل أنني أوهمت نفسي أثناء طفولتي المبكرة و قبيل دخولي المدرسة بعام واحد بأنها دولة إسلامية عظمى من إختراعي حكمت العالم القديم طيلة سبعة قرون (آسيا و افريقيا و اوروبا) و لا سيما وطننا العربي الكبير (طبقا للشعار القومي المبتذل العديم الفائدة الذي ظل القوميون العرب بكافة تياراتهم السياسية يرددونه كالببغاوات البلهاء و يصدعون رؤوسنا به ليل نهار من المحيط إلى الخليج) بعدما خاضت العديد من الحروب و المعارك المصيرية التي إنتهت لصالحها لأكتشف لاحقا أن ما تصورته من وحي خيالي من معلومات و تفاصيل دقيقة حولها أصاب كبد الحقيقة دون أن أدري ، ما الذي يدفع تركيا إلى محاربة العراق و تتأمر عليه ؟ أهو إستعمارها الطويل له إبان الحقبة العثمانية (١٥١٧-١٩١٨م) ؟ أم عضويتها في حلف الأطلسي التي تتزعمه أمريكا ؟ أم الأمر له علاقة بالمعركة الإفتراضية من نسج خيالي عندما رسمت أجوائها الحربية الدائرة بين الجيشين التركي و العراقي على صفحات عدد قديم من مجلة الدوحة القطرية عام ١٩٨٧م كما هي كانت عادتي المفضلة إبان طفولتي المبكرة حينما كنت إملأ المجلات و الكتب

التي أجدها بمنتاول يدي برسوماتي العثبية المعبرة تعبيرا صادقا عن مخيلتي البريئة آنذاك رغم إثارتها لسخط و توبيخ متكرر من والداي المتحاملان علي حيث إنهيتها لصالح العراق رغم مكانة تركيا العزيزة في قلبي دون أن أدرك مليا بأن ما رسمته حينها دارت أحداثها على أرض الواقع بين عامي ١٩٧٥م و ١٩٨١م؟ ..... الخ .

هذا بالنسبة لتركيا ، فما بالك باليابان و الأرجنتين اللذين صدمني موقفهما المعادي للعراق ، فالأولى تعتبر بالنسبة لي من أهم الدول الصناعية و المتطورة في العالم ، بل و أفضل من أمريكا التي دمرتها حرقا بالقنابل الذرية أواخر الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م بعدما سوت مدينتي هيروشيما و نجازاكي و أهلهما بالأرض دون رحمة أو شفقة بهدف تركيعهم و إجبارهم على الإستسلام لهم و حلفائهم المنتصرين بمنتهى الإذلال و الهوان الذي يمارسه المنتصر الأمريكي المتعجرف ضد نظيره المهزوم بعد تجريدهم من جيش النظامي الوطني و إجبارهم على تبني دستور رسمي للبلاد غير مكتوب بلغتهم الوطنية اليابانية بل باللغة الانجليزية حتى وقتنا الحاضر و مع ذلك تنسى كل هذه المآسي بجرة قلم و ترسل قوات عسكرية من قوات الدفاع الذاتي لمساعدة حليفها الأمريكي بشكل أغضب اليابانيين أنفسهم كثيرا و دفع إثنين من شبابهم الصحفيين إلى إقتحام مقر البرلمان و رمي نعالهم من أعلى فوق رأس رئيس وزرائهم كايفو أثناء إلقاء خطابه المرتبط

بالأمر إحتجاجا على مشاركة بلادهم فيما يسمونها بالمهزلة الأمريكية قبل أن يتدخل رجال الأمن بإعتقالهم الفوري و إخراجهم من المكان بهدوء في مشهد يذكرنا بما فعله الأديب الشهير يوكو ميشيما الذي هاجم في رواياته الجريئة بلده التي تشرق من الشمس و شعبها و إمبراطورها المعظم و خضوعهم الذليل لأمريكا دون حياء و خجل لحظة إقتحامه وزارة الداخلية و أسره بمعاونة رفاقه جميع الضباط و الموظفين فيها قبل أن يقدم على الإنتحار بطريقة الهاراكيري و تحرير الرهائن من قبل الشرطة عام ١٩٧٧م بعد أن بح صوته دون جدوى و هو ينادي على الملأ خطيبا من فوق مبنى الوزارة و يحثهم على الثورة ضد من جعلوا بلدهم ذليلة خانعة للمستعمر الغربي رغم أنه و غير من أبناء جلدته يعلمون علم اليقين بأنهم مارسوا الإذلال و العجرفة الإستعمارية الوحشية مع الكوريين و الصينيين و شعوب جنوب شرق آسيا الأخرى و إرتكبوا بحقهم مجازر بشعة يندى لها الجبين في عقدي الثلاثينات و الإربعينات ، أما الثانية الواقعة أقصى جنوب الكرة الأرضية و مسقط رأس منتخبي المفضل لكرة القدم المنتخب الأرجنتيني و على رأسهم مثلي الأعلى في عالم المستديرة الخضراء نجمي المحبوب دييغو مارادونا آنذاك قبل أن يخيب ظني بتعاطيه المفرط للمخدرات قبل شهرين تحت وطأة يأسه الطاغي من عدم حصوله على كاس العالم للمرة الثانية بالنسبة له و الثالثة بالنسبة لبلده

بعد هزيمتهم الصعبة أمام الميكنة الالمانية في المباراة النهائية بمونديال إيطاليا عام ١٩٩٠م ، إضافة إلى أنها كانت محكومة من قبل رئيس الجمهورية المنتخب منذ العام الماضي ذو الأصول السورية كارلوس منعم الذي رفع إسم العرب عاليا في دنيا العالم الجديد حسب زعمنا في تلك الأيام و لكن هذه المرة ضد إخوانه العرب تماشيا مع رغبة موطنه الأصلي المشارك أصلا في الحرب المشتعلة ضد جارته الشرقية من قبل .

مضت الأيام و الساعات سريعا على إندلاعها و المعارك لا تزال حامية الوطيس بين الطرفين على كافة الجبهات ، فلم تتوقف الغارات الوحشية للطائرات الحربية الأمريكية و حلفائها الغربيين و العرب و المسلمين عن إمطار سماء بغداد و ما حولها من المحافظات العراقية الاخرى بوابل من القنابل و الصواريخ المحرمة دوليا التي لم ترحم نيرانها المتوحشة البشر و الشجر و الحجر و النهر مخلفة وراءها أطنانا من القتلى و الضحايا و الدمار و الخراب و مجازر بشعة يشيب لها الولدان و تقشعر لها الأبدان و تجعل شعر رأسك يقف من هول الفاجعة كما حدث لي عندما شاهدت عبر شاشة التلفاز مناظر موجعة للقلب و مرعبة للغاية لآلاف الأبرياء الذين تفحموا داخل ملجأ العامرية الأرضي الواقع شرق العاصمة البغدادية بعد قصفه بالقنابل العنقودية دون حياء أو خجل بزعم وجود أسلحة ثقيلة مخبأة داخله ، و بدورهم

لم يتوقف العراقيون عن الذود بالغالي و النفيس عن أرضهم الطيبة برا و بحرا و جوا و القصف الجوي العنيف بلا هوادة لإسرائيل و السعودية و قطر و البحرين و الإمارات و عمان بزخات من صواريخها المحلية الصنع كالحسين و العباس و العقاب دون أن تفلح صواريخ خصومهم الباتريوت الأمريكية (و هي أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية في الغرب) أن تصدها و لو على سبيل المناورة موقعين خسائرا بشرية و عسكرية هائلة في صفوف الأعداء دون أن يصرحوا بخسائرهم المماثلة لا من قريب أو بعيد فيما يشبه نزال الملاكمين داخل الحلبات الغير مشروعة بعيدا عن الأضواء و الجماهير الغفيرة .

لم أنس ذلك الخطاب الرسمي لصدام حسين المبثوث على شاشة تلفازنا المحلي ليلة البارحة متابعا إياه بحرص شديد حرفا بحرف ، كلمة بكلمة رغم الحمى التي ألمت بي و أبقتني طريح الفراش في البيت بعيدا عن المدرسة منذ أسبوعين و هو يعلن بملء إرادته و صوته الجهوري و شموخه الرزين الذي لا يضاهى كما إعتدنا عليه منذ نعومة أظافرنا وقف إطلاق النار مع الأمريكيين و حلفائهم و إنسحاب الجيش العراقي من الكويت و محافظات الخفجي و عرعر السعودية و المنطقة المحايدة انسحابا كاملا (؟!) دون إرغام من أحد و منهيا بذلك الحرب القائمة معهم معللا قراره هذا بأسباب لم تقنعني في البداية و دفعتني حينها إلى رفضه رفضا باتا ما لبثت أن تراجعت عن ذلك بعد أن

تلمست نتائجها المصيرية على أرض الواقع ، لقد كان الرجل و شعبه بمفردهما خلال هذه الحرب الخاطفة في مواجهة طوفان عالمي مكون من ٣٠ دولة و على رأسهم امريكا يسعون لإلتهام بلده العريق بحضارته و تاريخه التليد دون الإكتفاء باخراجهم من الكويت فحسب ، حتى حلفائه العرب و الأجانب العديمي الفائدة لم يقدموا له يد العون في الشرك الذي أوقع نفسه فيه رغما عنه ما عدا مساعدات عسكرية سرية من قبل العملاق السوفيتي الآيل للانهيار في أية لحظة دون أن تف بالغرض المنشود ، فما كان أمامه من خيار سوى الإنسحاب إلى حدود بلاد الرافدين للدفاع عن ترابها الذهبي بما أوتي من قوة في وجه المعتدين الأمريكيين الذين ما لبثوا بعد سريان مفعول الإتفاق المبرم مع العراقيين على اطراف الحدود العراقية – السعودية أن فرضوا عليهم حصارا دوليا خانقا بقرار ملتبس من مجلس الأمن و دعمهم المتواصل المنقطع النظير للمتمردين الأكراد في الشمال و الشيعة في الجنوب المعارضين لنظامه الديكتاتوري الحاكم و المتآمرين عليه و على وحدة بلاده الوطنية .

و لم يسلم المتحالفون رمزيا مع العراق من العقاب الجماعي الذي أنزله المنتصرون الأمريكيون عليهم حتى يدفعوا ضريبة وقوفهم إلى جانب الحصان الخاسر بالتمام و الكمال ليخرجوا من حلبتها بخفي حنين خاليين الوفاض إلا من الأزمات و المشاكل المستعصية ، فمن الأردن

الجار الغربي له بمساحته الصحراوية الشاسعة المترامية الأطراف الفقير بموارده البشرية و الطبيعية تعرض لضائقة مالية حادة نتجت عن تدفق مليون مهاجر أجنبي (من بينهم أردنيون و يمنيون) سيرا على الأقدام من الكويت عبر العراق إليه و طرد الآلاف من مواطنيها المغتربين من أراضي السعودية و الإمارات ما حرم إقتصادها القومي من تحويلاتهم المالية التي تسد الرمق و قطع السعودية إمداداتها النفطية بأسعار زهيدة عنها ما دفع ملكها الحسين بن طلال إلى إعادة الأمور إلى نصابها فيما يتعلق بسياسته الخارجية المرتبطة إرتباطا وثيقا مع الغرب ، فأسقط حكومة الإسلاميين المنتخبة بفضله منذ عام ١٩٨٨م من السلطة عام ١٩٩٣م بحجة أنها ورطته في تأييد العراق تأييدا معلنا و بتهمة الإرهاب حسب زعمه و إحتضن العديد من المعارضين العراقيين لصدام حسين ، إضافة إلى موافقته التامة على إقامة علاقات دبلوماسية مع عدوه اللدود إسرائيل التي اعادت له منطقة وادي عربا و أعطته حق الإشراف على الحرم القدسي الشريف بموجب إتفاقية وادي عربا عام ١٩٩٤م .

مرورا بالسودان الذي لم تبرأ جراحه العميقة من حرب أهلية مشتعلة منذ عام ١٩٨٣م تدور رحاها بين حكومة الخرطوم المركزية و المتمردين الجنوبيين بقيادة الشيوعي المخضرم و رئيس حركة تحرير جنوب السودان جون قرنق المدعوم من قبل الكويت و السعودية التي

لم تغفر لرئيس الجمهورية عمر حسن البشير رفضه التام لطلبها الملح بتسليم أحد اهم المستثمرين العرب رجل الأعمال اليمني الأصل و أحد قادة الجهاد الأفغاني و الأفغان العرب ضد السوفييت في ثمانينات القرن العشرين أسامة بن لادن لها بعدما جردته من جنسيته السعودية إثر معارضته الشديدة لها و لتأمرها المعلن مع أمريكا ضد العراق و تحريضها مصر على شن حرب حدودية هي الأولى من نوعها ضدهم حول منطقتي حلايب و شلاتين العام الماضي و إرتيريا المستقلة حديثا و أوغندا بإثارة المشاكل و إفتعال الإشتباكات المسلحة مع جيشهم النظامي على حدودهم المشتركة منذ عام ١٩٩٣م و فرض أمريكا عقوبات إقتصادية و سياسية ضدهم بتهمة تمويل الإرهاب الدولي رغم تسليمها الشيوعي الفنزويلي كارلوس المطلوب رأسه لدى الدوائر الامريكية و الاوروبية و الخليجية أثناء إلتحاقه بالمقاومة الفلسطينية في عقد السبعينات من القرن العشرين إلى السلطات الفرنسية .

إلى تونس الذي آثر رئيسها زين العابدين الإنحناء لعاصفة الصحراء الأمريكية و مطاردة أعضاء حزب النهضة الإسلامي و محاربتهم بعدما حرضوه على تأييد العراق حفاظا على المصالح و الإستثمارات الخليجية في بلده ، فموريتانيا التي أضطر رئيسها معاوية ولد احمد الطايع إلى مطاردة أعضاء حزب البعث العربي الإشتراكي إثر انقطاع

المساعدات و الإستثمارات الضخمة التي تهل عليهم من قبل العراق بعد فرض الحصار عليه ، فالجزائر التي دخلت في دوامة إقتتال أهلي هو الأول من نوعها في بلد المليون و نصف مليون شهيد بتحريض سعودي مكتوم إندلع إثر إلغاء الدورة الثانية من الإنتخابات التشريعية من قبل قادة الإنقلاب العسكري الذي أطاح برئيس الجمهورية الشاذلي بن جديد و على رأسهم وزير الدفاع خالد نزار عام ١٩٩٢م سعيا منهم إلى إيقاف زحف جبهة الإنقاذ الإسلامية الحثيث نحو السلطة بعد إنتصارها الساحق في الدورة الأولى منها و نجاحها في إنهاء حكم جبهة التحرير الوطني للبلاد الذي دام ٣٣ عاما إلى الأبد عام ١٩٩١م حيث مازالت حامية الوطيس حتى بعد إنتخاب الرئيس السادس للبلاد الامين زروال عام ١٩٩٤م ، أما بلادنا السعيدة اليمن فحدث و لا حرج ، فلا طالت بلح الشام و لا عنبها اللذيذ و لا حافظت على سيل الإستثمارات و المساعدات المالية الضخمة المتدفقة عليها من قبل دول الخليج العربي و على رأسهم جارنا اللدود السعودية التي كانت تدفع مرتبات مليون فاسد في الشمال و الجنوب من جيبها الخاص تاركة أموال الشعب المنهوبة من قبل دولتنا الرشيدة تنفقها كيفما يحلو لها على المواطنين أولا و البلاد ثانيا ثم أتباعها من رموز الفساد المالي و الإداري حيتانها الضخمة من رجال أجهزتها المدنية و العسكرية و الأحزاب السياسية و شيوخ القبائل و علية القوم الذين لا يشبعون أبدا

دون حياء أو خجل دون أن يتجاوزوا الخطوط الحمراء المفروضة عليهم آنذاك و المتثملة بسيادة الدولة و القانون و وحدة الوطن و سلامة أراضيه و مواطنيه قبل أن يحررهم عمنا من أغلالها و قيودها الخانقة لهم بعد الوحدة المباركة ، و لا إنتصر حليفها العراقي في قلب المعركة بعدما كانت تعول عليه كي يخرجها من المأزق العسير الذي أوقعت نفسها فيه رغم محاولة عمنا و رئيسنا المغوار تبرئة نفسه على رؤوس الأشهاد من تحالفه الوثيق معهم و تنديده الصريح منذ البداية بإحتلالهم العسكري للكويت خلال مؤتمر صحفي يتيم عقده في القصر الجمهوري و حضره جمع غفير من رجال الإعلام العربي و الأجنبي عام ١٩٩١م ليدفعوا ثمن مواقفهم الغبية و المتسرعة بعودة الألوف المؤلفة من المغتربين الى أرض الوطن قادمين من أرض المهجر في الكويت و العراق و السعودية صفر اليدين ليشكل وجودهم قنبلة موقوتة قابلة للإنفجار في أية لحظة بيد من يدفع لهم أكثر لمن هب و دب من الداخل و الخارج ، فضلا عن الأزمات الإقتصادية المتلاحقة و المفتعلة من قبل أركان الحكم المتصارعين ضد بعضهم كأزمة رفع سعر البترول عام ١٩٩٣م و السلع الضرورية عام ١٩٩٤م و التي أسفرت عن دخولهم في حرب صيف ١٩٩٤م الأهلية حيث كبدت البلاد خسائر مالية هائلة بقيمة ١١ مليار دولار و تسبب بزوال جنة

الرخاء الإقتصادي التي كنا ننعم بها تحت راية التشطير حتى وقتنا الحاضر إلى غير رجعة بأوامر عليا تثير الضحك قبل البكاء .

في المقابل ، سرعان ما تقاسم المنتصرون غنائم نصرهم الزائف الذي تحقق إثر تحرير الكويت و شرق السعودية من العراقيين دون كلل أو ملل ، فأنشأ الأمريكيون المزيد من القواعد العسكرية الجديدة لهم على إمتداد أراضي دول مجلس التعاون الخليجي و عرضها ، و ظفر السوريون ببسط سيطرتهم الفعلية الكاملة على جارتهم الغربية المتناهية الصغر لبنان بلا منازع إثر إنتهاء الحرب الأهلية الطاحنة فيها عام ١٩٩٠م ، و استعاد المصريون زعامتهم المزيفة للعالم العربي بعدما دقوا آخر مسمار في نعش مجلس التعاون العربي المنضوين تحت لوائه من قبل عبر عودة جامعة الدول العربية مجددا إلى مقرها القديم في القاهرة بدلا من تونس التي إحتضنتها طيلة ١٢ عاما مضت عام ١٩٩١م و شكلوا مع إخوانهم السوريين و اللبنانيين و الخليجيين تحالفا شكليا بضوء أخضر من امريكا و حلفائها عرف بتجمع الطوق العربي عام ١٩٩١م ليقودوا العرب من خلاله ضد العراق و حلفائه السابقين كما يحلو لهم .

و على الرغم من أن الليبيين وقفوا على الحياد ، إلا أن المنتصرين و لا سيما الأمريكيين منهم الذين يعادونهم منذ عام ١٩٨٠م لم يشفعوا لهم

حيادهم المعلن ذلك و رأوا فيه تامرا واضحا عليهم ، فيقدموا على فرض الحصار الجوي ضدهم بقرار ملتبس من مجلس الأمن عام ١٩٩٢م تحت بند تورطهم المزعوم في جريمة تفجير طائرة الركاب الأمريكية الملفقة من قبلهم و المعروفة لدى الرأي العام العالمي بقضية لوكيربي نسبة للمدينة الإسكتلندية الواقعة في شمال بريطانيا و سقطت فيها الطائرة المذكورة سلفا عام ١٩٨٨م ..... و غيرها من الأحداث و النوائب الغزيرة على ذاكرتنا المحدودة فجأة خلال تلك الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا العربية الإسلامية المنكوبة و تراثها التاريخي السقيم دفعتني إلى عدم إكمال قراءة كتاب محمد السيد سعيد عن حرب الخليج بالمرة بعدما أدركت أنه مثل غيره من العرب و المسلمين و اليمنيين على حد سواء الذين إتفقوا على ألا يتفقوا .

الدهليز الحادي عشر

وين الملايين

أثناء مطالعتي لأحد الأعداد القديمة لمجلة العربي الكويتية التي يعود تاريخها إلى عام ١٩٨٤م قبيل موعد الغداء المعتاد الذي نتناوله متأخرا عن بقية نظرائنا من سكان حارتنا الميتة عند تمام الساعة الثالثة عصرا أي قبل بداية الإرسال بنصف ساعة ، أصغت أذناي المرهفتين لأغنية حماسية عزيزة على قلبي منذ خمسة أعوام صادرة من مذياع والدتي القديم أثناء إعدادها الطعام لنا تبث لتوها من إذاعة صنعاء ألا و هي أغنية (وين الملايين) التي كتبها و لحنها الفنان الليبي رمزي الكيلاني و غنتها ثلاث مطربات شابات من سوريا و لبنان و تونس ، فحركت مشاعري المدفونة حيال القضية الفلسطينية بعدما نسيتها تماما أو قررت تناسيها إثر حرب الخليج الثانية ، سيما و أني هذه الأيام صرت أتصرف كالكبار الراشدين نوعا ما رغما عني خلال مرحلة مراهقتي الحالية التي إنخرطت فيها للتو منذ عامين تقريبا ، فلم أعد أحب اللعب مع الأطفال أو اللهو بألعابي القديمة أو مع أخي الصغير نعمان مفضلا عنهم الإنشغال بعالمي الخاص المرتبط بقراءة الكتب و المجلات الأدبية و الثقافية و كتابة القصص و الروايات و المسرحيات

الخطوط العربية بكافة أنواعها و رسم لوحات البورترية عوضا عن رسم البيوت و المنازل و المعالم المعمارية و الكاريكاتير .

و تحت تأثير هذه الأغنية الثورية التي لم تحرك ساكنا من العرب و المسلمين حتى وقتنا الحاضر قادتني عيناي القارئتين أثناء مطالعتي للمجلة السالفة الذكر إلى رسم كاريكاتوري أجنبي ساخر تم إستنباطه من إحدى الصحف الغربية يعبر محتواه عن موقف العالم السلبي من الفلسطينيين و قضيتهم العادلة عبر رجل بدين أنيق المظهر حسن الهندام رأسه مدور على هيئة الكرة الأرضية يرد على سؤال أحد الصحفيين الاوروبيين المؤيدين للفلسطينيين مشيرا بسبابته اليسرى على رأسه بقول غريب للغاية مترجم من النص الأصلي باللهجة المصرية (الفلسطينيين ، ايوه فاكرهم ، بس ممكن تفكرني هم فين جوه دماغي بالضبط؟)

ألهذا الحد الفلسطينيون الملتحفون عراء البسيطة في أرجاء المعمورة بلا وطن و لا مأوى يأويهم لا وجود لهم على الخريطة حسب نظر البشر الساكنين معهم من كافة مشاربهم ؟ أليسوا مقتنعين بأنهم مظلومين و مضطهدين و قضيتهم عادلة و مطرودين من وطنهم رغما عنهم من قبل لصوص غرباء جبناء إسمهم الإسرائيليون يدعون أن هذه الأرض ارضهم ؟ إذا كان إخوانهم في العروبة و الإسلام قد خذلوهم

بمنتهى الخسة و النذالة و أستغلوا قضيتهم دون حياء أو خجل لغايات دنيئة في نفس يعقوب فماذا عن أصحاب الضمائر الحية في أرجاء المعمورة الذين عانوا نفس معاناتهم من قبل على يد مستعمرين لا يقلون وحشية عن نظرائهم الإسرائيليين قيد أنملة ؟ سيما و أني طيلة هذه الفترة كنت أحسبهم سهوا مستعمرون اوروبيون قدموا من وطنهم اسرائيل الكائن حسب زعمي في قلب القارة العجوز الشمطاء و حلوا محل نظرائهم و سادتهم البريطانيين في إحتلال فلسطين عام ١٩٤٨م و سيعودون إلى بلادهم حالما تخرج جيوشهم من هذه الأرض المحتلة و يعلن أهلها المقاومين إستقلالها عنهم بموجب إتفاقية غزة – أريحا عام ١٩٩٣م (؟) لتثبت الأيام خطأ معلوماتي الفادح لأكتشف لاحقا بأنهم مثل الفلسطينيين و الأكراد بلا وطن او كيان سياسي او شيء من هذا القبيل يأويهم و يحتويهم تحت ظلاله الوارفة من قبل حيث عاشوا مشتتين في أرجاء المعمورة عيشة الغجر الغرباء المكروهين من أهل البلدان المقيمين فيها رغما عنهم طيلة قرون كاملة منذ العصور الوسطى حتى تأسيس دولتهم عم ١٩٤٨م كما لو كانوا أوراما سرطانية تستحق الإبادة الجماعية إن لم نقل البتر جراء معتقداتهم الدينية و الثقافية المتطرفة و إنغلاقهم و إنعزالهم التام عمن حولهم ضمن أحياء مغلقة للغاية عرفت في اوروبا و امريكا بالجيتو و في مصر بحارة اليهود و في بلادي بمحلات اليهود ، لم يصدقوا أن يتحقق حلمهم الذي طالما

ظلوا منذ القرن التاسع عشر يحلمون بامتلاك وطنهم الخاص الذي يكفيهم شر الذل و الهوان على يد الشعوب الأخرى جمعاء و تكفل لهم الحفاظ على هويتهم السياسية و الثقافية و الدينية المريضة نوعا ما دون أن يجبرهم أحد على التخلي عنه بأي حال من الأحوال ، و لكن أين ؟ في فلسطين التي طردوا منها مرارا و تكرارا على يد العراقيين القدماء و الرومان ؟ فلسطين التي يزعمون في أدبياتهم الدينية أن الله عز و جل وهبها لهم و نبيهم موسى عليه السلام و بأرضها و أهلها على طبق من ذهب حتى مجيئ الساعة ؟ و بواسطة من إستولوا عليها ؟ بواسطة المستعمرين البريطانيين الذين إستعمروها بتواطؤ من قادة الثورة العربية الكبرى ضد الإستعمار التركي عام ١٩١٦م و على رأسهم الشريف حسين بن علي و ولديه الأميرين فيصل و عبدالله تنفيذ لوعدهم المشئوم الذي أصدره وزير خارجيتهم الأرعن بلفور عام ١٩١٧م ؟ وعد من لا يملك لمن لا يستحق ؟ و فرضا لو كانوا على صواب و تعرضوا لظلم شعوب الشرق و الغرب على حد سواء و من بينهم الألمان الذين أبادوا منهم خلال الحقبة النازية (١٩٣٢-١٩٤٤م) حوالى ثلاثة ملايين نسمة معظمهم من النساء و الاطفال و العجائز فهل هذا يعطيهم الحق في الإستيلاء على فلسطين المأهولة بالسكان منذ القدم رغم وجود العديد من الجزر و الأراضي الخالية من السكان على وجه البسيطة ليحققوا حلمهم الموعود بهذا الخصوص

ليكونوا وطنهم فيه و يقتلعون شعبها المسالم من جذورهم و يمارسون الإبادة الجماعية ضدهم و هم يعلمون علم اليقين بأنهم من الشعوب التي لم تؤذهم أو تضطهدهم أو سعوا إلى إبادتهم أو جرح كرامتهم قط ؟

و هذا ما لاحظته مليا خلال متابعتي الدقيقة نوعا ما للإنتفاضة الفلسطينية الأولى المعرفة لدى القاصي و الداني آنذاك بإنتفاضة الحجارة نسبة لسلاح القائمين عليها من الرجال و النساء و الأطفال أثناء مواجهتهم العارية للمستعمر الإسرائيلي المدجج بكل تالد و وارد من الأسلحة الخفيفة و الثقيلة مواجهة الكف للمخرز داخل الشوارع و الاحياء الفقيرة و لاسيما مخيمات اللاجئين منذ عام ١٩٤٨م في مدن الضفة الغربية و قطاع غزة أو أراضي فلسطين ١٩٦٧م لحظة إندلاعها عام ١٩٨٦م أي قبيل إلتحاقي بالمدرسة بعام واحد و أنا أشاهد البرامج الإعلامية المرتبطة بسير أحداثها من صحف و مجلات و مجلات أطفال و أفلام و مسلسلات و أغاني و مسرحيات و برامج و أخبار لحظة بلحظة داخل وطني أم خارجه رغم محاولات أفراد عائلتي إثنائي عن الخوض في غمارها العميق بحجة أنني لم أبلغ سن الرشد بعد كما فعل والدي عندما منعني من متابعة برنامج تلفزيوني فلسطيني عن قتل أطفال الحجارة و إعتقالهم بث ليلا خلال العطلة الصيفية عبر شاشة تلفزيوننا المحلي عام ١٩٨٧م و أجبرني على النوم حينها غير

مكتـــرث لبكـــائي و صـــراخي الحـــاد أو شـــقيقتي ربـــاب التـــي منعتنـــي مـــن مشـــاهدة المســـرحية الفلســـطينية (عـــروس الارض) عـــام ١٩٨٨م إلا أنهـــم يعلمـــون علـــم اليقـــين بـــأن عقلـــي الطفـــولي البســـيط آنـــذاك كـــان ســـابقا لعصـــره و أوانـــه يفـــوق إســـتيعابه و إيمانـــه الشـــديد بقضـــايا أمتـــه العربيـــة و الإســـلامية إيمـــان و إســـتيعاب مـــن بلغـــوا مـــن العمـــر عتيـــا و هـــو الـــذي تعـــاطف مـــع الشـــعب الجزائـــري تعاطفـــا كـــاملا ضـــد المســـتعمر الفرنســـي إثـــر مشـــاهدتي لفـــيلم (جميلـــة بـــوحيرد) للمخـــرج العـــالمي يوســـف شـــاهين الـــذي عـــرض قبيـــل إســـتقلال بلادهـــم عـــن فرنســـا عـــام ١٩٦٢م فمـــا بالـــك بالشـــعب الفلســـطيني الـــذي مـــازال يواجـــه أبنـــاؤه الأبطـــال بصـــدور عاريـــة مســـتعمرا غاشـــما مجرمـــا يمـــارس وحشـــيته الهمجيـــة ضـــدهم دون حيـــاء أو خجـــل او مراعـــاة لضـــميره الإنســـاني الميـــت أصـــلا داخـــل قلـــوبهم المريضـــة المتحجـــرة مـــن قتـــل و تعـــذيب و إعتقـــال تعســـفي و هتـــك للأعـــراض و تكســـير للعظـــام و دهـــس الأجســـاد بـــدباباتهم و مـــدرعاتهم العســـكرية كمـــا فعلـــوا مـــن قبـــل مـــع الجنـــود المصـــريين الـــذين أســـروهم إثـــر إنتصـــارهم المزيـــف فـــي حـــرب ١٩٦٧م و الـــذي كشـــف ســـره للعيـــان عبـــر رئـــيس صـــحيفة الوفـــد المصـــرية فتحي بدوي عام ١٩٩٤م ؟

و لـــم يســـلم الأطفـــال و النســـاء و العجـــائز مـــن شـــرهم المســـتطير أبـــدا ، فلقـــد مارســـوا ضـــدهم نفـــس مـــا مارســـه الألمـــان ضـــد شـــعبهم خـــلال الحقبـــة النازيـــة دون زيـــادة أو نقصـــان وصـــلت إلـــى حـــد ذبحهـــم بالســـكاكين كمـــا

فعلوا مع أسلافهم خلال مذابح دير ياسين و قلقيلية و كفر قاسم عبر عصاباتهم الصهيونية (١٩٤٨-١٩٥٧م) أو رميهم بالرصاص او تفجير منازلهم و هم بداخلها أو دهسا بدباباتهم و مدرعاتهم على الأرض ، و من كتبت لهم النجاة إعتقلوهم و إنتزعوهم من أحضان أهلهم و ذويهم و زجوهم في أقبية و سجون موحشة مظلمة يظلون فيها أبد الدهر رهائن لهم يضمنون من خلالهم ولاء الفلسطينيين لهم و إجبارهم عن التوقف عن الثورة و التمرد ضدهم على الطريقة اليمنية حيث يذيقونهم أبشع وسائل التعذيب الجسدي و النفسي المحرمة دوليا التي يشيب لها الولدان و يندى لها الجبين من تكسير لعظامهم الهشة بالحجارة و الهراوات المعدنية و تجريدهم من ثيابهم و تشويه أعضائهم التناسلية و حرقهم بالأسياخ و الزيت الساخن و السجائر و ماء النار و الصودا الكاوية و إغتصابهم أو إغراقهم في الماء أو إجبارهم على تناول بولهم و غائطهم رغما عنهم او تعذيبهم بالكهرباء أو جلدهم بالسياط الجلدية و المعدنية على ظهورهم و هم عرايا معلقين بسقف الزنزانة بأسلوب مبتكر لديهم يعرف بتعذيب العنكبوت الذي إستخدموه أول مرة ضد اللبنانيين المعتقلين في معسكر أنصار بإحدى ضواحي صيدا قبل إنسحابهم منها عام ١٩٨٥م ..... و غيرها من القصص المرعبة التي تقشعر لها الأبدان المبثوثة عبر وسائل الإعلام العربية و العالمية عن هؤلاء الغزاة الجبناء الذين لم يجرؤوا على

إظهار قوتهم و عجرفتهم و غطرسهم على جزاريهم و سادتهم الاوروبيين و لا سيما الألمان منهم فأظهروها على هذا الشعب الأعزل المسكين دون رحمة أو شفقة و فجرت في داخلي مشاعر الغضب العارم ضدهم و التعاطف الكامل مع الشعب الفلسطيني بقدر إستطاعتي و حسب مفهومي الخاص لما يجري آنذاك مثل غيري من العرب و اليمنيين في أرجاء وطنهم الكبير المتعاطفين معهم لمجرد تعرضهم للإبادة من قبلهم فقط و ليس إيمانا مطلقا بقضيتهم العادلة المتمثلة بتحرير وطنهم كاملا من دنس هؤلاء المستعمرون الصهاينة من البحر إلى النهر ، فلو تعامل المستعمر الإسرائيلي بمنتهى الإحترام و التقدير خلال إيقاف ثورتهم المشروعة ضده لوقفنا جميعا في صفه و أيدناه ضدهم الفلسطينيين قلبا و قالبا لأننا مأخوذين بالمظهر و الكلام و المعاملة الحسنة حتى و لو كانت فخا منصوبا لنا و لا نكترث أبدا للجوهر و خفايا الامور حتى لو كانت تحمل لنا النجاة و الخير من مخالبهم السامة .

المهم أني لم أترك أية شاردة أو واردة تتعلق بالفلسطينيين و قضيتهم النبيلة و صراعهم المرير مع هذا المستعمر البغيض إلا و تناولتها بإهتمام شديد لم يسبق له مثيل ، بدءً من تقليبي صفحات كتبي المدرسية التي كنت أمل سريعا من قراءتها و أجبر نفسي على تصفحها إما سعيا وراء الإمتحانات بكافة أنواعها أو حصص التسميع المعدة

مسبقا و كتب التاريخ و المجلات و الصحف المحلية و العربية بمختلف أنواعها و لاسيما مجلات (ماجد) و (العربي الصغير) و (سعد) و (أحمد) للأطفال حيث إكتشفت من خلالها تاريخ المقاومة الفلسطينية ضدهم و سادتهم من المستعمرين الغربيين منذ عام ١٩١٩م حتى إندلاع إنتفاضة الحجارة و إنتصارات حلفائهم العرب بقيادة مصر في عهد الرئيسين جمال عبدالناصر (١٩٥٤-١٩٧٠م) و خليفته انور السادات (١٩٧٠-١٩٨١م) على إسرائيل خلال العدوان الثلاثي أو أزمة السويس عام ١٩٥٦م و حرب ٦ اكتوبر أو العاشر من رمضان أو يوم الغفران عام ١٩٧٣م و هزيمتهم المرة أمامهم عام ١٩٦٧م على وقع ترديدي كافة الاغاني و الأناشيد الثورية الملحمية المثيرة للحماس و الحمية القومية اللبنانية الأصل بعدما حفظناها عن ظهر قلب من أغنية زهرة المدائن العالقة في ذهني منذ الطفولة لبلبل الشرق الصداح تحت أشعة شمس الصباح فيروز و أغنية منتصب القامة لمارسيل خليفة و أغنية أسطورة الحجر لوديع الصافي حتى أنشودة وين الملايين مرورا بمشاركاتي الفعالة بكافة الندوات و الفعاليات الطلابية التي كانت تقيمها إدارة المدرسة الأهلية و تضم عددا لا باس بها من الطلاب الفلسطينيين المقيمين لدينا لتوعيتنا بأهمية هذه القضية المحورية في ذاكرتنا القومية و الوطنية و الدينية و جمع تبرعاتنا أو بالأصح تبرعات أولياء أمورنا الذين ضاقوا ذرعا من

مصاريفنا المدرسية الباهظة التكاليف و الغير معقولة آنذاك فما بالك بالتبرع لصالح القضية الفلسطينية التي أصلا قد ملوا منها و تكرار أحداثها المؤلمة على أذانهم الصماء و عيونهم الخالية من الدموع و قلوبهم المتحجرة المتبلدة الأحاسيس ؟ و لصالح من ؟ لصالح صندوق إنتفاضة الحجارة التابع لمؤسسة صامد الذراع الإقتصادي لمنظمة التحرير الفلسطينية ؟ و إهتمامي البالغ بالدراما التاريخية و العربية الموظفة لخدمة الإنتفاضة الفلسطينية الأولى و تحتقر مستعمريهم الإسرائيليين اليهود بشكل عنصري حتى النخاع كمسلسلات رأفت الهجان و دموع في عيون وقحة و السقوط في بئر سبع و الإسلام حياة جديدة و أبا بصير و بلاط الشهداء و سيف الدولة الحمداني و أفلام بئر الخيانة و الرصاصة في جيبي و أغنية في الممر و مسرحيات شقائق النعمان و كأسك يا وطن و غربة و رأي رجال الدين المسلمين و لا سيما اليمنيين منهم بكافة أطيافهم السياسية قلبا و المذهبية قالبا رغم إتسامهم بالسطحية و التطرف و الإنغلاق و الرياء و النفاق و إدعاء الوقار و الغلظة و الكمال و الطهارة و فهمهم الشكلي المفتعل للإسلام و نصوصه القرآنية و النبوية كما يحلو لأسيادهم من رجال السلطة و المال و النفوذ و القوى الرجعية حول ما يجري في فلسطين فإكتفوا بإجماع مبتذل عما باحت حناجرهم و جاشت صدورهم خلال خطبهم العصماء في منابر المساجد أم خارجها من إعتبار فلسطين

أرضا خاصة للمسلمين و لا يحق للغير المسلمين الإقامة فيها أو الحج إليها و شيطنة الإسرائيليين أو اليهود و إعتبارهم شعب شيطاني شرير حتى النخاع منذ نشأة الخليقة (رغم علمهم علم اليقين بأنه لا يوجد شيء في الدنيا إسمه شعب خير أو شعب شرير فالشر و الخير موجود في كل واحد منا نحن البشر) و أفتوا فتوى جماعية بإبادتهم إبادة جماعية ارضاء لله و رسوله وخدمة للإسلام و المسلمين كما يزعمون بأسلوب فج يرضي العامة الجاهلة الجهلاء و غرورها الرجعي الأجوف عمدا ، و إنتهاء بمتابعاتي الإخبارية لكافة القمم العربية التي يشارك فيها حكامنا الأشاوس (؟) تحت رعاية جامعة الدول العربية في مقرها الجديد تونس منذ عام ١٩٧٩م بخطبهم العصماء المجلجلة أركان المكان و المثلجة لصدورنا الساذجة آنذاك ظنا منا أنها تعبير صادق و جاد عن إلتزامهم الفعلي و التام بحل هذه القضية المستعصية علينا و أقضت مضاجعنا لأجيال عدة و عقود طوال مضت دون أن أعلم علم اليقين أن كل ما سبق ذكره قبل قليل مجرد زوبعة في فنجان و أن وراء الأكمة ما وراءها من حقائق بشعة تخفي الوجه القبيح لنا كعرب و مسلمين معها و الذي إتضحت ملامحه جليا بعد مرور سبعة أعوام على إندلاعها متابعا بشغف و سرور و إبتهاج خبر تحرير فلسطين أخيرا من الإستعمار الاسرائيلي الذي أذاعه المذيع المخضرم علي صلاح أحمد عبر تلفزيوننا المحلي يليه برنامجا خاصه بهذا الصدد حيث عدته نصرا

مؤزرا لتضحيات الفلسطينيين الجبارة خلال هذه الإنتفاضة العظيمة قبل أن يتبخر كل ذلك السرور البالغ عن حده و يتحول إلى سراب يحسبه الظمأن ماء عند بدأ تلفزيوننا المحلي نقل وقائع توقيع إتفاقية غزة – أريحا بين الفلسطينيين و الإسرائيليين في العاصمة الأمريكية واشنطن على الهواء مباشرة و تحت رعاية فخمة و كرم حاتمي مقدمة من قبل أولاد العم سام لكلا الطرفين لم يسبق لها مثيل !

عبثا حاولت عيناي المذهولتان الإفاقة من صدمة ما رأتهما للتو أو إستيعابه حتى ، قائد الثورة الفلسطينية ياسر عرفات الذي دوخ المستعمر الإسرائيلي داخل فلسطين و خارجها منذ عام ١٩٦٧م حتى وقتنا الحاضر و مؤسس الدولة الفلسطينية عام ١٩٨٨م يعقد سلاما معهم ؟! و يصافح واحدا من جلاديه المجرمين ألا و هو رئيس الوزراء إسحاق رابين الذي أمر جنوده أثناء توليه وزارة الحربية بتكسير و تحطيم عظام أطفال الحجارة دون رحمة أو شفقة و أحد الذين إرتكبوا مجازر دير ياسين و قلقيلية و حيفا ضد أبناء شعبه الأعزل خلال حرب ١٩٤٨م بغية إخراجهم مما تبقى من ترابه وطنه المحتل باللين بدلا من القوة دون حياء أو خجل تطبيقا للمثل الشعبي (اليد الذي ما تقدرش تكسرها حبها) ؟!!

سرعان ما دفعني هول المفاجأة إلى التوقف عما كنت أقوم به من رسومات و خطوط جميلة على إمتداد طاولتي المدرسية القديمة و مباغتة والدتي الواقفة بجواري للحظات قبيل ذهابها إلى ضيفاتها من الجيران داخل ديواننا العام الملاصق لغرفة المعيشة بسؤال حائر ملؤه الغضب و الإستهجان حول ما يجري (ايش هذا الذي بيحصل يمه ؟)

(مثلما بتبسر يا ولدي ، ياسر عرفات وقع إتفاقية سلام مع اليهود الصهاينة)

(إتفاقية سلام مع من ؟! مع هولا المجرمين الذي قتلوا الأطفال و النسوان و حرقوا بلاده بدم بارد ؟ يجي يتصالح معهم هكذا عادي ؟!)

(حقه يا ولدي ، الرجال ما قدرش يخرجهم لا بالقوة و لا بالسلاح و لا بالحجار من أرضه ، خليه يجرب يخرجهم بالسلام حقهم)

(من غير إذن الفلسطينيين و العرب و المسلمين و أمة لا اله الا الله الواقفين جنبه من زمان لا ذلحين ؟)

(على أساس إن هولا عملوا له حاجة أو وقفوا جنبه من صدق ؟ انا وخر لك)

لم أقتنع بكلام والدتي أو اكترث به لقناعتي أنها مثل غيرها من أفراد عائلتي العريقة عائلة غافر يهتمون بقضية سلالتهم الهاشمية و لا سيما

المنتمين للطائفتين الزيدية و الشيعية أكثر من إهتمامهم من القضية الفلسطينية بإعتبارها شغلهم الشاغل و قضيتهم المحورية التي لا يحيدون عنها قيد أنملة جيلا بعد جيل ، سيما و أنهم يؤمنون بأن مأساة الهاشميين التاريخية من وجهة نظرهم أهم من نكبة الشعب الفلسطيني المشتت في أرجاء المعمورة منذ عام ١٩٤٨م الذين لا يكترثون بمعاناته و الظلم و الجور الذي لحق بهم جراء الإستعمار الاسرائيلي الغاشم لبلادهم أو يبالون بهم لا من قريب أو بعيد رغم تعاطفهم الشكلي معهم ذرا للرماد في العيون فحسب ، و لعل تعاطفهم المريب مع قمع الملك الأردني الحسين بن طلال للفلسطينيين خلال مجازر حرب أيلول الاسود داخل الأردن بتواطؤ عربي و دولي عام ١٩٧٠م و تبرير تحالفه مع إسرائيل ضدهم لمجرد أنه هاشمي مثلهم لبرهان ساطع على صحة ما أرمي إليه رغم أن أبو عمار[٦٤] هو نفسه هاشمي الحسب و النسب مثلهم حيث ينتمي إلى عائلة الحسيني المقدسية العريقة و إسمه الحقيقي محمد عبدالله القدوة الحسيني .

و مع ذلك فقد جانب رد والدتي العجيب على سؤالي السالف الذكر بعض الصواب و لا سيما فيما يتعلق بدعم العرب و المسلمين الغائب عن الساحة للفلسطينيين و قضيتهم العادلة حتى النخاع رغم أنف الحاقدين و المشككين بعدالتها البريئة (؟)

[٦٤] الإسم الحركي للزعيم الفلسطيني ياسر عرفات (المؤلف) .

شرد ذهني قليلا بعدما آفاق من صدمته المباغتة لتوه و غاص في ذاكرة تاريخ هذه القضية المثخنة بالجراح دون توقف و تحديدا إلى عام إندلاع الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين بن علي ضد الإستعمار التركي بمساعدة الجيش البريطاني الذي إحتل فلسطين بقيادة اللنبي إنطلاقا من قواعده العسكرية في مصر عام ١٩١٦م وصولا إلى متاهات عصرنا الراهن سنجد بما لا يدع مجالا للشك بأنهم جميعا بلا إستثناء قد تامروا على هذا البلد المقدس لأديانهم السماوية الثلاث الإسلام و المسيحية و اليهودية و المحفور في وجدانهم و حدقات عيونهم و سويداء قلوبهم جيلا إثر جيل تآمر أولاد يعقوب عليه السلام الكبار على أخيهم الصغير يوسف عليه السلام دون حياء أو خجل إما حقدا عليها أو إنشغالهم بقضايا داخلية و خارجية تفوقها أهمية حسب إعتقادهم المزعوم أو عدم رغبتهم الملحة في تحريرها من الإستعمار الاسرائيلي إلى الأبد مفضلين بقائه جاثما على صدر أبنائها حتى قيام الساعة لغايات دنيئة في نفس يعقوب ، فضلا عن أن الإسرائيليين دون علمهم حموا وطنهم فلسطين الممتدة حدودها من البحر إلى النهر من مؤامرات الجيران المدبرة بليل منذ الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا بدءا من السوريين الساعين منذ إستقلالهم عن فرنسا عام ١٩٤٦م إلى ضمها لحظيرة بلادهم المترامية الأطراف تحقيقا لمشروعهم التاريخي سوريا الكبرى مرورا باللبنانيين الذين

يريدون إقتطاع شمال الجليل الأعلى و ضمها إلى أراضيهم المتناهية الصغر قبل أن يخسروا أنفسهم في حرب طاحنة أهلكت الحرث و النسل (١٩٧٥-١٩٩٠م) فالأردنيون الذين يسعون إلى ضم الضفة الغربية و بالتحديد القدس إليهم رغم أنهم يعترفون بقرارة أنفسهم بأنهم فلسطينيون حتى النخاع و بلادهم مثل إسرائيل جزء لا يتجزأ من التراب الفلسطيني إلا أنهم لا يريدون أن تتحرر هذه البلاد إلى الأبد خوفا من أن يؤدي تحريرها الى محو بلادهم من الخارطة و إزالة ما تبقى من الوجود السياسي للأسرة الهاشمية الحاكمة هناك بعدما قادوا العرب عبر ثورتهم العربية الكبرى إلى هاوية التشرذم و الفرقة و سلموا فلسطين لحلفائهم البريطانيين على طبق من ذهب كي يقيموا الوطن القومي لليهود على أرضها الطاهرة بموجب وعد بلفور المشئوم عام ١٩١٧م ثم خسروا وطنهم الحجاز لصالح خصومهم السعوديين عام ١٩٢٤م و سوريا لصالح المستعمر الفرنسي عام ١٩٢٠م و العراق لصالح النظام الجمهوري عام ١٩٥٨م ، و إنتهاء بالمصريين أحفاد الفراعنة و أبناء أرض الكنانة الذين سعوا منذ عام ١٨٧٠م إلى ضم جنوبها الصحراوي الممتد من سواحل البحر المتوسط حتى خليج العقبة و البحر الأحمر أو ما تسميه زعما بأم الرشراش إلى ترابها الوطني ، و السعوديون أصحاب الحرمين الشريفين المقدسين لدى مليار مسلم يفضلون بقاء فلسطين و عاصمتها القدس تحت نير المستعمر

الإسرائيلي حتى لا تسحب بساط الأماكن المقدسة للمسلمين من تحت قدميها ، حتى العراقيين الذين علقوا أمانيهم و أمالهم عليه للثأر من عدوهم الإسرائيلي عبر هجماته الموجعة له خلال حروب ١٩٦٧م و ١٩٧٣م و ١٩٨٢م و حرب الخليج الثانية فكان يستغلونهم و يتاجروا بقضيتهم ليل نهار مثل بقية الشعوب العربية و على رأسهم شعبنا اليمني الذين ظل ينافقون و يزايدون بغاية القرف و الإستغلال البشع في تعاطفهم السمج مع الفلسطينيين و قضيتهم العادلة بغية الإستهلاك المحلي لا اقل و لا اكثر ، و ما زاد الطين بلة أن إخوانهم المسلمين الغير ناطقين بلغة الضاد لم يشذوا عن قاعدة التملق و النفاق و المزايدة بإسمهم دون زيادة أو نقصان سيما و أنها لا تقع ضمن دائرة إهتماماتهم الحيوية و لا في صلب أولوياتهم السياسية القومية ، فالأتراك الذين حكموا بلادهم خلال الحقبة العثمانية سواء كانوا عثمانيون متدينون أم جمهوريون علمانيون لا يهتمون سوى بالذود عن قوميتهم التركية داخل بلادهم و خارجها و حماية الجمهورية التركية و إستعادة ممتلكات الامبراطورية العثمانية السابقة و مواجهة عدوهم اللدود اليونان ، و الإيرانيون في عصر حكم التاج العلماني ام حكم العمامة الجمهوري لا يشغل تفكيرهم سوى الدفاع عن قوميتهم الفارسية داخل بلادهم و خارجها و حماية جمهورية إيران الخمينية و إستعادة ممتلكات الإمبراطورية الصفوية السابقة و مواجهة عدوها اللدود العراق

، و الباكستانيون مشغولون بقضية كشمير و السيطرة على أفغانستان و مواجهة عدوهم التقليدي الهند ، اما أبناء أكبر بلد سكانا في العالم الاسلامي الأندونيسيون منشغلون حتى أذانهم بقضية مندناو في الفليبين و مواجهة خصمهم اللدود استراليا ..... و غيرها من الأشياء و الأمور الغريبة التي لاحظها الفلسطينيون لدى من يظنون أنهم أخوتهم في الدين و العقيدة و اللسان شكلا أعدائهم حتى النخاع مضمونا عمدا أم سهوا حيث كلا منهم يغني على ليلاه تاركا ليلى[٦٥] الحقيقية حبيسة أغلال الإسرائيليين و سجونهم البشعة غير مبالين بما يجري لها ، و الأدهى و الأمر أنهم إتحدوا في التحالف مع عدوهم الصهيوني الغاصب سرا و علانية و إقامة علاقات دبلوماسية وطيدة معه فوق الطاولة و تحتها و في إضطهاد و قمع أبنائها المشردين بسببهم منذ عام ١٩٤٨م في أرجاء المعمورة دون حياء أو خجل و بلا رحمة أو شفقة فاق ما إرتكبه الإسرائيليون بهم من فظائع دموية وصلت إلى حد إرتكاب مذابح إبادة جماعية يندى لها الجبين ضدهم بإسم العروبة و الإسلام و آل البيت و الحسن و الحسين و المسيح عليه السلام و مريم عليها السلام و أهل السنة و الشيعة و الزيدية و الإباضية و الشيوعية و الحرية و الديمقراطية و الإستقلال و مقاومة التطبيع مع إسرائيل كمذابح أيلول الأسود في الأردن عام ١٩٧٠م و تل الزعتر و

[٦٥] الإسم المستعار للقضية الفلسطينية لدى المثقفين القوميين العرب (المؤلف) .

صبرا و شاتيلا في لبنان عامي ١٩٧٦م و ١٩٨٢م و السالمية في الكويت على يد رجال الأمن المحليين عام ١٩٩١م ردا على وقوفهم بجانب العراق ضدهم حسب زعمهم كما نشرته صحيفة شيحان الأردنية التي كانت إحدى أبواق الدعاية الإعلامية الواسعة النطاق للعراق خلال حرب الخليج الثانية و ترضي غروري و غرور غيري من اليمنيين المؤيدين للطرف العراقي بكلامها المضلل المعسول رغم أنها عادة ما توصف بأنها صحيفة متخصصة في نشر الجرائم و الفضائح الأخلاقية ضمن إطارها المحلي .

لا داعي للحديث عن أمريكا و اوروبا و القوى العظمى الأخرى المنتصرة في الحرب العالمية الثانية لأن تأييدهم المطلق للإسرائيليين واضح وضوح الشمس الساطعة في كبد السماء منذ الوهلة ليس حبا فيهم أو تعاطفا مع مآسيهم المزعومة و ما تعرضوا له من مذابح و مجازر على النازيين الالمان أو خوفا من قوتهم الخرافية الغير موجودة أساسا رغم أنها من صنع إعلامهم الغربي المنحاز عمدا لهم بل لأنهم لعبة بأيديهم يحركونهم كما يحلوا لهم وفق مصالحهم الخاصة دون أي إعتراض منهم حتى و لو أدت إلى قذف شعب بأسره من وطنه إلى عرض البحر أو قارعة الطريق أو في جوف الصحراء القاحلة و إستبداله بشعب آخر و إنكار وجوده و حقوقه العادلة حتى يومنا هذا بمنتهى البساطة و الإشمئزاز ، إذا كان القران الكريم و الحديث النبوي بين

سطورهما لا يعترفان بوجود الشعب الفلسطيني و لا ببلد أسمها فلسطين و عاصمتها القدس المباركة لا من بعيد أو من قريب حيث لم يذكرا صراحة سوى الشعب الاسرائيلي و إسرائيل و عاصمتها القدس فما بالك بالمسيحيين و اليهود و كتبهم المقدسة التوراة و الزبور و الإنجيل ؟! إذا كان والدي و غيره من اليمنيين الجهلة يعتبر إعادة اليهود الإسرائيليين إلى فلسطين على طبق من ذهب معجزة إلهية من الله عز و جل فلماذا سبحانه و تعالى مازال يؤيد الإسرائيليين و اليهود الصهاينة الأشرار ضد أتباعه المسلمين المخلصين الأخيار الذين أعتبرهم شعبه المختار الذي يستحق رعايته المطلقة و دعمه الكامل و دينهم هو الصواب بعينه و غيرهم من الأديان هم على خطأ و جعل فلسطين ملكية ربانية خاصة بهم إلى أبد الأبدين يسلمها في نهاية المطاف ظلما و عدوانا لعباده المغضوب عليهم من القردة الخنازير[٦٦] ؟ و إذا كان الفلسطينيون عاجزين حتى الآن عن تحرير بلادهم من دنس هذا المستعمر الغاصب من البحر إلى النهر ضائعون في صراعاتهم السياسية التافهة التي مزقت وحدتهم الوطنية شر ممزق بعدما سلموا أمر تحريرها لغيرهم من العرب و المسلمين منذ عام ١٩٣٦م و يضحوا أدوات بيدهم يحركونهم كما يحلوا لهم وفقا لمصالحهم الخاصة ضد بعضهم البعض فعلام يلومونهم أشد اللوم ؟

[٦٦] لقب عربي إسلامي يطلق على أتباع الديانة اليهودية (المؤلف) .

..... و غيرها من الأفكار و الأسئلة المضطربة إضطراب العواصف و الأعاصير الزاحفة نحو الإجهاز على فرائسها من البشر الغافلين الساكنين في ديارهم الهشة التي كاد عقلي الحائر أن ينفجر من جحيمها المستعر قبل أن أنزع فتيلها في اللحظة المناسبة و أدير دفته الهلامية نحو شاشة التلفاز لمتابعة هذا الحدث الفريد من نوعه و الذي أنقذ الفلسطينيين برأيي المتواضع من الغرق في لجة أوهام مثالية كادت أن تدمر عقولهم وسط متاهات السياسة و تمرغ أنوفهم الموبوءة بزكامها العفن في أوحالها القذرة و جعلتهم لا يطالون بلح الشام و لا عنب اليمن بعد مضي عقود ملتهبة قاتلوا خلالها أعدائهم الإسرائيليين خارج أرضهم دون جدوى و دون أن يستوعبوا جيدا قضيتهم و إن إستوعبوها فلن يحققوا ما يصبون إليه طالما ظل العالم بأسره مسلمين و غير مسلمين و خالقهم الله عز و جل من فوق سبع سماوات طباقا يقفون في صف عدوهم الصهيوني الإسرائيلي قلبا و قالبا في السر و العلن ضدهم دون حياء أو خجل لغاية في نفس يعقوب ، لقد آن الأوان للعصفور أن يطرد النسر الجارح من عشه الصغير بمفرده و دون معونة من أحد و أن يحاربوا هؤلاء المستعمرين الجبناء وجها لوجه داخل أرضهم و دون مساعدة أو وصاية من أحد متعاطف معهم حتى و لو كان بضوء أخضر من الأخير و حلفائه عن طريق إتفاقية سلام هش لا ترضي جميع أطرافها الموقعين عليها ، فعصفور في اليد خير من

عشرة على الشجرة و رب ضارة نافعة قد تؤدي إلى تحرير بلادهم من دنس إلى الأبد و لو بعد مائة عام أو كما حدث مع إخوانهم الجزائريين الذين تنفسوا الصعداء بعد رحيل المستعمرين الفرنسيين عن أرضهم بعدما جثموا على صدورهم طيلة ١٣٢عام ، من يدري ؟

الدهليز الثاني عشر

النظام الجمهوري

ضاق شقيقي صلاح ذرعا من تحمسي المفرط للنظام الجمهوري و البلدان المتبنية له و تهليلي الدائم عند ذكر لفظ الجمهورية أو جمهورية ضمن نطاق الإسم الرسمي لأي بلد يذكر خلال نشرة الأخبار الرسمية الرتيبة الناطقة بالعربية أو أثناء مطالعاتي الخاطفة بلمح البصر لما بين السطور في المجلات العربية و المحلية على حد سواء دون حياء أو خجل من أحد بشكل يثير إستغرابه و إستغراب والداي و أخواتي و لا سيما أخي الكبير صالح (ما لك بتصيح هكذا يا مازن ؟! أو قال مذيع النشرة حاجة تفرح ؟!!الرجال بيتحاكى عن القتل و الحرب في رواندا)

(أنا عارف)

(و ما دام أنت عارف إنه خبر شمات ، ليش أنت فرح ؟!!!)

(ما بلا يا أخي صالح المذيع ذكر إسم جمهورية رواندا فرحت ، و أنت عارف أني أحب البلدان المحكومة بالنظام الجمهوري)

(و اذا هو بلد جمهوري ؟ إبسر كيف حالته ؟ حرب و قتل و دمار و خراب بين التوتسي و الهوتو عندهم ، يعني لو جلست على هذه الحالة عتنتهي في يوم من الأيام)

(و من قال لك يا صالح أنها عتنتهي ؟ طول ما هي ماسكة بالنظام الجمهوري ما عتنتهيش ، إبسر لبنان هي جمهورية مثلها مثل رواندا طحنتهم الحرب الأهلية طحن ١٥ سنة ، و مع ذلك ما انتهوش و رجعوا أحسن من أول ، تعرف ليش ؟)

(ليش يا أبو العريف ؟)

(لانهم تمسكوا بنظامهم الجمهوري)

(يا أخي فلجتني بالنظام الجمهوري الذي جالس تمتدحه ليل نهار لما دوشتنا به ، الذي بيسرك هكذا يتخايل إن النظام الجمهوري حقك هذا أفضل نظام حكم في العالم و إحنا مش داريين)

(أيوه أفضل نظام حكم في العالم ، عندك مانع ؟)

على الرغم من عدم إقتناع صالح بردي العنيف على سؤاله الإستهزائي إلا أنه قبل بما جاش به صدر من مشاعر صريحة في هذا الموضوع على مضض بعدما أدرك لاحقا من عدم جدوى مناقشتي في أمر كهذا أضحى ضمن قناعاتي الشخصية التي لا تتزحزح عن ذهني قيد أنملة أو

أحيد عنها في يوم من الأيام رغم إستغرابي الشديد من غرقي المفاجئ في قعر أمواجها المتلاطمة لحين من الدهر بهذه السرعة الخاطفة ، سيما و أني طوال عمري لم أكن أكترث البتة بمثل هذه الأمور السياسية الشائكة المعقدة التي لا تشغل تفكيري الصبياني البسيط من قبل ، لكن إهتمامي بعلم التاريخ و المواد الإجتماعية منذ الصف الخامس الإبتدائي فتح أمامي الأبواب المغلقة حول هذا النظام الفريد من نوعه عن كثب خلال تحصيلي العلمي بعدما بدأت أطلع شيئا فشيئا على جذوره التاريخية التي تعود إلى الحضارات اليونانية و الرومانية و اليمنية في العصور القديمة و لا سيما إثر قيام جمهورية أثينا اليونانية في القرن الثامن قبل الميلاد التي أرست قواعد الديمقراطية الحديثة المعروفة حاليا في العالم المعتمدة أساسا على سلطة الشعب و من أبرزها النظام الجمهوري الذي أدركت من خلال تعمقي الحريص لمبادئه و قواعده الأساسية أنه من أفضل الأنظمة السياسية الحاكمة في أرجاء المعمورة قوامها المساواة و العدالة و الحرية لكافة المواطنين بمختلف مشاربهم ذكورا و إناثا في إكتساب حقوقهم و واجباتهم القانونية و الدستورية و تحديدا إختيارهم للحاكم الذي يحكمهم عن طريق الإنتخاب المباشر أو الغير مباشر بغض النظر عن إنتمائه الإجتماعي أو السياسي شريطة إخلاصه لهم و لبلدهم و دولتهم و إلتزامه بدستور بلادهم المتفق عليه شعبيا و تشريعيا لا يحيد عن مواده

و بنوده قيد أنملة خلال فترة حكمه المحددة بموجب الدستور أيضا ، فضلا عن موقف الإسلام الإيجابي منه و الداعي إلى تبنيه بدلا من الأنظمة الوراثية التي ما أنزل الله بها من سلطان حسب تعبير فقهائه الأوائل و هذا ما دفع الحسين رضي الله عنه إلى الثورة و التمرد ضد الخليفة المحمدي معاوية بن أبي سفيان في العراق بسبب سعيه الدؤوب إقرار نظام الحكم الملكي الوراثي بدلا من نظيره الجمهوري الإنتخابي الشوروي عبر تعيين ولده يزيد خليفة خلفا له عام ٦٨٦م ، و ما زاد إصراري العجيب و الفريد من نوعه على النظام الجمهوري هو تبني بلادي له منذ إندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م و دفاع أهلها المستميت عنه خلال الحرب الأهلية الأولى (١٩٦٢-١٩٧٠م) حيث سطروا أروع ملاحمهم البطولية من أجله ضد الملكيين خلال حصار السبعين يوما (١٩٦٧-١٩٦٨م) رافعين بصوت عال شعار الجمهورية أو الموت رغم عدم إلتزامهم الحرفي بمبادئه الأساسية و جهلهم الشديد بطبيعته السياسية إلا أنه حقق ما كانوا يصبون من وراء تبنيهم له بأن أوصل السكان الأصليين لليمن القحطانيين و الفئات المحتقرة إجتماعيا للسلطة لأول مرة في تاريخهم بعد عشر قرون و نيف ظلوا خلالها يرزحون تحت وطأة نظام إمامي كهنوتي و عنصرية طبقية مقدسة ظالمة لأناس قدموا من خارج وطنهم يدعون أنهم انصاف آلهة و ينتمون للسلالة الهاشمية النبوية المقدسة و يكفرون من يثور أو

يتمرد عليهم و يعتبرونه حسب زعمهم الإلهي عدوا الله و رسوله (ص) و هذا ما أثار غضب أفراد عائلتي العزيزة من النظام الجمهوري و حنقها الشديد عليه ليس لمجرد أنهم يعشقون النظام الملكي أو الأنظمة الوراثية الأخرى بل لأنه تسبب في إنتزاع السلطة من أيديهم إلى الأبد ، فضلا عن وقوفهم المستفز إلى جانب البلدان المحكومة من قبل الهاشميين و لا سيما الشيعة و الزيدية منهم حتى و لو كانت بلدانا جمهورية ، و إلا كيف تفسر تعصبهم العاشق إلى حد الغلو و الوله لنظام حافظ الأسد في سوريا و النظام الخميني في إيران و الذي كنت للأسف أحد انصاره المدافعين عنه آنذاك ؟ أو حقدهم على النظام الملكي في السعودية و تأييدهم المطلق لنظيريه في الأردن و المغرب ؟

إلا أن تعصبي الشديد للنظام الجمهوري و إيماني الراسخ بأفضليته المطلقة على جميع أقرانه من النظم الأخرى أغفل عمدا وجود بلدان محكومة من قبل الملوك أو الأمراء أو السلاطين قدمت نماذج ناجحة لأسلوب الحكم الديمقراطي و دولة المؤسسات و إدارتها السليمة و الحصيفة للموارد الطبيعية و البشرية فاق نظيراتها الجمهورية بكثير و لا سيما بعد إطلاعي الحثيث على الأوضاع السياسية للعديد من الجمهوريات الفاشلة في حياتها العملية و على رأسهم مسقط رأسي الجمهورية اليمنية وفقا للقول المأثور للعالم و الطبيب المصري و أول رئيس تحرير لمجلة العربي الكويتية لحظة إنشائها عام ١٩٥٨م حتى

وافاه الأجل عام ١٩٧٦م د/ أحمد زكي الذي لم يرقني سماعه أو الإقتناع به آنذاك (الحكم العادل لا يتمثل في النظام الجمهوري أو الملكي بل يتمثل في حكام عادلين يرضون الله و يخافونه و يرضون الناس و لا يخافونهم) ، بل أني إعتبرتهن بقعا سوداء في ثوب أبيض منقى تماما من الدنس نادرة العدد لا تستحق الذكر و النادر لا حكم له وفقا للقاعدة الفقهية العربية المبتذلة لدينا نحن المسلمين ، فضلا عن وجود أدلة و حقائق دامغة تؤيد قناعاتي بهذا الصدد تتمثل بغلبة البلدان الجمهورية على نظيراتها الملكية الوراثية كما و نوعا حيث يشكلون ٩٥% من بلدان المعمورة إجمع ، إضافة إلى أن أقوى دولتين في العالم و زعيمتا المعسكرين الغربي و الشرقي خلال الحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩٢م) روسيا و أمريكا هما من البلدان الجمهورية قلبا و قالبا ، كما لا ننسى أيضا أن النظام الجمهوري رسخ مبدأ تولي السكان الأصليين للبلاد زمام الأمور و مقاليد السلطة بدلا من حكامها الأجانب الذين فرضوا وجودهم قسرا عليهم تحت مبررات سياسية و دينية مزعومة كما حدث في العراق و اليمن و ليبيا و تونس و مصر و إيران و تركيا و الحبل على الجرار، علاوة على إتخاذي مواقف و قناعات مخجلة و صادمة و مؤيدة لبلدان لا أعترف بها و لا بأنظمتها القمعية الوحشية لمجرد أنها فقط تتبنى النظام الجمهوري شكلا لا مضمونا ذرا للرماد في العيون لا أقل و لا أكثر مثل إسرائيل الصهيونية و إيران

الخمينية و الصين الشيوعية و العراق المحكوم من قبل صدام حسين و سوريا المحكومة من قبل حافظ الأسد و ليبيا المحكومة من قبل معمر القذافي و تونس المحكومة من قبل زين العابدين بن علي و اليمن المحكوم من قبل عمنا .... و هلم جرا .

و ما زاد الطين بلة إبتكاري معايير و قواعد عنصرية مزدوجة ما أنزل الله بها من سلطان وفقا لقناعاتي الساذجة دون أن أعلم كيف و متى هبط إلهامي الواسع و خيالي الخصب بهن على مطار عقلي الهلامي هل في ساعة صفا أم لا لتصنيف البلدان الجمهورية كما يحلو لي تمثلت بتفضيل البلدان الجمهورية المستعمرة سابقا من قبل بلدان جمهورية مثلها على نظيراتها المستعمرة من قبل بلدان ملكية كإعجابي الشديد بالجزائر و سوريا و لبنان المستعمرة من قبل فرنسا و اليمن الشمالي المستعمر من قبل تركيا و كرهي الحاد لمصر و العراق و اليمن الجنوبي و فلسطين المستعمرة من قبل بريطانيا ، علاوة على تفضيلي المطلق للإستعمار الجمهوري و كرهي الشديد لنظيره الملكي حيث كنت أشيد بالإستعمار الفرنسي و الإيطالي و التركي و البرتغالي و الالماني و الروسي و الأمريكي و اليوناني و الإسرائيلي و الإيراني و الباكستاني و الهندي و الصيني و الأفغاني لكني بالمقابل أصريت حتى هذه اللحظة على موقفي الحاقد على الإستعمار البريطاني و الهولندي و البلجيكي و اليباني و الدنماركي و السويدي و الإسباني ، بل وصل

بي الأمر إلى فرض معايير عنصرية أخرى من وجهة نظري للتفريق بين عناصر فريق الإستعمار الجمهوري بحيث جعلت الإستعمار الجمهوري الذي جل مستعمراته من البلدان الجمهورية كالإستعمار الايطالي و البرتغالي و الإثيوبي و الصيني و الروسي و اليوناني و الإسرائيلي تتربع القمة و ما عداهن في الدرك الأسفل منه ، فضلا عن تفضيلي المتحيز لقارة غورانيا أو ما تعرف بأمريكا اللاتينية على بقية العالم لأن جل أقطارها من المكسيك شمالا حتى الأرجنتين جنوبا من البلدان الجمهورية حتى النخاع ! إلى جانب ذلك إصراري القسري الجاهل لمعطيات الظروف على إعتبار كندا و إستراليا و نيوزيلندا و من يدور في فلكهن من دول الكومنولث البريطاني[٦٧] بلدان جمهورية رغما عنهن بالرغم من أنهن أيالات مستقلة أي أنهن مازلن يتم تعيين رؤساء دولهن من قبل ملكة أو ملك البلد الذي إستعمرهن ردحا من الزمن ألا و هي بريطانيا العظمى ..... و غيرها من الأمور و القواعد و المعايير الغريبة التي فاضت بها قريحتي و نسجتها مخيلتي الواسعة عن نظامي المفضل لدي غير آبه لمعارضيه و المشككين بقدراته الخلاقة في نقل الشعوب المتشبثة به من الثرى إلى الثريا رغم الحروب و الأزمات الخانقة التي لا تزال تلاحقها حتى عصرنا الراهن على كافة الأصعدة حتى بعد مطالعتي لإحدى مسرحيات الشاعر و الصحفي الساخر (مؤلف مسرحية

[٦٧] هي تجمع دولي يمثل البلدان التي نالت إستقلالها من بريطانيا التي ترأسها منذ تأسيسها عام ١٨٦٩م و تعني تجمع الثروة المشتركة باللغة الإنجليزية (المؤلف) .

(القلاصات) الشهيرة التي عرضت منذ العام ١٩٩٠م بمشاركة كبار الفنانين المحليين الذائعي الصيت على الساحة الدرامية في بلادنا كمحمود خليل و عبدالكريم المتوكل و نبيل حزام و عبدالله البوني) عبدالكريم الرازحي و المنشورة في صحيفة الشورى المعارضة المحسوبة على إتحاد القوى الشعبية و هي تنتقد النظام الجمهوري في بلادنا معتبرا اياه و حسب تعبيره نسخة مشوهة طبق الاصل من النظام الامامي الملكي البائد ارضاء لغرور مالكي الصحيفة الذين يمثلون الجناح الهاشمي لفرع الاخوان المسلمين عندنا و المعروفين بدورهم المريب و المعادي لثورة ٢٦ سبتمبر خلال الحرب الأهلية في الستينات عبر مشروعهم الرامي لإسقاط النظام الجمهوري في اليمن الشمالي و تحويلها إلى دولة اسلامية لا جمهورية و لا ملكية وفقا لدستور ثورة ١٩٤٨م[٦٨] من خلال السعودية و مؤتمرات حرض و خمر و عمران الشعبية التي كانت جميعها كلمة حق يراد بها باطل هدفها القضاء على الجمهورية و الوجود العسكري المصري لصالح السعودية و عملائها من أنصار النظام الإمامي و القبائل الجمهورية الموالية لها من تحت الطاولة ، لكن هذا لم يمنع انني في تعصبي المطلق للنظام الجمهوري مثل غيري من اليمنيين و العرب الذين لا يقرأون ، و إذا

[٦٨] هي ثورة ١٩٤٨م الدستورية أو الإنقلاب الدستوري الذي قادته حركة الإخوان المسلمين فرع اليمن ضد النظام الإمامي بقيادة قائد الجيش النظامي عبدالله بن أحمد الوزير و التي أدت إلى إغتيال الإمام يحيى حميد الدين (١٩١٨-١٩٤٨م) و إحلال عبدالله الوزير إماما شرعيا محله قبل أن ينجح الإمام أحمد حميد الدين(١٩٤٨-١٩٦٢م) في القضاء عليها بعد ثلاث أشهر من قيام حكومتها الدستورية و إقرار ميثاقها المقدس أو أول دستور في اليمن الشمالي منذ تحرره من الإستعمار التركي عام ١٩١٨م من نفس العام و إعدام قادتها بوحشية دموية لا توصف (المؤلف) .

قـــرأوا لا يســـتوعبون أو يفهمـــون و ينظـــرون إلـــى النصـــف الممتلـــئ مـــن الكـــأس دون الفـــارغ حيـــث إنحصـــرت حميتـــي الطاغيـــة لصـــالحه و دفـــاعي المســـتميت عنـــه حـــول شـــكلياته المزيفـــة عوضـــا عـــن جـــوهره الأصـــيل و المتمحـــورة حـــول إنتخـــاب رئـــيس الدولـــة لفتـــرة رئاســـية محـــددة مـــن قبـــل الشـــعب أو البرلمـــان و حريـــة الـــرأي فـــي التعبيـــر عـــن قضـــايا الدولـــة و المجتمـــع الداخليـــة و الخارجيـــة بـــلا حـــدود أو ضـــوابط متناســـيا أن الشـــعوب هـــي وحـــدها مـــن تقـــرر بمـــلء إرادتهـــا إختيـــار أنظمتهـــا الحاكمـــة المناســـبة لعقلياتهـــا ثقافاتهـــا السياســـية الموروثـــة جـــيلا إثـــر جيـــل ســـواء المتخلفـــة منهـــا أم المتطـــورة بغـــض النظـــر عـــن إيجابياتهـــا و ســـلبياتها لخدمـــة مصـــالحها الحيوية و الأساسية على مر العصور .

الدهليز الثالث عشر

صور من بلادي

بدأ يتسلل النعاس الشديد مصحوبا بكم هائل من التثاؤب الكثيف إلى وجهي الحنطي إثر مرور نصف ساعة على متابعتي الروتينية المملة لبرنامج (صور من بلادي) منذ صغري الذي يذاع من تلفزيون صنعاء قبيل نشرة أخبار التاسعة مساء كل خميس و لا سيما أني سئمت من أسلوب مذيعه المخضرم محسن الجبري التي لا تطيقه عائلتي لأسباب طائفية و سلالية و سياسية لا علاقة له بشرف المهنة في تقديم برنامجه العريق منذ عام ١٩٧٧م بصوته الأجش الجهوري للغاية الشبيهة بصوت مضخة مياه زراعية و تذكرني بصوت الفنان السوري شاكر بريخان أثناء تأديته دور ضابط المخابرات الذي يحقق مع غوار الطوشي أو زميله دريد لحام في المسرحية الذائعة الصيت عربيا و سوريا (كاسك يا وطن) ، ناهيك أن عائلتي الموقرة لم تكن تطيقه البتة بغض النظر عن كونه مذيعا بارعا أم لا بسبب مواقفه المعادية للنظام الإمامي البائد و السلالة الهاشمية كما يزعمون .

و مع ذلك ، فلقد أنعش برنامجه المثير للضجر ذاكرتي السمكية حيال بلادي التي لم أكن أعرف عن إسمها الحقيقي آنذاك و لا محافظاتها السبعة عشر قبل الوحدة و بعدها سوى النذر اليسير حيث مازلت حتى

وقتنا الحاضر حبيس عاصمتها المنكوبة صنعاء و أسوارها الخانقة العفنة دون مجرد التفكير بالخروج من قوقعتها الحالكة السواد إلى آفاق أرحب منها ، و حالما قررت البدء بذلك لم أتجاوز حدود ضواحيها النائية و الأرياف المجاورة لها و إكتفيت بمشاهدة ما عداهن على شاشة التلفاز و صفحات المجلات و الصحف المحلية المتواضعة القوام و الأساس الشاحبة اللون و الإحساس من الألف إلى الياء .

لم أكن أدرك مليا حينها أنني أعيش وسط بلاد مترامية الأطراف حوت في جعبتها الجغرافية كافة التضاريس المتنوعة التي لم تخطر على بالك (ما عدا الأنهار و البحيرات العذبة و الثلوج الناصعة البياض طبعا) من سهول و جبال و وديان خضراء و جرداء و صحاري و قفار حجرية و رملية إلا عندما قمت برحلتي الأولى بعد بلوغي الخامسة من عمري مع والداي و أشقائي إلى بني حشيش بمحافظة صنعاء منذ الصباح الباكر خلال صيف عام ١٩٨٥م في واحدة من نزهاتنا العائلية المعتادة كل يوم جمعة عبر سيارتنا الكرسيدا اليابانية الطراز بلونها الأبيض الباهت حيث كنت و شقيقي الأصغر نعمان نقبع معا في مؤخرتها طبقا للتقسيم الطبقي لأسرتنا الفاضلة داخل هيكلها الحديدي الصغير و غيره من السيارات الاخرى المملوكة لواضعه والدي العزيز خلال نزهاتنا العائلية داخل العاصمة و خارجها حيث بمقتضاه يضعه و أمي في الكراسي

الأمامية و أشقائي الكبار على التوالي رباب و صالح و مرشد في الكراسي الوسطى و نحن في الكراسي الخلفية مع الأمتعة و الإطارات الإحتياطية حاملين معنا ألعابنا و غداءنا و لحاف شبه خشن نفترشه بالقرب من إحدى الأشجار الكثيفة الأغصان الذابلة الأوراق نتفيئ تحت ظلالها الوارفة من أشعة الشمس الحارقة أو المطر الغزير النادر حدوثه هنا على سبيل الإحتياط في منطقة تفاجأت من الوهلة الأولى بأنها أرض يباب واسعة النطاق تحيط بها من بعيد ثلة من مزارع العنب الأسود او ما يعرف بالعنب الرازقي[٦٩] المتناثرة التي لم يحن قطافها بعد خالية تماما من أبسط خدمات الضيافة السياحية للزائرين المحليين و الأجانب على حد سواء دون أن يمنع أهلها القرويين من إبداء كرم ضيافتهم المجانية المعتادة المجاني نحوهم .

إلا أن ما أراحني خلال هذه النزهة الوضع الأمني المستتب آنذاك ، ليس في بني حشيش فحسب بل في كافة أرجاء الجمهورية و لا سيما المدن و القرى النائية التي زرناها قبيل وحدتنا المباركة ، حيث لم يجرؤ أحد من سكان المنطقة على رفع السلاح في وجهنا جهارا لأتفه الأسباب أو خطفنا مقابل فدية أو الإعتداء علينا خوفا من إعتقال الشرطة و رجال الامن اليقظين لهم و زجهم في السجن عكس ما يجري هذه الأيام من إنفلات أمني أثار دهشتنا لمعرفتنا العميقة بان

[٦٩] أحد أنواع العنب المحلي و تتركز زراعته في محافظتي صنعاء و عمران يمتاز بحلاوته السكرية المفرطة و كثرة بذوره (المؤلف) .

معظمها مفتعل من قبل رجال الدولة الفاسدين و سلطاتهم الرسمية جاهرين بسلوكهم المشين الفاضح هذا عقب حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م حتى وقتنا الحاضر .

أطلقت و أخوتي سيقاننا للريح نلهو و نمرح معا و معنا بعضا من أطفال القرويين الودودين في معاملتهم لنا بالكرة و نمارس ألعاب الغميضة و كيلو باميا س و الكوفية الخضراء و الوقل (الحجلة) و ضرب الحدوي[٧٠] وسط عرائها الفسيح و تحت إيقاع صوت مضخة الماء الزراعية بإحدى الحقول و أنغامها الطريفة أثناء قيامها بعملها المضني في ري الأرض بتذبير لا يطاق لمياهها المحدودة من قبل فلاحينا الجهلة كما هي عادتهم منذ القدم ، فضلا عن إنتهاز والدي الفرصة لإستغلال أرضها اليباب الترابية المعبدة نوعا ما خير إستغلال لتعليم كريمته رباب و نجله صالح قيادة السيارة تحت إشرافه المباشر رغم صغر سنهما و عدم بلوغهما السن القانونية لهذا الغرض في بلادنا ألا و هي ١٨ عاما فما فوق دون أن يشرح لنا ما الذي دفعه إلى تطبيق فكرته الغريبة في هذا المكان النائي و في مثل هذا الظرف و ليس في إحدى المدارس المتخصصة لتعلمها داخل العاصمة ؟ و لا سيما و أن منظرهما و هما يقودان السيارة بشكل شبه إحترافي أثار مخاوفي و قلقي المتصاعد الى حد الصراخ و البكاء نابع من وهم فرار أحدهما

[٧٠] من ألعاب الأطفال الشعبية في اليمن و لا سيما محافظة صنعاء (المؤلف) .

بهـا و تركنـا فـي العـراء بمفردنـا وسـط مكـان لا نعرفـه و لا نعـرف أحـدا فيـه نواجـه مـن خلالـه مصـيرنا البـائس المجهـول كالسـيف فـردا دون أن يكتـرث أبـي لمشـاعري الفياضـة آنـذاك مثـل غيـره مـن أبنـاء جلدتـه المتوحشـين المتبلـدي الأحاسـيس السـيئ الطبـاع الـذين عـادة لا يحبـون إظهـار مشـاعرهم لإنسـانية و الإلتـزام بـالقوانين و الأعـراف القبليـة و الشـرائع الدينيـة و اللـوائح و الأنظمـة الإداريـة إلا بـالقوة و تحديـدا المتعلقـة بـأمنهم و سـلامة أرواحهـم المسـتهترة إسـتهتار ثلـة مـن السـائقين الطائشـين و محـاولاتهم العابثـة الإختبـاء عـن أعـين رجـال المـرور و الهـروب مـن قبضـتهم الحديديـة المسـلطة علـى رقـابهم الرعنـاء و عقـولهم المعتوهـة و اليقظـة لتجـاوزاتهم الطفوليـة و السـاهرة لراحتنـا و راحـة غيرنـا مـن بطشـهم الغـادر فـي الطـرق السـريعة و طـرق السـفر الطويلـة المحليـة بفضـل دوريـاتهم المنتظمـة علـى طـول الـبلاد و عرضـها آنـذاك (قبـل أن يقلبـوا لنـا ظهـر المجـن مـؤخرا دون سـابق إنـذار) و الـذين نـادرا مـا كنـا نـراهم أو نلمـح شـبح أجسـادهم الهزيلـة مـن آثـار التـدخين و السـكر و مضـغ القـات اللائـي يـدمنون علـيهن و سـياراتهم المصـابة بجـروح غـائرة جـراء الصـدمات و الحـوادث المروريـة أثنـاء نزهاتنـا المتكـررة لثـاني منطقـة فـي محافظـة صـنعاء التـي كـان لـي شـرف التعـرف إليهـا منـذ نعومـة أظـافري ألا و هـي منطقـة عصـر المعروفـة بمنتزهاتهـا الترفيهيـة و معالمهـا السـياحية الشـهيرة فـي محافظـة صـنعاء و ضـواحيها بعـدما كانـت مـن قبـل مجـرد أرض ريفيـة

وعـــرة قاحلـــة إلـــى أن زحفـــت مظـــاهر التمـــدن و التحضـــر إليهـــا منـــذ عهـــد الـــرئيس إبـــراهيم الحمـــدي إثـــر إنشـــاء منتـــزه عصـــر الســـياحي و الأحيـــاء الســـكنية المجـــاورة لـــه حيـــث وفـــر طريقهـــا الـــرابط بـــين عصـــر و بنـــي مطـــر الشـــهير بإنحناءاتـــه و إلتواءاتـــه الإســـفلتية الإنتحاريـــة المحفـــورة بجـــوار منحـــدرات جبليـــة شـــديدة الوعـــورة و الخطـــورة معـــا و أيضـــا غيـــر صـــالحة للعبـــور علـــى وجـــه الإطـــلاق بفرمانـــات حكوميـــة مـــا أنـــزل الله بهـــا مـــن ســـلطان علـــى الطريقـــة العثمانيـــة أو الإماميـــة تربـــة صـــالحة لقيـــادتهم الجنونيـــة التـــي لا تطـــاق و أحالـــت بســـاطها الإســـفلتي المتواضـــع إلـــى حديقـــة ملاهـــي شـــديدة الرعـــب علـــى غـــرار النمـــوذج الامريكـــي و لكـــن خـــارج أســـوارها الإســـمنتية و فـــي الهـــواء الطلـــق أو طـــرق مـــوت ســـريعة علـــى الطـــريقتين الإمريكيـــة و الســـعودية دون حيـــاء أو خجـــل ، لكـــن مـــا خفـــف علينـــا وطـــأة المخـــاوف و التـــردد فـــي إقتحـــام هـــذه المنطقـــة الـــوعرة و المجازفـــة بأرواحنـــا البريئـــة عبـــر مغامراتنـــا العائليـــة لســـبر أغوارهـــا الدفينـــة تعرفنـــا مـــن فـــوق علـــى قـــرى و وديـــان بأســـرها مأهولـــة بالســـكان عـــامرة بالخـــدمات الحكوميـــة (رغـــم تواضـــعها المفتعـــل إلا أنهـــا أفضـــل مـــن عـــدمها آنـــذاك) تتـــدثر ببســـاط أخضـــر خصـــيب يكســـوا جبالهـــا العاليـــة علـــى هيئـــة منـــارة المولويـــة فـــي مدينـــة ســـامراء العراقيـــة بكـــرم حـــاتمي لا حـــدود لـــه طـــوال فصـــل الصـــيف تـــروي ظمأهـــا التـــواق لبـــذور الحيـــاة أمطـــارا غزيـــرة تتـــدفق ســـيولا جارفـــة مـــن ثـــاني أعلـــى جبـــل فـــي العـــالم العربـــي بعـــد جبـــل طوبقـــال المغربـــي موجـــود لـــدينا فـــي قلـــب منطقـــة بنـــي مطـــر

دون أن نـدري حيـث نـادرا مـا تتسـاقط الثلـوج البيضـاء علـى قمتـه الشـامخة المرتفعـة ترتفـع عـن سـطح البحـر بحـوالي ٣٧٦٠م إلـى أن رسـت سـيارتنا بعـد جهـد جهيـد بـالقرب مـن نصـب ناصـع البيـاض فـائق الجمـال المعمـاري و الزخرفـة الرومانيـة شـبيه بمنصـة جلـوس العـريس و العـروس فـي الهـواء الطلـق علـى غـرار النمـوذج المصـري أو الأمريكـي لأفاجـأ متـأخرا بأنـه نصـب تكريمـي للجنـود المصـريين الـذين رووا بـدمائهم الزكيـة رغمـا عـنهم ترابنـا الـوطني دفاعـا عـن نظامهـا الجمهـوري ضـد أعـدائنا الإمـاميين الهاشـميين و رجـال القبائـل القحطـانيين علـى حـد سـواء و حلفـائهم السـعوديين خـلال الحـرب الأهليـة الأولـى بـدلا مـن تـراب وطـنهم و لا سـيما سـيناء التـي خسـروها خـلال حـرب ٥ يونيـو ضـد عـدونا اللـدود إسـرائيل عـام ١٩٦٧م و تقـديرا و عرفانـا لـدور مصـر المحـوري و الأساسـي فـي دعـم ثورتنـا المباركـة[٧١] منـذ عـام ١٩٦٣م ، و قـد عرفـت كـل هـذا لاحقـا مـن حارسـها النـزق الـذي ظـل طـوال نزهتنـا ينهرنـا و غيرنـا مـن الـزوار مـرارا و تكـرارا مـن العبـث بمحتوياتـه الرائعـة أو تشـويهها عمـدا لهـذا المعلـم البـارز التـي أنشـأته حكومتنـا المحليـة منتصـف السـبعينات بعـدما ضـاق ذرعـا مـنهم و مـن السـلطات الرسـمية التـي كلفتـه بحراسـته وحيدا شريدا بلا معين أو عوين يذكر لا من قريب و لا من بعيد .

[٧١] ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م (المؤلف) .

عكس نظيره الثاني الذي كان أفضل حالا منه بكثير رغم ضآلة أهميته و حجمه الإسمنتي كونه أقيم عام ١٩٨٥م تخليدا لذكرى العمال و المهندسين الصينيين الذين ضحوا بأرواحهم البريئة و عصارة إبداعهم المهني خلال إنشائهم العديد من الطرق الإسفلتية الإنتحارية الشبيهة بشلالات نياجارا الخطرة معبدة تعبيدا جيدا في بلادنا منذ العهد الإمامي البائد حتى قبيل وحدتنا المباركة بخمسة أعوام من أجل شعبنا الناكر للمعروف الذي لا يعجبه العجب و لا الصيام في رجب إلا بالقوة حيث عاقبوهم عقاب سنمار و قابلوا خيرهم الغزير بالشر المستطير بدءا بجريمة بني مطر التي راح ضحيتها عشرة من الصينيين العاملين على طريق صنعاء – الحديدة الاسفلتي و دفعت الإمام أحمد (١٩٤٨-١٩٦٢م) على إثرها الى إعدام ١٠٠ شخص من أبنائهما القتلة و الأبرياء على حد سواء جزاء وفاقا حسب وجهة نظره المتوافقة مع قوله المأثور (الصيني بميات[٧٢] حيسي[٧٣]) و إنتهاء بالمجزرة التي إرتكبها عمنا بحق سكان قرية من قرى عيال يزيد بمديرية عمران (قبل أن تتحول إلى محافظة قائمة بحد ذاتها عام ١٩٩٩م) و أدت إلى قتل سكانها الخمسة و الأربعون نسمة بذكورهم و إناثهم و رجالهم و نسائهم و أطفالهم و شيوخهم بمن فيهم قتلة العمال الصينيين الأربعة العاملين على مشروع طريق عمران – خولان – صنعاء الذين لم يبلغوا

[٧٢] الرقم مائة بالعامية اليمنية (المؤلف) .

[٧٣] نوع من الأكواب و الكؤوس الفخارية التقليدية المستخدمة لشرب الشاي و القهوة التي كانت تصنع قديما في مدينة حيس بمحافظة الحديدة (المؤلف) .

سن الرشد بعد و تدمير قريتهم النائية شر تدمير بعدما حولتها دبابات الجيش النظامي خلال شهر رمضان المبارك إلى قاع صفصفا و صعيدا زلقا وسط تعتيم إعلامي تام عام ١٩٨٢م ، و أيضا من أجل إرضاء سجانيهم الشيوعيين حيث أن معظمهم معتقلين سياسيين و من أرباب السوابق يجبرونهم على تنفيذ أحكام السجن و الأشغال الشاقة الصادرة بحقهم من قبل محاكمهم الصورية خارج حدود بلادهم الصفراء إلى ما وراء البحار و قعرها المجهول معا عبر أعمال السخرة تلك تحت غطاء عباءة الإستثمارات القومية في أرجاء المعمورة مقابل ثمن بخس لا يسد الرمق أبدا .

لكن قصص معاناتهم الحزينة التي تذيب جبال وعرة من مرارتها الغائرة لم تمنعني من الإنبهار بمستوى تصميمه الغريب الأطوار و زخارفه الآسيوية الصفراء المزركشة الفريدة من نوعها و المعبرة عن مزيج متناقض صارخ من ديكورات و آثاث لمطعم و معبد بوذي تقليديين تعود أرومتهما إلى طرازهم المعماري المحلي العائد لحقبة سلالة المانشو الإمبراطورية (١٨٢٠-١٩١١م)[٧٤] ما دفعنا تحت تأثيره الساحر الغريب للجلوس بالقرب من طاولاته المستديرة و تناول غداءنا فيه قبل أن ينهرنا والدنا نهرا صارما بعدم جواز الأكل أو الجلوس عليها

[٧٤] هي أسرة حاكمة موطنها الأصلي إقليم منشوريا حكمت الصين مطلع القرن التاسع عشر حتى سقوطها و النظام الإمبراطوري و قيام النظام الجمهوري على يد صان يات سن عام ١٩١١م (المؤلف) .

لأنها في نهاية الأمر مجرد قبور و لا يصح إنتهاك حرماتها بأي شكل كان حتى و لو كان أصحابها غير مسلمين !

واصلنا المسير نحو بني مطر دون أن نمر بجبلها العظيم الرافع لرؤوسنا عربيا رغم رؤيته في التلفاز مرارا و تكرارا و لا سيما مسابقات القفز المظلي (البراشوت) المحلية المقامة على شرفه المهيب أواخر السبعينات بإقتراح من بطلنا العالمي في هذا المضمار و الضابط في سلاح المظلات محمد المقالح قبل أن تلغى فعالياته الموسمية بقرار رسمي مريب لم تعرف أسبابه الحقيقية حتما و إن كان من أحداها إنحسار زواره المحليين و الأجانب عن التوافد عليه إما لغياب الحد الأدنى من الخدمات السياحية المطلوبة في هكذا موقع سياحي مهم و إما لعدم إكتراث أبناء البلاد عامة و المنطقة خاصة لأهميته الجغرافية الشهيرة للقاصي و الداني في أرجاء المعمورة و لا يقيمون له أي إعتبار حتى حيث مازال العديد منهم و على رأسهم أخي صالح لا يصدقون بأنه أعلى جبل في شبه الجزيرة العربية على الإطلاق و يعتبر من وجهة نظرهم مجرد هضبة عالية شديدة البرودة خاوية على عروشها لا تثير إهتمامهم أو فضولهم الطاغي لا من قريب أو من بعيد و يفضلون عنه معالما متواضعة أقل أهمية و خضرة و وعورة عنه بكثير كل صيف رغم أن معظم زوارها قادمون من محافظة صنعاء و أمانة العاصمة فحسب و لا تكتظ أسواقها التقليدية المتواضعة القابعة وسط طرق السفر الرئيسية

بقضـــهم و قضيضـــهم العشـــوائي و وجـــودهم العابـــث و لـــو علـــى ســـبيل الإحســـان و الإســـتجداء و المســـاعدة إلا مـــا نـــدر حيـــث يمـــرون مـــن أمامهـــا مـــرور الكـــرام العـــابرين فـــي موكـــب رســـمي حاشـــد مبـــالغ بـــه لا يظفـــر المشـــاركون فيـــه ســـوى بالفتـــات الـــذي لا يســـمن و لا يغنـــي مـــن جـــوع ، و مـــع ذلـــك تنفســـنا الصـــعداء بـــالقرب مـــن أوديتهـــا الضـــيقة الجســـد المتناهيـــة الصـــغر و مياههـــا النـــادرة المتأرجحـــة بـــين العمـــق و الضـــحالة نتفيـــئ تحـــت ظـــلال أشـــجارها الوارفـــة الأغصـــان و الأوراق الخضـــراء لتقينـــا مـــن أشـــعة الشـــمس الحارقـــة فـــي كبـــد الســـماء ظهـــرا و نلهـــو و نمـــرح و نمـــارس رياضـــاتنا المفضـــلة ككـــرة القـــدم و الســـلة و الهـــوكي و نتنـــاول غـــداءنا براحتنـــا و نتجـــاذب أطـــراف الحـــديث بأريحيـــة تامـــة دون أن يـــنغص علينـــا فرحتنـــا و بهجتنـــا نظـــرات القـــرويين الفضـــولية و تـــدخلاتهم الســـمجة و ردود افعـــالهم الســـوقية نحونـــا مـــا عـــدا مشـــهدا بغايـــة الطرافـــة لـــم يغـــب عـــن نـــاظري مطلقـــا لفـــلاح أرعـــن طـــار غرابـــه منـــذ زمـــن طويـــل دون أن يفقـــد صـــحته و قوتـــه ليمارســـهما بصـــفاقة علـــى حمـــاره المســـكين الصـــبور علـــى رعونتـــه و أحمالـــه الثقيلـــة الملقـــاة علـــى عاتقـــه مـــا تعجـــز الجبـــال علـــى تحملـــه و ينهـــال عليـــه شـــتما و ضـــربا و ركـــلا بالأقـــدام و رشـــقا بالحجـــارة لإجبـــاره علـــى العبـــور إلـــى الضـــفة الأخـــرى ، و عنـــدما أخـــذتني الحماســـة بتقليـــد إخـــوتي الكبـــار فـــي لهـــوهم فـــي إحـــدى البـــرك الضـــحلة حيـــث زلـــت قـــدمي فـــي إحـــداهن و كـــدت أغـــرق فـــي لجتهـــا عميقـــة بالنســـبة لجســـدي الصـــغير قبـــل أن ينجـــدني صـــالح

في آخر لحظة من شراكها الخادع حيث تفاجأت حينها برؤية قطعان من أفراخ الضفادع الصغيرة بلون بشرتهن الفاحم و ذيلهن الطويل قبل أن يتبخر كل ما علق بأجسادهن الرطبة منذ ولادتهن مع بلوغهن سن الرشد و تقدمهن في العمر يسبحن عكس التيار الهادئ هدوءً يسبق العاصفة إما إنعتاقا من أغلال بيوضهن الشفافة بعدما ترعرعن داخل زنازينهن الهلامية البيضاء الهشة قبل أن يفقسن في ميعادهن المحدد إيذانا بقدوم جيل جديد من سلالتهن و إما فرارا من مطاردة الأسماك الصغيرة لهن خوفا من أن يصبحن لقمة سائغة بين أنيابهن الناعمة و وجبة دسمة في بطونهن الرخوة عبر هذا الوادي الضيق المعروف بشح مياهه و مناظره الخلابة في مشهد مثير للغاية لم أكن أتوقع حدوثه فيها .

من آخر مفاجآت طبيعتها المتواضعة شكلا المدهشة مضمونا هطول كرات الثلج الصلبة المتناهية الصغر المعروفة بحبات البرد الحاد و الوحشي بغزارة لا توصف و دون سابق إنذار في مشهد غريب عني جعل قلبي ينخلع حينها من شدة الهلع و الرعب إلى حد الولولة بعدما حاصرت قطعانها الناصعة البياض سيارتنا المتواضعة قبل أن تفلت من مخالبها الحادة في اللحظة الأخيرة إلى بر الأمان على الطريق الرئيسي المجاور لمكان نزهتنا بشق الأنفس .

هـذا بالنسـبة للأمـاكن التـي زرتهـا فـي مسـقط رأسـي صـنعاء ، أمـا مـن علـى شـاكلتها و خـارج حـديقتها الخلفيـة المثيـرة للخجـل بالنسـبة للقاصـي و الـداني فكثيـرة جـدا لا تعـد و لا تحصـى لكنـي آثـرت زيـارة بعضـا منهـا إمـا جهـلا بهـا و إمـا خوفـا مـن أسـرارها أو مفاجأتهـا الغامضـة و سـكانها المتوحشـين المنـافقين الغـدارين الجبنـاء و إمـا عزوفـا عـن مناظرهـا المتواضـعة و طبيعتهـا الباهتـة التـي لا تبهـر و لا تسـر عـدوا أو حبيـب و تشـكل نقطـة فـي بحـر المنـاطق السـياحية الخلابـة الجذابـة فـي أنحـاء العـالم التـي تفـوقهم سـحرا و جمـالا لا يوصـف و إمـا تماشـيا مـع رغبـة والـداي الإنتقائيـة فـي إختيـارهن وفقـا لرغباتهمـا الخاصـة المجافيـة للواقـع و المنطق أحيانا .

فحـازت منطقـة الأهجـر بمحافظـة المحويـت علـى قصـب السـبق مـن بـين نزهـاتي المكوكيـة السـالفة الـذكر لقربهـا الشـديد مـن العاصـمة شـمالا حيـث يتوافـد العديـد مـن سـكانها (و والـدتي مـن بيـنهم طبعـا) زرافـات و وحـدانا صـوب أرضـها الشـديدة الوعـورة سـعيا وراء قضـاء نهايـة الأسـبوع المعروفـة لـدينا بعطلـة الجمعـة (و لـيس عطلـة الخمـيس كمـا هـو متعـارف عليـه فـي الغـرب و معظـم البلـدان العربيـة و الإسـلامية و هـي مـن بقايـا مخلفـات العهـد الإمـامي البائـد حتـى بعـد مـرور عقـد كامـل علـى قيـام ثورتنـا المجيـدة دون أن يعـرف السـبب) علـى الـرغم مـن أنهـا قاحلـة جـرداء كمـا ولـدتها أمهـا الأرض إلا مـا نـدر مـن بعـض حقـول الـذرة الشـامية الصـفراء المعروفـة

لـدينا بـالرومي التـي بالكـاد تسـتر عوراتهـا الغـائرة فـي عمـق الـوادي كمـا فعـل صـبي مـن أبنائهـا المتوحشـين المجـردين رغمـا عـنهم مـن طفـولتهم البريئـة كغيـره مـن مواطنيـه الصـغار فـي مقتبـل أعمـارهم عنـدما خلـع سـرواله الـداخلي بعـد الوضـوء و وضـعه علـى إحـدى الصـخور الملسـاء المحاذيـة لمسـجد صـغير متواضـع أمـام أعيننـا دون حيـاء أو خجـل و دون أن يعيـر أي إهتمـام لوجودنـا و أنـا أراقبـه مـن أمـام زجـاج نافـذة سـيارتنا الباهتـة القريبـة منـه كـي يجـف تحـت لهيـب أشـعة شـمس الظهيـرة الحارقـة للبشـر و الحجـر و الشـجر هنـاك ريثمـا ينتهـي مـن صـلاته الـوجيزة سـاترا عورتـه بجلبابـه التقليـدي الناصـع البيـاض مـا عكـس لـي مـن الوهلـة الأولـى طبـاع أهلهـا فـي تلـك الأيـام حيـث كـانوا ودوديـن للغايـة مـع الضـيوف أو الغربـاء و عـدم معـاملتهم بفظاظـة تـذكر ، فضـلا عـن رؤيتـي أشـياء طريفـة و غريبـة فيهـا لـم أعهـدها مـن قبـل كمشـاهدتي بيوتـا تقليديـة ملطخـة عشـوائيا بـالجص معلقـة فـي السـماء تعانقهـا السـحب البيضـاء المكفتـة بأشـعة الشـمس الذهبيـة مـن كـل حـدب و صـوب متوجـة علـى عروشـها السـرابية منـذ قـرون طـوال حتـى وقتنـا الحاضـر فـاق فـي إعجـازه العجيـب حـدائق بابـل المعلقـة أو أهرامـات الجيـزة اللائـي قرأنـا عنهمـا كثيـرا فـي المدرسـة ، و مـا لفـت إنتبـاهي أيضـا وجـود الفئـران و لا سـيما فئـران الحقـول داخـل مزارعهـا و منازلهـا بكثـرة متناهيـة أفزعتنـا فـي وضـح النهـار عنـدما رأينـا أحـدهم ينبشـق بشـق الأنفـس مـن بـين الغبـار و الضـباب فـي إحـدى المـزارع

القريبة منا عبر نفق حفره بعمق في إحدى أسواره الطينية و نحن الذين لم نعتد طيلة حياتنا على رؤيتهن بكافة أحجامهن أو وجودهن مطلقا أو نعاني من اعمالهن التخريبية داخل منزلنا أم خارجه و يحيله إلى ساحة معارك شعواء لا تنتهي بيننا و بينهم مثلما كان يحدث لإخواننا المصريين عبر ما تناقلته أفلامهم و مسلسلاتهم و كتبهم و صحفهم و مجلاتهم حول هذا الموضوع آنذاك كما هي عادتهم في عشقهم الدائم لنشر الفضائح و الكوارث و تحويلها من ذباب عابر إلى أفيال ضخمة من المبالغات الإعلامية المزورة المفتعلة رغم أن الله يأمرهم بالستر وفقا لسياق مثلهم الشعبي المأثور بهذا الخصوص .

و لم تكن محطتي التالية خارج أمانة العاصمة محافظة مأرب تقل ضجرا و خطرا و تنوعا عن سابقاتها فيما تحتضنه من معالم سياحية و حضارية لا يشق لها غبار رغم جوها الحار و مناخها الخانق و أرضها القاحلة إلا ما ندر حيث يقع معظمهن خارج نطاق عاصمتها الغارقة في الرمال مأرب التي لم تنل شرف زيارتي القصيرة الآجل قط دون أن يمنعني ذلك الأمر من سعيي الحثيث لمطالعة أخبارها المقتضبة عن طريق الكتب التاريخية و السياحية و وسائل الإعلام المحلية المختلفة و على رأسهم طبعا برنامج (صور من بلادي) الذي نقل لي و لو بإختصار محدود صورة عظيمة مبالغ فيها عنها و عن أمجادها التاريخية عندما كانت فيما مضى حديث القاصي و الداني في الشرق و الغرب و

واحدة من أهم مدن العالم القديم تقدما و إزدهارا في العصر السبئي الثاني قبل أن تفقد بريقها الأخاذ خلال العصر الحميري الأول و تتحول بمرور الزمن إلى أطلال مهجورة و وكرا للأشباح و الشياطين المزعومة خاوية على عروشها من البشر و العمران تعج بالعقارب و الثعابين و العناكب و الكثبان الرملية الزاحفة حينا من الدهر قبل أن تعيد ثورتنا المباركة[٧٥] و لو جزء بسيطا من مجدها الغابر و تجعلها عروس الصحراء من جديد عامرة بالأحياء السكنية و الشوارع الإسفلتية المعبدة تعبيدا جيدا و المدارس و المستشفيات و المصانع و المزارع و الفنادق و المتاجر و المطاعم و المطارات و الملاعب الرياضية و حقول النفط و مصفاة البترول و سد مأرب العظيم في صافر حيث كان وجهتنا الأولى قبل غيره من مدن اللواء الأحمر[٧٦] قادمين من بيتنا في شارع المطار إليه عبر طريق صنعاء – مأرب الطويل الممتد من محطة سيارات و دبابات[٧٧] الأجرة في الحصبة حتى المجمع الحكومي في مدينة مأرب منذ الصباح الباكر ، و ما إن وصلنا إلى صافر فإذا بنا نمر بحقله النفطي الواقع على مرمى حجر من أنظارنا البريئة إثر إفتتاحه عام ١٩٨٤م من قبل عمنا و رئيس وزرائه عبدالكريم الإرياني و مدير الشركة الإمريكية المكتشفة لها (هنت) الذي يشاع عنه قرابته العائلية

[٧٥] ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م (المؤلف) .

[٧٦] لقب محافظة مأرب عند اليمنيين (المؤلف) .

[٧٧] لقب سيارات الميكروباص عند سكان مدينة صنعاء (المؤلف) .

الوطيدة مع الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش (١٩٨٨-١٩٩٢م) أثناء ما كان نائبا لسلفه رونالد ريغان (١٩٨٢-١٩٨٨م) حيث أثمرت جهودهم المضنية منذ عام ١٩٧٦م عن تحول بلادنا من بلد مستورد للنفط إلى مصدر له بطاقة إنتاجية بلغت حوالي ٢٠٠ ألف برميل في اليوم ثم ٧٣ مليون برميل في السنة بعائدات مالية وفيرة تجاوزت آنذاك ٢ مليار دولار و إحدى البلدان المصنعة للبتروكيماويات و المشتقات النفطية في العالم بعد إنشاء مصفاتها العالية الكفاءة وفق المقاييس و المعايير الدولية لتكرير النفط المنبثق من أرضها الخصبة بالذهب الأسود الذي لا ينضب و إن كان إشتعال النيران بالقرب من فوهتها الدائرية العملاقة المحفورة في جوف الصحراء أثار فزعي من إمتداد لهيبها الجهنمي الناجم حسب زعمي الساذج عن إندلاع حريق هائل يأكل الأخضر و اليابس و البشر و الحجر النادر الوجود في هذه المنطقة المقفرة نحونا لإلتهامنا داخل سيارتنا العجوز في لمح البصر دون رحمة أو شفقة بعدما إنفجر غاضبا من وجودنا و وجود غيرنا الذين أيقظوه من نومه الطويل على مر العصور قبل أن يبدد صالح مخاوفي حولها و يوضح لي جليا حقيقة الأمر بأنها مجرد دخان منبعث من معمل التكرير إسوة بالدخان الصادر من المصانع و أفران المخابز و مطابخ المنازل أو شيئا من هذا القبيل .

قبيل صعودنا للسد الجديد وقفنا لبرهة لدى نظيره القديم الذي لم يكن يفصله عن نظيره الجديد سوى بضعة أمتار فحسب دون أن تقلل من مكانته العظيمة لدينا نحن اليمنيين على مر العصور و دوره المحوري المنبثق عن بنائه الهندسي الرفيع الفريد من نوعه منتصف الألف الثالث قبل الميلاد في قيام أعظم و أقدم حضارة في شبه الجزيرة العربية و قدرته الرهيبة في ري و سقاية ١٥ % من مساحة بلد تنعدم فيه الأنهار و البحيرات العذبة التي لا تنضب (؟) و بإندثاره أفل اليمن القديم بأمجاده العظيمة و ماضيه العريق و أهيل عليه التراب إلى الأبد ، و لم يبق من عبق تاريخه العطر على قلوبنا الجرداء سوى أطلال متناثرة متماسكة نوعا ما هنا و هناك تفترسها الرمال و الأشباح و لصوص الآثار القبليين بأنيابهم العفنة في أية لحظة دون أن يحرك أحد نحوها ساكنا .

إقتربنا بحذر من جرفه الهار الواقع على شفا ربوة صخرية ملساء يكاد من يحاول عبورها أن تزل قدمه إلى قعرها الرخامي و يغرق في لجة ما تبقى من بحيرتها الصناعية القديمة الضحلة منذ آلاف السنين غير مأسوف عليه و هذا ما جعله مهجورا من قبل البشر طوال هذه الأعوام الطوال ، إلا أننا نجحنا في الإفلات من الوقوع في نفس المصير المأساوي و بلغنا الشطر الأيسر من السد حيث تهدم جزء بسيط منه على وقع خرير مياه متدفقة من خلاله قادمة من سيل وادي الخارد

طوال العام حتى إستقرارها في جوف بحيرتها المحاطة بما تبقى من أشجار غناء من البرتقال و الياسمين راسخة بجذورها العريقة في أرضها المعطاء و ليس كما زعم فقهاؤنا المسلمين الجهلة وفق تفسيرهم المتطرف السطحي للقران الكريم بأن سيل العرم[٧٨] المذكور بين سطور سورة سبأ أحاله قاعا صفصفا و جنانه الخضراء صعيدا زلقا و مياهه العذبة كثيبا مهيلا من الرمال المتحركة .

بعدما شاهدنا السد القديم توجهنا من فورنا نحو شقيقه الجديد بعد عام من إفتتاحه الرسمي عام ١٩٨٦م من قبل عمنا عبر تشغيله دولاب التحكم الرئيسي لينـدفع من أروقته الإسمنتية الأرجوانية الفاتحة المياه العذبة تتدفق منه بغزارة هائلة و تروي هذه الأرض العطشى المحرومة من مذاقها المنعش دهورا طوال خلت في إحتفال حاشد مهيب غطته وسائل الإعلام المحلية و العربية و الأجنبية و تغنى بها الشعراء و الأدباء و الفنانون عبر أعمالهم الشعرية و القصصية و الروائية و المسرحية و على رأسهم أوبرا (وادي سبأ) الذي ألفه الشاعر و عالم الآثار المبدع مطهر الارياني[٧٩] و حضره الرئيس الإماراتي زايد بن سلطان آل نهيان[٨٠] و عضو مجلس قيادة الثورة الليبي الخويلدي

---

[٧٨] العرم : السد باللغة اليمنية القديمة (المؤلف) .

[٧٩] هو شقيق رئيس الوزراء السابق عبدالكريم الارياني (المؤلف) .

[٨٠] زايد بن سلطان ال نهيان : رئيس الإمارات العربية المتحدة (١٩٧١-٢٠٠٤م) و مؤسسها و محررها من الإستعمار البريطاني عام ١٩٧١م ، و هو من أسرة يمنية الأصل تعود أرومتها إلى محافظة مأرب (المؤلف) .

الحميدي[٨١] و رئيس الوزراء التركي تورغوت أوزال[٨٢] و الذي ما كانت والدتي تشبهه كثيرا بالممثل الكوميدي السوري نهاد قلعي او حسني البورزان[٨٣] كما كان معروفا لديها و لدى عامة الناس عندنا و لا سيما ربات البيوت المعجبات بفنه الفكاهي الرفيع و صراعاته المرحة مع غوار الطوشي التي لا تنسى .

لكن تشابه تورغوت أوزال بنهاد قلعي إلى حد التطابق لم يثر الغرابة بالنسبة لي بقدر ما آثار استغرابي إعجاب اليمنيين الأحفاد المبالغ به بهذا الإنجاز الحضاري العظيم و تباهيهم المصطنع زورا و بهتانا بإعادة إعماره أمام الملأ دون حياء أو خجل حيث لم يشاركوا في تشييده و بنائه أو الإنفاق عليه بفلس واحد أو بشق تمرة حكومة و شعبا لا من قريب و لا من بعيد رغم أن حكومتنا الرشيدة وضعت حجر أساسه المهيب و دشنت العمل فيه إبتداء من مطلع عام ١٩٧٦م ، فهم يعلمون علم اليقين بأن الباني الحقيقي له هم المستعمرون القدامى لبلادنا الأتراك عبر شركة زينغلون اوغلو العاملة في ليبيا و هي إحدى الشركات الهندسية العالمية الرائدة في هذا المضمار ! و يعلمون أيضا أن الإمارات و ليبيا قامتا بتمويله من الألف إلى الياء !! ما برهن لي بأنه

---

[٨١] الخويلدي الحميدي : أحد قادة الجيش النظامي الليبي السابقين الذين شاركوا في إنقلاب الأول من سبتمبر و التي تعرف لدى أنصار قائدها الزعيم الراحل معمر القذافي (١٩٦٩-٢٠١١م) بثورة الفاتح من سبتمبر ضد الملك إدريس السنوسي و إستبدال نظامه الملكي بنظيريه الجمهوري عام ١٩٦٩م و الجماهيري عام ١٩٧٧م (المؤلف) .

[٨٢] تورغوت أوزال : سياسي تركي مخضرم تولى رئاسة الوزراء (١٩٨٣-١٩٨٧م) و رئاسة الجمهورية (١٩٨٧-١٩٩٣م) و مؤسس حزب الوطن الأم و أحد الذين أعادوا الديمقراطية البرلمانية إلى بلادهم إثر قيام الإنقلاب العسكري عام ١٩٨٠م و أوزال كلمة تركية تعني الطويل القامة (المؤلف) .

[٨٣] البوق باللغة التركية (المؤلف) .

تم إحياؤه من جديد على أكتاف و سواعد الأجانب الغرباء لا أحفاد أجدادنا الكسالى المتواكلين الذين يضيعون وقتهم الثمين في سفاسف الأمور و مضغ القات و إدمان المخدرات و شرب الخمر سرا و النوم العميق و الكسل المزمن طيلة ٢٤ ساعة يصنعون خلالها أبراجا عاجية من السراب اللذيذ يوهمهم بجني المال و الثروات دون عناء أو تعب يذكر .

تسلقت سيارتنا العجوز بنا إلى أعلى السد الجديد بوتيرة عالية تفوق سرعة السيارات الجديدة رغم صغر سنها حيث لم يتجاوز عمرها السبعة أعوام فقط ! و لكن مزاجية والدي اليمنية الطابع الطفولية المنهج الخارجة عن حدود العقل و المنطق إلا من رحمه ربي بلطفه الغزير أجبرتها على الإقدام على هكذا مغامرة جسيمة تثقل كاهلها الضعيف و لا سيما أنها وقعت بسبب سائقها إثر وصولها المتسارع إلى القمة في شرك طريقه الإسفلتي المحفوف بالمخاطر و المهالك المحدقة بمن يسلك ممرها الأضيق من عنق الزجاجة و الصراط حيث كانت تتأرجح بنا يسرة و يمنة تأرجح البشر المؤمنين و الكفار على الصراط المستقيم الرابط بين الجنة و النار يوم القيامة ، إلا أن الله سلم في آخر لحظة عندما أمسك والدي بإلحاح منا و لا سيما والدتي و شقيقتي رباب بلجامها الحديدي في الوقت المناسب دون أن تهوي بنا إلى بحيرته الصناعية على اليمين أو هوته السحيقة الجافة قبالة أسفل

المنحدر الأمامي لواجهته الشاسعة المكفتة بالحجارة و الرمال الجبلية على النمط السبئي القديم حيث بدونا أمام صرحه المهيب أقزاما لا حول لهم و لا قوة وسط كونه الواسع للغاية مما كان ينبغي على والدي التأني الحريص و الحذر في قيادته في عمق حافته الضيقة كيلا يرمينا معه إلى التهلكة و نضحى بسببه في خبر كان ، و مع ذلك لم يمنعه إتعاظه مما سبق من ممارسة تهوره المعهود و إندفاعه المغامر نحو بحيرة السد و دفعه الملح لنا بالخوض معه في غمار قعره الأزرق الشاحب الوجه بعدما فقد بريقه الجذاب جراء تعرضه المتواصل لأشعة الشمس الحارقة إلى حد لا يطاق في هذه المنطقة الجرداء و الكافية لتجفيف منابع أودية و آبار و غيول برمتها من بذرة الحياة[٨٤] رغم تحذير والدتي الشديد اللهجة له بعدم التمادي فيما يصبو إليه من نزهة خطرة بمحاذاة مياهه العميقة جدا عمق البحار و المحيطات الضخمة و لا تقل جسامة عن صعودنا الشاق نحو قمته الرهيبة الحادة حد السيف القاطع حيث وصل بزوارها المحليين المستهترين داخل مأرب و خارجها أن حولوها بزياراتهم العشوائية من خزان لمياه الأمطار الغزيرة و سيولها المتدفقة من وادي الخارد و جبل البلق الأيسر طوال العام و إستخدامها في ري المزارع النموذجية و الحقول الزراعية القريبة منها

[٨٤] الماء العذب (المؤلف) .

كما ذكر لنا برنامج (الزراعة و الفلاح)[٨٥] الجماهيري أثناء الإستطلاع الميداني الذي أجراه طاقمه الإعلامي على الهواء مباشرة هناك بعيد إفتتاحه بشهرين إلى حوض سباحة سياحي لهم يخوضون عبثا غماره المجهول و يلهون بمحاذاة شاطئه الإسمنتي المتواضع الشديد الوعورة !

بداية سبحت مع والدي و أشقائي الذكور تاركين والدتي و شقيقتي رباب بمفردهما يراقبننا من بعيد عن كثب مستمتعين بالعوم في مياهه الدافئة قبل أن آثر العدول في الإنغماس الحماسي معهم في لهوهم الطفولي لعدم إجادتي السباحة آنذاك ، فضلا عن تهيبي الشديد من الغوص في خضم لجته العملاقة بحجم بحيرة ليمان[٨٦] و قعره الغائر للغاية إثر رؤيتي الخاطفة لزورق أتوماتيكي كبير من الطراز الحديث يمخر عبابه الباهت و يقفز من متنه غواصون محترفون بكامل ملابس و عدة الغوص الخاصة بهم لتفقد قاعه العميق و صيانة و تنظيف أبواب التصريف و التخزين (المصنوعة من المعدن على ما أعتقد) العملاقة القابعة أسفله السحيق بشكل دوري من الترسبات الملتصقة بهن و بجانبهم صيادون قدموا من الحديدة للعمل لدى الهيئة العام للسد يرمون شباكهم التقليدية لتربية ما خف و غلا ثمنه من الأسماك الصغيرة

[٨٥] برنامج تلفزيوني شهير يهتم بالزراعة و الثقافة و الإنتاج الزراعي في اليمن الشمالي بث عبر شاشة تلفزيون اليمن الشمالي إثر إفتتاحه عام ١٩٧٥م و إستمر يعرض حتى عام ٢٠٠٤م من قبل الثنائي الإعلامي الذائعي الصيت لدى اليمنيين و لا سيما سكان الشطر الشمالي من الوطن و جمهور إذاعة صنعاء صالح العابد و علي يوسف الأمير (المؤلف) .

[٨٦] بحيرة كبيرة تقع بالقرب من مدينة جنيف السويسرية (المؤلف) .

و المتوسطة القادمة من الوديان القريبة منه بكميات وفيرة سعيا وراء تمكينها إصطياد غذائها المفضل من الطحالب و الضفادع و الاعشاب البحرية العالقة قسرا بين جدران السد و أبوابه التصريفية و تعيق عملهم الوظيفي المناط لها بعدما إستوطنت و تكاثر نسلها بين أحشائهم الصلبة دون أن تتزحزح من مكانها قيد أنملة إلا بصعوبة بالغة .

ما إن أنهينا مغامرتنا البحرية القصيرة الأمد (!) حتى صعدنا إلى كورنيش السد المتواضع المخصص للزوار و السياح المحليين و الأجانب على حد سواء بعدما كانت منصة رسمية لإفتتاح المشروع سرعان ما دب في أوصالها الحديدية المهترئة الإهمال و الصدأ على إستحياء رغم تبدل وظيفتها الخاطف تحت جنح أزمنة بلادنا الغامضة و ظلامها الدامس الذي لا يرحم و لا يدع رحمة الله تنزل علينا و تنقذنا من غموضه الخانق لنا إلى يوم الدين .

و مع ذلك ، و بالرغم من المنغصات المفاجئة الطارئة التي جابهت سهامها المرة في تلكم الرحلة إلا أنني لم أكترث البتة لوجودهن العقيم لحظة تأملي العميق لمنظر سد مأرب الساحر و موكبه الأزرق المهيب يخلب الألباب و هو محاط بحراسة الطبيعة الغراء و أرضها البكر التي لم يمسسها بشر قط من قبل يعلو رأسه الشامخ فوق الجبال المحتضنة لصدره المائي الرحب يرضع بحليبه العذب الفرات كل شيء حي من

بشـــر و شـــجر و حيـــوان و ســـمك و طيـــر دون أن يـــدر بخلـــده أن طعنـــة الغـــدر القاتلـــة التـــي ســـيتعرض لهـــا فـــي المســـتقبل ســـتأتيه بـــلا فخـــر عبـــر الأحفـــاد بعـــدما روتهـــم بعطائـــه الزاخـــر الـــذي لا ينضـــب و هـــو الـــذي تعـــرض للغـــدر و الخيانـــة مـــن قبـــل علـــى يـــد أجـــدادهم الســـبئيين الأوائـــل عنـــدما تركـــوا بإهمـــالهم المتعمـــد لـــه عرضـــة للفئـــران و عبثهـــا الهمجـــي تســـرح و تمـــرح و تســـتبيح جســـده المـــثخن بـــالثقوب و الشـــوائب و الترســـبات المتراكمـــة كمـــا يحلو لهن دون حسيب أو رقيب من احد .

و مـــع ذلـــك ، و بـــالرغم مـــن إحتـــواء هـــذه المحافظـــة الصـــحراوية الجذابـــة مـــن معـــالم تاريخيـــة و حضـــارية رائعـــة مثيـــرة للإهتمـــام شـــديدة الإبهـــار للنـــاظر ، إلا أن والـــدي آثـــر العـــودة حـــالا إلـــى العاصـــمة ظهـــرا رافضـــا أيـــة رغبـــة بريئـــة منـــا لإســـتئناف رحلتنـــا الإستكشـــافية ســـعيا وراء ســـبر أغـــوار المزيـــد مـــن عجائـــب أرضـــها البكـــر الأثريـــة و لا ســـيما أعمـــدة معبـــد إلـــه القمـــر لـــدى الســـبئيين و خلفـــائهم الحميـــريين و المعروفـــة لـــدينا بمحـــرم بلقـــيس نســـبة إلـــى بانيهـــا الحقيقـــي حســـب زعمنـــا و أكاذيبنـــا التـــي نكـــذبها علـــى أنفســـنا و نصـــدقها دون حيـــاء أو خجـــل ملكـــة ســـبا الشـــهيرة بلقـــيس حيـــث مـــازال معظمهـــا مـــدفونا تحـــت بحـــر مـــن الرمـــال المتحركـــة الجاثمـــة علـــى صـــدره الرخـــامي الفريـــد مـــن نوعـــه منـــذ العصـــور الغـــابرة دون أن يمســـه إنـــس و لا جـــان أو يخرجـــه أحـــد مـــا مـــن جحيمـــه الترابـــي حيـــث كـــان مضـــطرا للعـــودة مبكـــرا مـــن أجـــل دوامـــه الرســـمي حيـــث مـــا لبثنـــا أن عـــدنا أدراجنـــا بســـرعة

البـــرق قبـــل حلـــول الظـــلام بســـلام دون عنـــاء يـــذكر و دون أن يتعـــرض لنـــا أحـــد مـــن قطـــاع الطـــرق القبليـــين المســـلحين الـــذين لا وجـــود لهـــم أساســـا فـــي تلـــك الأيـــام خوفـــا مـــن قبضـــة رجـــال الأمـــن و عيـــونهم اليقظـــة الســـاهرة آنـــذاك تحـــت أنغـــام صـــرعات موســـيقى الـــروك الجديـــدة فـــي تلـــك الآونـــة التـــي كانـــت شـــقيقتي ربـــاب تتـــابعهن بحماســـة مفرطـــة قبـــل أن تقلـــع عـــنهن بعـــد زواجهـــا بثمانيـــة أعـــوام و بالـــذات مـــن فرقتيهـــا المفضـــلتين لـــديها الإخـــوة ((غيبـــز))[٨٧] و ((أبـــا))[٨٨] رغـــم حـــرارة الشـــمس المغيـــب الملتهبـــة علـــى أجســـادنا الغضـــة الطريـــة و طريقنـــا الإســـلفتي الطويـــل المـــوحش الخـــالي تحاصـــره الكثبـــان الرملية حصار الأفاعي الزاحفة نحو فريستها الغافلة .

و لـــم تكـــن محطتـــي التاليـــة فـــي مســـيرة رحلاتـــي المكوكيـــة عبـــر أرجـــاء وطنـــي الســـعيد (؟) اللـــواء الأخضـــر بأفضـــل حـــالا مـــن ســـابقاتها و اجوائهـــا الخانقـــة التـــي لا تقـــارن بجوهـــا الرائـــع و طبيعتهـــا الخلابـــة الســـاحرة للقلـــوب قبـــل العقـــول مـــن الوهلـــة الأولـــى ، فعلـــى الـــرغم مـــن كونهـــا مســـقط رأس عـــائلتي القـــابع فـــي قلـــب محيطهـــا الجغرافـــي الفـــاتن إلا أننـــي لـــم أكـــن أعـــرف ســـوى النـــذر اليســـير عنهـــا و لـــم يخطـــر ببـــالي زيارتهـــا علـــى ســـبيل الترفيـــة أو الســـياحة لا مـــن قبـــل و لا مـــن بعـــد بـــالرغم مـــا قرأتـــه فـــي كتبنـــا المدرســـية عـــن قراهـــا و مـــدنها الجبليـــة المكســـوة بالخضـــرة الخلابـــة و حـــدائقها الغنـــاء

[٨٧] فرقة موسيقية من فرق الروك الأمريكي أسسها الإخوة غيب عام ١٩٧٩م و ذاع صيتها في أمريكا و اوروبا خلال عقد الثمانينات من القرن العشرين (المؤلف) .

[٨٨] فرقة سويدية لموسيقى الروك ناطقة باللغة الإنجليزية مكونة من مطربتين و زوجيهما العازفين ذاع صيتها في أمريكا و مقر إقامتها بريطانيا خلال عقد الثمانينات من القرن العشرين (المؤلف) .

الزاخرة بما لذ و طاب من أصناف الخضروات و الفواكه و الحبوب دون زيادة أو نقصان و العبقة بعبير الزهور و عطر الورود الملونة البراقة تخترق صفوفها الجذابة ينابيع عذبة عذوبة الفرات من مياه الأمطار الغزيرة التي لا ينضب معينها الوفير من عطائه المتدفق بإستمرار عليها طوال العام دون كلل أو ملل و لا سيما في الشهر الذي إشتق إسمها منه شهر آب و معناه أغسطس باللغة السريانية أو الربيع بلغة شقيقتها الحميرية رغم إنعدام الأنهار الجارية فيها قل نظيرها في أي مكان من ربوع العربية السعيدة !

و هذا ما أدركته جليا لدى زيارتي الأولى الشديدة الإضطراب بالنسبة لي حيث صادفت في طريقنا إليها تلبد السماء الصافية بالغيوم السوداء المكتظة بالسحب الرمادية حاجبة ضوء الشمس الساطع محيلة نهارنا الشاحب إلى ليل ممطر تنهال مياهها الغزيرة على دربنا المحفوف بالمخاطر هجوم الغزاة المتوحشين البرابرة القادمين من الفضاء الخارجي بلا هوادة لإحتلال الأرض بسياط برقها الوهاج و عواء رعدها المرعب على جسده الإسفلتي الهش نوعا ما بطريقة جعلت قلبي ينخلع من مكانه جراء ما يحدث و يذكرني بمشهد مشابه لأهوال يوم البعث العظيم دون زيادة أو نقصان و لا سيما منظر شلال السيول الترابية المتدفقة من أعالي الجبل إلى أسفل نقيل سمارة الإنتحاري حيث كاد جنونه الهستيري يعصف بنا و بغيرنا من سائقي السيارات

الأخرى نحو لجة هاوية الوادي السحيق المتصدع المجاور له إلى غير رجعة أمام إستهتار والدي العجيب في قيادته المتهورة و تماديه في طيشه الطفولي مطلقا العنان لسيارته السلحفاة لتسابق الريح و عاصفتها الهوجاء دون حسيب أو رقيب ظنا منه أنه مازال يمارس هوايته المفضلة تحت المطر في مسقط رأسه بقرية الدوير النائية عند سفح جبل العود الشامخ شموخ الزائفين تحت ضوء البدر المفقود في الليلة الظلماء ، لكن الله سلم و كبح جماح حماسته الصبيانية المفرطة بإلحاح شديد من جدتي لأمي ، فيوقفنا بالقرب من غابة خضراء على طريق وادي السحول الشاسع لنستظل تحت أشجارها الشوكية اليانعة الرطبة درعا حارسا واقيا لنا من هطول الأمطار الغزيرة و سعيرها المائي الملتهب تحت الصفر عكس غيرنا من المارة المواصلين دربهم الطويل بهمة عالية لا نظير لها غير مكترثين لهوسها المجنون السالف الذكر من بينهم راعي الجمال العجوز الذي صادفناه في طريقنا بزيه التهامي التقليدي الغريب الأطوار الغير مناسب لهذا الطقس الممطر من قلنسوة مثلثة و أزار بلا أكمام و سروال قصير يغمرهم اللون الأصفر الباهت إلى حد الشحوب مصنوعة من أجولة البن المتينة سائرا مع جمله الكهل الهوينة في طريق مليء ببرك الماء المحفورة وسط الطريق الإسفلتي المغشوش جراء المطر الغزير تظنه من وجهه البشوش الشاحب ذاهبا في نزهة لطيفة تحت ضوء الشمس الساطع في كبد

السماء بإحدى المروج المزدانة بالزهور و الورود الفواحة بألوانها البراقة بالرغم من أن وجهته الحقيقية هي نحو سوق الإبل بحي المعاين بالمدينة لبيع صاحبه هناك أو بالأحرى التضحية به قربانا يتيما في مذبح إحدى المسالخ الخاصة بأمثاله دون حياء أو خجل أو عرفانا بالجميل نحوه مقابل حفنة من المال !

كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها جملا عن قرب وسط الأرض الخضراء و ليس في مكانه المعتاد بين الصحراء و رماله الذهبية الساخنة و طبيعتها القاسية التي لا ترحم بحرارتها الخانقة البشر و الشجر و إن كانت أرحم منهم جميعا و من قسوتهم الغريبة الأطوار التي لا تطاق و رغباتهم الغامضة في التعامل مع أمور حياتهم اليومية كما يحلو لهم وفق وجهات نظرهم المتعددة الخاصة بهم و المتعارضة فيما بينهم خيرا كان أم شرا ، فما بالك ببلادي التي إكتشفت فيها خلال رحلاتي المكوكية آنذاك عجائب و مفارقات لا تخطر على بالي الطفولي و عقلي المحدود و تثير إشمئزاز خيالي الخصب و توجع قلبي المرهف الحس أو تفرح جوانحي البريئة و تزيد من إغتباطهم الحاد و المزمن إلى حد لا تسعني الدنيا من أساريرها الوهاجة فتظل راسخة في صميم سويدائي ردحا من الزمن !

واصلنا بعد هذه الإستراحة القصيرة دربنا المتعثر نحو مركز لواءنا الأخضر إب و تحديدا إلى منزل شقيق جدتي الأصغر مجاهد القابع في قلب البلدة القديمة القريبة من أهم معالم المدينة السياحية شلال المشنة[٨٩] العامر بمياهه العذبة المنعشة طيلة فصل الصيف قبيل إنحسار هديرها المفعم بالحيوية و النشاط خلال بقية فصول السنة الأخرى المحاطة بالخضرة اليانعة و قنوات السيول الحجرية و الجسور المبنية بناء هندسيا فائق الدقة منذ عهد الملكة أورى بنت أحمد الصليحي[٩٠] تغمر بيوتها العتيقة اللون الأبيض المائل للإصفرار الفضي السائد بطبيعة أحجار البناء المستخدمة في مساكن و منازل و مباني المدينة القديمة و الحديثة على حد سواء قابعة في الدرك الأسفل من جبل بعدان المحاط دوما بالغيوم الرمادية المتخمة بالأمطار الغزيرة و أعوانها الميامين من الرياح و البروق و الرعود الجاهزين بشرارتهم الملتهبة لهيبا باردا لتشتعل أمواجا كاسحة عليهم من خير أو شر نابع من مائها الثمين في التو و اللحظة ما يحول هذه المدينة الخضراء من أكثر مدن بلادنا السعيدة رطوبة و حرمانا من الشمس و قبلاتها الذهبية الحارة على الإطلاق .

---

[٨٩] المشنة : مصفاة المياه العذبة بلهجة أهل مدينة إب (المؤلف) .

[٩٠] هي ملكة اليمن (١٠٩١-١١٣٨م) خلال عهد الدولة الصليحية (١٠٥٩-١١٦٦م) الإسماعيلية المذهب ، حكمت البلاد بعد وفاة زوجها و سلفها المكرم أحمد (١٠٦٧-١٠٩١م) إنطلاقا من عاصمتها الجديدة جبلة بمحافظة إب بدلا من صنعاء ، و إمتاز عهدها بالرخاء الاقتصادي و السياسي و الأمني و حرية الإبداع الثقافي و الفكري و الفني و الأدبي و التعايش الطائفي بين السنة و الشيعة و الزيدية و النهضة الصناعية و الزراعية و الصحية و الطبية و العلمية و التكنولوجية آنذاك ، و أروى تعني الغزالة أو الظبية باللغة اليمنية القديمة (المؤلف) .

ولجنا منزل جدي إسماعيل متفاجئا لدى إستقباله لنا ببشرته البيضاء و شعره الأشقر و عيونه الزرقاء هو و أولاده الثلاثة تحسبهم من هيئتهم البالغة الوسامة اوروبيون أم أتراكا هاجروا قديما من موطنهم الأصلي إلينا لا من سلالتنا الهاشمية الزيدية المقدسة المستوطنة في بلادنا منذ عشرة قرون مضت ، سيما و قد أشيع عن والده زواجه من إبنة قائده التركي رياض باشا بعد تجنيده قسرا في جيش الجندرمة[٩١] و إرساله و زملائه من أهل قريته بالجبجب إلى جبهة سالونيك[٩٢] للذود عن رجل اوروبا المريض الآيل للسقوط حينها خلال حرب البلقان الثانية (١٩١٤-١٩١٥م) تقديرا لشجاعته المتناهية في القتال و التزامه الحرفي بأوامر قادته العسكريين و لو على حساب أهله و عشيرته الأقربين و وطنه بشكل أثار غضب و حنق من حوله بمن فيهم جدتي و والده اللذين لم يحظ منهما بإهتمام كاف و رعاية حانية تذكر منذ نعومة أظافره ، و ما زاد من حنقهم أيضا مصاهرته لعائلة خارج نطاق دائرتهم الأسرية و العرقية و الطائفية و لا تمت لهم بأية صلة لا من قريب أو من بعيد أو تفرق بينهم ثارات و أحقاد دفينة موغلة في القدم ألا و هي عائلة رفيق دربه المخضرم إبان خدمتهم العسكرية في الجيشين التركي

---

[٩١] أول جيش نظامي في اليمن الشمالي أنشأه الأتراك العثمانيين عام ١٩١١م لمواجهة أعدائهم المستعمرين الفرنسيين في جنوب تعز و البريطانيين في محمية عدن و الإمام يحيى حميد الدين (١٩١٨-١٩٤٨م) خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) و تعني الدرك باللغة التركية (المؤلف) .

[٩٢] مدينة يونانية محصنة كانت جزء من الإمبراطورية العثمانية قبل أن تضم إلى اليونان نهائيا عام ١٩١٨م و فيها ولد مؤسس الجمهورية التركية مصطفى كمال أتاتورك (١٩٢٣-١٩٣٨م) و نفي إليها السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) بأمر من قائد الإنقلاب الدستوري و زعيم الإتحاديين أنور باشا (١٩٠٨-١٩١٨م) عام ١٩٠٩م (المؤلف) .

و اليمني محسن الشويطر عبر زواجه من شقيقته الشقراء و أم أولاده رضية التي أسرت قلبه المرهف بعينيها الزرقاوين و وجهها البشوش و وقارها الطفولي منذ تعرفه عليها بالقرب من محل سكنهم في البلدة القديمة عندما كان يزور محسن في منزل والده عاقل حارة العرقوب لإستذكار دروسهم الفقهية غير مكترث لمذهبها الشافعي و أصولها الإجتماعية المتواضعة اللائي كادتا تحولان بين حبهما العذري العفيف إلى غير رجعة .

لم نطل المكوث في إب رغم محاسنها و مميزاتها الفاتنة و سرعان ما غادرناها في الصباح الباكر صوب مدينة تعز دون أن يمنعنا ذلك من إلقاء نظرة الوداع الأخيرة الخاطفة على قلبها التجاري و طابعها العمراني الحديث حيث مازال في طور التكوين الجنيني يحبو على وقع خطواته المتعثرة نحو البلوغ للسن الرشد و المتمثل بمبنى المحافظة و أسواقه و فنادقه المتنوعة المجاور شمالا لشارع ملعب الكبسي الرياضي و أستاد إب الدولي حيث دشنوا العمل فيه قبل عامين ملاصقا لمقر كلية التربية القائمة منذ عام ١٩٨٠م قبل أن تتحول لاحقا إلى جامعة عامرة بالكليات و الأقسام العملية و النظرية بكافة التخصصات و بطلابها و طالباتها من كل حدب و صوب و صراعاتهم السياسية المفتعلة عام ١٩٩٣م متصلا بشارع العدين الزاخر بعماراته الحديثة الشاهقة المكتظة بالمساكن و المتاجر و المستشفيات و البنوك و

المصالح الحكومية قبل أن تعود سيارتنا أدراجها جنوبا صوب شارع تعز بحيها الراقي الحديث النشأة متجهين خلالها نحو جارتها الغربية بعدما تأملنا الثمار اليانعة لتحويلات أبنائها المشتتين في أمريكا و بريطانيا و دول الخليج و ليبيا و الجزائر و فيتنام الجنوبية[٩٣] و ماليزيا و كوبا التي حلت عليها و أهلها الفقراء باليمن و البركات .

أثناء مسيرنا الى هناك ، لم يكن يخطر ببالي باننا متجهون نحو أهم مدينة في اليمن بشطريها الشمالي و الجنوبي مساحة و سكانا و اقتصادا آنذاك رغم اسمها المثير للضحك (تعز) ، ظننتها من الوهلة الأولى علامة تجارية مسجلة لإحدى السلع الإستهلاكية المتداولة في السوق و إسم شركة ما قبل إدراكي مؤخرا بأنها تحريف عامي من قبل سكانها لإسم مؤسسها و بانيها المعز الأيوبي[٩٤]لتكون عاصمة جديدة لدولة أجداده القادمين من المناطق الكردية في شمال العراق على أرض العربية السعيدة أسوة بنظرائه من ملوك الطوائف الصغار[٩٥] الذين إستباحوا جسدها الممزق تمزيقا و تقاسموا أرضها و أهلها فيما بينهم دون حياء أو خجل من ولي أمرها و أمرهم أيضا الخلفاء المحمديين

---

[٩٣] تأسست هذه الدولة بعد إستقلالها عن فرنسا عام ١٩٥٤م بدعم من حليفتها أمريكا ردا على قيام دولة شيوعية في شمال البلاد بقيادة رئيس الجمهورية هوشي منه (١٩٥٤-١٩٦٥م) و بغية القضاء عليها و توحيد البلاد تحت لوائها مما أشعل الحرب الأهلية بين الدولتين (١٩٥٦-١٩٧٥م) لكن الإضطرابات السياسية و العرقية و الطائفية التي مرت بها إثر خلع آخر ملوكها التقليديين و قيام النظام الجمهوري عام ١٩٦٠م على يد رئيس الجمهورية ديام (١٩٦٠-١٩٦٨م) أدت إلى سقوطها بيد نظيرتها الشمالية الشيوعية بسهولة إثر إنسحاب القوات الأمريكية من هناك عام ١٩٧٥م (المؤلف) .

[٩٤] هو معز الدين إسماعيل بن طغتكين (١١٩٦-١٢٠١م) و أحد ملوك الدولة الأيوبية في اليمن (١١٧٣-١٢٢٩م) عرف عنه طغيانه و سفكه للدماء و تعصبه للمذهب الإسماعيلي و فرضه على الناس بالقوة إلى أن لقي مصرعه على يد شقيقه الناصر أيوب عام ١٢٠١م (المؤلف) .

[٩٥] أي عصر الدول المستقلة في اليمن الذي بدأ منذ تأسيس الدولة الزيادية في زبيد بمحافظة الحديدة عام ٨٥٤م في عهد الخليفة المحمدي المتوكل العباسي (٨٤٧-٨٦١م) (المؤلف) .

من بني العباس بعدما أصابهم الضعف و الهوان و تكالب عليهم الأعداء المتربصين الفرس و الأتراك و الشيعة آنذاك من كل حدب و صوب[٩٦].

و ما زاد من دهشتي أيضا شبهها الواضح بصنعاء العاصمة من أول نظرة ! فما إن أصبحنا على مشارف مطارها الدولي المعروف بمطار الجند[٩٧] الواقع عند مدخل المدينة مثله مثل مطار صنعاء الدولي و إن كان الأول يفوق الثاني في نشاطه الملاحي حركة و إزدحاما بالطائرات و شركاتها الدولية و ركابها من كافة الجنسيات ذهاباً و إياباً آنذاك ، و على الرغم من أن أرومته تعود إلى العهد الإمامي البائد أواخر خمسينيات القرن العشرين إلا ان رؤساء البلاد و على رأسهم عمنا[٩٨] بعد الثورة المباركة أعطوه الأولوية القصوى في سلم إهتماماتهم الرسمية قبل أن يخبو نجمه الصاعد في كبد سماء الملاحة الدولية و يفقد دوره المحوري في إزدهار حركة الطيران الداخلي و الخارجي بعد أعوام عجاف من عمر وحدتنا المباركة غير مأسوف عليه من أحد حتى من أبنائها الغيورين على مجدها الغابر على الإطلاق ليصبح فريسة سهلة للإهمال و التآكل يلتهمان بنهم شديد مبانيه الراقية الحديثة دون عقد أو إبرام .

---

[٩٦] يقصد عصر الضعف في الدولة العباسية (٨٤٧-١٢٥٨م) (المؤلف) .

[٩٧] إسم مديرية من مديريات محافظة تعز اقيم فيها أول مسجد في اليمن بعد إعتناق أهلها الإسلام عام ٦٢٩م (المؤلف) .

[٩٨] لقب رئيس الجمهورية علي عبدالله صالح بالنسبة لي (المؤلف) .

الشيء ذاته ينطبق على سور المدينة القديمة لحظة إقترابنا من بوابته الحبشية[٩٩] العتيقة المعروفة بباب السلاح أو قصر السلاح أو شيئا من هذا القبيل إسوة بتوأمه البعيد باب اليمن جملة و تفصيلا و دون زيادة أو نقصان من حيث نمط بنائهم الهندسي و مواد بنائهما و بناتهما الاتراك و تاريخ إنشائهما أواخر القرن التاسع عشر تحت حراسة مبنيين عسكريين يشاركونهما أيضا في لونهما الرمادي و مواد بنائهما و هندستهم المعمارية الحربية و تاريخ إنشائهما و وقوفهما قبالتهما من الناحية الأمامية ما عدا كونهما مخصصان للجيش التركي و ضباطه و جنوده و قادته من الرتب الصغيرة و الكبيرة على حد سواء و معسكرات تدريبية له في العراء و هوائه الطلق ، أحدهما يدعى دار العرضي[١٠٠] و الآخر دار السلاح .

كما أن ميدان ٢٦ سبتمبر لا يختلف كثيرا عن نظيره الكائن في قلب الأمانة[١٠١] التحرير بطوله و عرضه و أسواقه و متاجره المتعددة و متاحفه و مطاعمه و دوره السينمائية و بنوكه المتنوعة و إكتظاظ الناس مشاة و سائقين حولهما إكتظاظ البشر أمام خالقهم تبارك و تعالى يوم الحشر الأعظم منذ وضح النهار حتى حلول الظلام ، أما شوارعها

---

[٩٩] نسبة إلى حجر الحبش الرمادي اللون المستخدم من قبل أهل صنعاء في بناء القصور و الأسوار و المباني الضخمة ذات الطابع الحربي في العهد التركي العثماني الثاني (١٨٤٠-١٩٢٢م) ، و هو نوع من أنواع الصخور النارية الشديدة الصلابة الغالية الثمن لكلفتها العالية في تقطيعها و تشذيبها بحرفية تامة كي تكون صالحة لإستخدامها في البناء المعماري (المؤلف) .

[١٠٠] العرضي هي تحريف عامي محلي للإسم الأصلي للمبنى ألا و هو أردي از و معناها المساحة الزائدة باللغة التركية (المؤلف)

[١٠١] لقب عاصمة البلاد مدينة صنعاء لدى عامة اليمنيين (المؤلف) .

الأفعوانية الشاهقة فحدث و لا حرج حيث كثيرا ما ذكرني صعودنا الشاق و هبوطنا السلس المفاجئ و الخطر لها من خلال دروبها البهلوانية بنظيراتها في أحياء نقم و مسيك[١٠٢] و المشهد اللائي يرفعننا إلى سابع سماء ثم يخسفن بنا إلى سابع أرض كما لو كنا في قطار الرعب العملاق بمدن الملاهي الأمريكية ..... الخ .

لكن هذا التطابق الماثل أمامنا حينها لم يعكس لنا الحقيقة الدامغة حول هاتين المدينتين الكبيرتين من الألف إلى الياء ، بل لم يكن يعدو مجرد قشور ضباب خادع للأبصار سرعان ما ينقشع للأنظار تحت وطأة شمس البرهان الساطع بنوره الوضاح للعيان و يكشف لنا جميعا أن الحالمة[١٠٣] تفوق عاصمة البلاد تمدنا و تحضرا بشكل لم يسبق له مثيل ، و هذا ما لاحظته عندما إستقر بنا المطاف بإحدى فنادقها المتواضعة ذات النجمة الواحدة رغم تسميته على إسم مطار المدينة الدولي السالف الذكر أيضا حيث كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أقيم فيها داخل فندق أو حرمه السياحي و أحجز إحدى الغرف من صاحبها مقابل مبلغ من المال لفترة زمنية محددة و حمال يحمل أمتعتي و حقائبي المكتظة بالثياب إلى غرفتي المحجوزة سلفا مقابل عمولة زهيدة لا تسد الرمق تعرف بالبقشيش لإرتاح فيها مستفيدا من

---

[١٠٢] سمي هذه الحي بعد قيام الثورة بهذا الإسم نسبة الى الصحابي الجليل و أحد رواة الحديث النبوي الشريف و علماء الشريعة الإسلامية الأوائل في اليمن فروة بن مسيك المرادي (المؤلف) .

[١٠٣] لقب مدينة تعز لدى أهلها و المثقفين اليمنيين (المؤلف) .

تجهيزاتها الحديثة بكافة وسائل الراحة المتاحة للمرء من تكييف منعش و حمام جذاب خاص بك و أثاث مريح و نظيف و كراسي أنيقة و مائدة طعام عامرة بما لذ و طاب من المأكولات الشهية مزدانة بشرفة خلابة مكسوة بالهواء الطلق و أشعة الشمس البراقة تطل على حوض سباحة شاسع محاط بكراس و مظلات يدوية الصنع يرتادها المقيمون رجالا و نساء بثيابهم الشبه عارية أو لابسين من غير هدوم كما قال الفنان الكوميدي المصري عادل إمام في مسرحيته الشهيرة (شاهد ما شفش حاجة) يستحمون و يسبحون معا أم فرادى وسط مياهه اللازوردية الشفافة البراقة الشديدة النقاء كما لو كانوا على شاطئ البحر ، فضلا عن المقاهي و المطاعم و المراقص الليلية و بهو الإستقبال و قاعات المؤتمرات و صالات العرض الفنية و الملاعب الزاخرة بوجودها و لا سيما المصنفة ضمن قائمة الخمسة نجوم فما فوق بعدما كان ضربا من خيالي الخصب جراء ما أفرزته مشاهداتي المزمنة لمسلسلات الكبار و الصغار التلفزيونية على حد سواء بذاك الخصوص .

إلا أن هذا الفندق خيب توقعاتي السالفة الذكر تماما على الرغم من نظافته و أناقته الرائعتين ، فلم تكن غرفتنا المتواضعة تتسع لعائلتنا المكونة من والداي و جدتي و أشقائي بل لشخصين فقط بسرير واحد و مروحة باكستانية عادية معلقة على السقف الشاحب و أثاث تقليدي

تنعدم فيه الكراسي و مائدة الطعام حيث إفترشنا الأرض على مسانده و بطائنه المملؤة بالقش و القطن الخشن نتناول عليه أمام جهاز تلفزيون يابـاني قديم طعامنا المفضل من الفول المدمس المسحوق و المغمور بالزيت البارد في الإفطار و الغداء و العشاء ، نافذتها بلا شرفة عالية و إن أطلت على الخارج فلن تطل إلا على باحة شاسعة تزخر بأشجار الزينة الخضراء و ملعب رياضي مفتوح للهواة و موقف خاص للسيارات و مطعم مسقوف و منتزة صغير لعبنا فيه كثيرا خلال فترة إقامتنا هناك حيث رأينا البعض من سكان صنعاء المقيمين فيه الغير معتادين على نظافته الفريدة من نوعه بالنسبة لهم يمارسون هوايتهم المفضلة في قضاء الحاجة وسط الشوارع و الأماكن العامة التي ضجت من أفاعيلهم القبيحة تلك بين جدرانه الملونة ما تسبب في طردهم شرد طردة منه جراء سلوكهم المشين ذاك من قبل إدارة الفندق دون قيد أو شرط ، لذا آثرنا السلامة بعد ما حدث سلفا دون أن نمنع أنفسنا من القيام بنزهات مكوكية قصيرة الأمد حول المدينة الحالمة و ضواحيها كي نتعرف عن كثب على أحيائها الراقية و الشعبية و شوارعها الرئيسية و الفرعية و معالمها السياحية و التاريخية البارزة المجهولة بالنسبة لي منذ أعوام طوال غير مدرك السبب الحقيقي وراء إغفال عيناي المندهشتين لهذه المناظر الخلابة الساحرة الفاتنة المنقطعة النظير على رؤوس الجبال الشاهقة و فاقت ما لدى نظيراتها في صنعاء بأشواط كثيرة بدءً

من قلعة القاهرة العريقة المتربعة على عرش جبلها الشامخ صبر المتزمل بحلة قشيبة من المدرجات الخضراء المطرزة بالأزهار و الورود الجميلة بكافة الأصناف و الألوان من قمة رأسه حتى أخمص قدميه نزولا إلى الجحملية الشهيرة بسوقها الشعبي المتخم بكافة السلع الزراعية و الصناعية المحلية و لا سيما المنتجة من قبل الفلاحين و الحرفيين و بائعات الفل و الياسمين و الفواكه و الرمان و الخضروات و المنسوجات و الأقمشة القادمين من ريف صبر و وادي الضباب[١٠٤] و حيها الراقي الزاخر بمقرات أجهزة و مكاتب الدولة المدنية و العسكرية و من بينها مقر مؤسسة الجمهورية للصحافة و الإعلان و القنصليات و السفارات و المدارس الأجنبية و لا سيما القنصلية العراقية و المدرسة السويدية ، مرورا بالحوبان القريبة من محافظة إب و المعروفة بأساطيرها الشعبية التي يتداولها اليمنيون جيلا إثر جيل كأسطورة طاهش الحوبان[١٠٥] بمناطقها الصناعية و مصانعها و مزارعها النموذجية و لا سيما التابعة لمجموعة شركات هائل سعيد انعم القابضة[١٠٦]، علاوة على حوض الأشراف بميدانه الفسيح و حيه العريق تعتمر قمته منارة و قباب مسجد الأشرفية الفريد من نوعه قمته معبرة عن الآثار الحضارية

---

[١٠٤] منطقة ريفية تقع جنوب تعز (المؤلف) .

[١٠٥] أسطورة شعبية عن حيوان خرافي متوحش كان يتواجد في الأرياف الجبلية في العصور الوسطى يلتهم الماشية و الأطفال و النساء و الرجال ليلا ، و هذه الأسطورة ذائعة الصيت لدى سكان المناطق الوسطى و لا سيما سكان تعز و إب (المؤلف) .

[١٠٦] هي مؤسسة إقتصادية تجارية يمنية عملاقة أسسها هائل سعيد أنعم في عدن إثر شرائه شركة البيس الفرنسية عام ١٩٣٩م مقرها الدائم تعز منذ عام ١٩٧٠م و تمتلك العديد من الشركات التجارية و الإستثمارية و الصناعية و الزراعية و المالية و المصرفية داخل اليمن و السودان و الصومال و جيبوتي و إرتيريا و كينيا و إثيوبيا و فرنسا (المؤلف) .

و العمرانية التي خلفها خدام الحرمين الشريفين[١٠٧] سلاطين الدولة الرسولية [١٠٨] بعدما حولوا بلدهم الأصلي اليمن إلى حاضرة العالم الإسلامي و قبلته الثقافية و الإقتصادية و العلمية و التكنولوجية و الحضارية و السياسية و الصناعية و الزراعية و جعلوها إمبراطورية عظمى مترامية الأطراف في القرن الثالث عشر الميلادي تمتد من الأردن و فلسطين و الحجاز شمالا حتى البحر العربي جنوبا و من عُمان و الخليج العربي شرقا حتى الصومال غربا يخضع لحكمهم اليمنيون الشوافع و الزيود و الإسماعيليين و العرب و العجم من كافة الأديان و الملل و النحل طيلة قرنين من الزمان ، سيما و أنه يقع على مقربة من قصر ثعبات العريق حيث قسم الرسوليون مساحته الواسعة وسط نطاق جغرافي ضيق بأسلوب هندسي مبتكر فريدة من نوعه إلى منتزه و حديقة حيوانات و مكتبة عامة و جامعة و قاعة مؤتمرات و منتجع سياحي و دار لسك العملة الرسمية أيضا ، فضلا عن قلب المدينة التجاري بعماراته الحديثة و متاجره المتخمة بالبضائع و السلع المحلية و المستوردة من كل صنف و لون و شوارعه النظيفة العبقة برائحة الورود و الأزهار و أشجار الزينة الواقعة في صدورهن الإسفلتية

---

[١٠٧] لقب عثماني يطلق على من يحكم و يملك الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز قديما و السعودية حاليا و هي الكعبة المشرفة أو المسجد الحرام في مكة المكرمة و المسجد النبوي في المدينة المنورة (المؤلف) .

[١٠٨] هي إحدى الدول المستقلة في اليمن (١٢٢٨-١٤٥٤م) أسسها عمر بن علي الرسولي بعدما حلت محل الدولة الأيوبية عام ١٢٢٨م الذي اتى مع بني قومه المنتمين للغساسنة اليمنيين القادمين من مسقط رأسهم جمهورية تركمانيا و عاصمتها تعز ، و سموا بهذا الإسم نسبة إلى جدهم محمد بن هارون الذي كان رسول السلطان تورانشاه الأيوبي إلى اليمن (المؤلف) .

الخالية تماما من الأوساخ و القمامة و القاذورات و الفضلات البشرية خلاء الجسد من الدرن ضمن قالب جمالي خلاب يوحي لنا باننا في فرنسا و لسنا في اليمن ، و الأمر ذاته ينطبق على نظيراتها اللائي زرناهن زيارة خاطفة ككلية التربية التابعة لجامعة صنعاء آنذاك و مدرسة عمار بن ياسر النموذجية و مكتبة الوعي الثوري أول دار للنشر في المدينة أسسها الأديب الكبير و مثلي الأعلى في الكتابة و الأدب محمد أحمد عبدالولي[١٠٩] و بمحاذاتها أول شركة محلية للإنتاج الفني المعروفة باستديو ١٣ يونيو[١١٠] و التي عرفت العالم العربي برواد الأغنية اليمنية داخل الشطر الشمالي من الوطن كأيوب طارش عبسي[١١١] و محمد الحارثي[١١٢] و علي الأنسي[١١٣] و علي السمة[١١٤] عبر تسجيل أغانيهم التراثية الجميلة و العذبة لديها و توزيع ألبوماتهم الغنائية داخل الوطن و خارجها على مدى عقود من الزمن و حارة المظفر حيث يسكن صديق والدي من أيام الدراسة في الجزائر و مدير

---

[١٠٩] أديب يمني يساري جريء في كتاباته الإبداعية التي تعرض بسببها للقمع و الإضطهاد البوليسي من قبل السلطات الرسمية في الشطر الشمالي من الوطن و أحد رواد الرواية و القصة القصيرة في اليمن لقي مصرعه في حادث إنفجار طائرة دبلوماسية تابعة لوزارة الخارجية في الشطر الجنوبي من الوطن عام ١٩٧٤م ، من أهم أعماله : يموتون غرباء (رواية) و صنعاء مدينة مفتوحة (رواية) و الأرض يا سلمى (قصص) و شيء إسمه الحنين (قصص) و عمنا صالح (قصص) و بشر بن الحافي (مسرحية) (المؤلف) .

[١١٠] تأسست في تعز عام ١٩٧٦م و هي شركة متخصصة في إستيراد و تصدير التسجيلات الصوتية و المرئية المحلية و الأجنبية و صناعة شرائط الكاسيت و الفيديو و وكيل شركة روتانا السعودية في اليمن منذ عام ١٩٩٢م ، و سميت بهذا الإسم تيمنا بحركة ١٣ يونيو التصحيحية التي قادها رئيس الجمهورية الراحل إبراهيم الحمدي عام ١٩٧٤م (المؤلف) .

[١١١] مطرب شعبي عذب الصوت و أحد رواد الأغنية التراثية في تعز ، من أغانيه المشهورة (جوال) و (بعدوا) و (اشواقي) و (يا حمامة) و النشيد الوطني لجمهورية اليمن الجنوبي منذ عام ١٩٧٧م فالجمهورية اليمنية منذ عام ١٩٩٠م (المؤلف) .

[١١٢] مطرب شعبي اجش الصوت و أحد رواد الأغنية التراثية في شبام كوكبان بمحافظة المحويت ، من أغانيه المشهورة (اسال عن حالكم) و (القلب الظلوم) (المؤلف) .

[١١٣] مطرب شعبي عذب الصوت و احد رواد الأغنية التراثية في صنعاء ، من أغانيه المشهورة (طاب اللقى و السمر) و (خطر غصن القنا) و (انستنا يا عيد) و (ممشوق القوام) و (معشوق الجمال) و (نجوم الليل) و النشيد الوطني لجمهورية اليمن الشمالي منذ عام ١٩٧٩م (المؤلف) .

[١١٤] مطرب شعبي رخيم الصوت و أحد رواد الأغنية التراثية في صنعاء ، من اغانيه المشهورة (باله و الليل البال) و (يا لاقي الضايعة) (المؤلف) .

قسم الحسابات بفرع البنك المركزي اليمني الكائن بميدان ٢٦ سبتمبر عبدالواسع المقرمي في شقة متواضعة لا تليق بمقامه الوظيفي الرفيع ، و إنتهاء بما تبقى من مخلفات النظام الإمامي البائد في الحالمة بخيرها و شرها بعدما حولها الإمام أحمد حميد الدين عاصمة للبلاد عوضا عن صنعاء عام ١٩٤٨م حتى قيام النظام الجمهوري عام ١٩٦٢م ، و من ضمنهن معالم و مبان مثيرة للدهشة أصابتنا بصدمة ثقافية و حضارية عارمة أوشكنا من خلال الإنبهار بهن أن نعيد النظر في تقييمنا الأحادي الجانب للنظام الإمامي و حكمه الرجعي الكهنوتي المقيت الذي عفا عليه الزمن عندما زرنا متحف صالة الوطني و الذي كان فيما مضى قصرا من قصور الإمام المنتشرة في أرجاء ترابنا الوطني أكثر من المدارس و المستشفيات و المصانع و المزارع و إن إختلف عنهم تماما فيما يحتويه من معروضات و آثار و لوحات محلية و اجنبية نفيسة على مر العصور تفوق قيمتها الفنية ما جناه علي بابا من كنوز و أموال من رحم مغارة الأربعين حرامي[١١٥] بين ليلة و ضحاها في وقت كان الناس في بلادنا يلتحفون العراء من شدة الجوع و المرض و الفقر يبحثون عما يسد الرمق ، و الأمر ذاته ينطبق على حديقة الحيوانات المتواضعة و الملحقة بسورها الخلفي التي بالرغم من ضيق مساحتها و قلة حيواناتها و شح تمويلها المعتمد من الحكومة المركزية و السلطة

[١١٥] Yحدى قصص الف ليلة و ليلة الشهيرة (المؤلف) .

المحلية إلا أنها كانت الفريدة من نوعها في أرجاء البلاد حيث لم تحظ عاصمتها صنعاء بشرف إستضافة أو إقامة هذا الصنف من الحدائق المفتوحة المكلفة إلا بعد قيام الوحدة بستة أعوام .

كانت هذه المرة الأولى التي أقابل فيها الحيوانات و الطيور من كافة الأصناف و الألوان و الطباع البريئة و المتوحشة وجها لوجه بعدما كانت حبيسة أدراج مخيلتي الشاسعة المختزنة في جوفها الواسع كل تالد و وارد مما سجلته عيناي اللولبيتين خلال مطالعاتهما الحثيثتين لسطور كتب الأطفال و مناهج العلوم الدراسية و الأفلام العلمية عن الحيوانات و المسلسلات الكرتونية المذاعة على الشاشة الفضية ليل نهار ، و بت على مقربة تامة للغاية منهن بحيث أنني صرت ألامس أجسادهن الخشنة و أتحدث إليهن مباشرة و إن بحذر شديد دون حواجز أو عوائق تذكر عدا قضبان أقفاصهن و قد أكلهن الصدأ و شرب و أصابهن الهزال و الضعف تحت حراسة حارسهن الغافل بملء إرادته أو مقابل مبلغ من المال خارج إطار مرتبه الشهري الحكومي ، و من أكثر الحيوانات و الطيور اللائي أثرن إنبهاري العارم بهن طائر الطاووس بريشه الناعم الجذاب المزركش بألوانه البراقة و خيلائه الوقور عندما يتبختر في مشيته الرزينة ، و قرود الشمبانزي و الذئب البري المحلي و الضبع المعروف لدينا بالعريج و قرود المابول أو الرباح بلهجتنا المحلية و حيوان الظربان برائحته الكريهة دون أن أشعر

بوجودها أو أشتمها عن كثب أو تظهر أمام العيان و نظراتهم و ملامساتهم الفضولية له و لاسيما الأطفال منهم حيث إستعاض عنها بأنيابه و مخالبه الحادة لإبعادهم عن قفص العصافير المسجون فيه ، ثم بعد ذلك النسر الأمريكي و الصقر ملك الطيور و منافسه على زعامة الغابة ملكها الغير متوج الأسد و أفراد عائلته من اللبوات و الأشبال بلونهم جلدهم الترابي القادم من رمال الأدغال و البراري الإفريقية و رحيقها الأصفر الشاحب حيث كدت أفقد حياتي عندما التقط الحارس لي و أخوتي صورة فوتوغرافية مفبركة من طرفه كما جرت العادة مع أي زائر لقفص الأسود الحجري عندما يدمجون صورته بالقرب منهم عبر أدوات رسم خاصة وسط ساحة الحديقة الشبيهة بحوض سباحة جاف و التي كانت في يوم من الأيام حلبة مصارعة رومانية وحشية تتصارع الأسود الجائعة فيما بينها و تنهش لحم بعضها البعض أمام أنظار الإمام و حاشيته و أفراد أسرته و الزوار الأجانب في قتال عبثي لا ناقة لهن و لا جمل و ساحة إعدام مرعبة للثائرين على سيدها المعصوم سليل آل بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم من الخطأ و الخطيئة كما يزعم دون محاكمة حيث تناثرت رؤوسهم الصغيرة على الأرض بعدما فصلها الجلاد عن أجسادهم بسيفه الحاد نوعا ما أمام الملاء المرعوبين من جبروته و بطشه و من بينهم رأس قائد جيشه أحمد الثلايا الذي إنقلب و ثار عليه عام ١٩٥٥م من أجل شعب

جبان ناكر للمعروف أراد لهم الحياة فأرادوا له الموت بعد فشل ثورته العسكرية من نفس العام لتمتزج دمائهم الطاهرة نوعا ما بدمائهن البريئة شاهدة على وحشية بربرية تعود للعصور البدائية لنظام ثيوقراطي بدائي عفن عفا عليه الزمن حكم شعبه بالحديد و النار و جعلهم يكرهوا الدنيا و الآخرة بإسم الإسلام البريء منه براءة الذئب من دم يعقوب .

و قبيل رحيلنا عن الحالمة مررنا بمدينة الملاهي على طريق المطار و لهونا بألعابها المحدودة ضمن نطاق رقعتها الضيقة دون أن نكل أو نمل من الإستمتاع بهن أيما استمتاع و أيما مرح بين أجوائها المفتوحة على الهواء الطلق مباشرة و ملاهيها الوقورة و الهادئة دون أن تدب في نفوسنا البريئة و الرعب و الهلع كما يحدث في نظيراتها بميدان السبعين[١١٦] ، علاوة على بساتينها الخضراء المعبدة بالزهور و الورود الملونة من كل صنف و نوع و المسيجة بالقرميد الناصع البياض ما دفعنا منظرها الآخاذ إلى التريث في قرار رحيلنا عن أكبر محافظة في بلادنا من حيث عدد السكان و الثروات الطبيعية قبل أن نزور ثغرها الباسم منذ فجر التاريخ الأوساني[١١٧] حتى وقتنا الحاضر ميناء المخا أو ميناء البن كما يحلو لي و لغيري من الاوروبيين تسميتها لإرتباطها الوثيق بهذا المحصول النقدي الفريد الذي لم يولد سوى في موطنه الأصلي

[١١٦] ساحة إسفلتية في صنعاء على طريق التحرير – بيت بوس مخصصة للعروض العسكرية و تحيط بها جبال النهدين و مدينة الخرافي و منطقة حدة و حدائق الملاهي من كافة الجوانب (المؤلف) .

[١١٧] نسبة لدولة أوسان التي حكمت الساحل اليمني الممتد على البحرين الأحمر و العربي منذ الألف الأول قبل الميلاد حتى سقوطها بيد السبئيين عام ٦٧٠ ق.م (المؤلف) .

بين أحشاء بلادنا السعيدة الجبلية منذ فجر التاريخ و لكونها مسقط رأس مشروبها الساحر الذائع الصيت في أرجاء المعمورة بإسم القهوة التي اخترعها رجل الدين المتصوف الشاذلي[118] في العصور الوسطى و موطن صناعتها عبر مصانعها و مطاحنها المحلية و الأجنبية على أرضها و بوابة شهرتها التجارية إلى العالم عبر مينائها الذائع الصيت و علامتها التجارية المسجلة بإسمها (موكا) خلال العهدين العثماني الأول و الثاني [119] و العهد الامامي الأول[120] ما جعلها مطمعا للقوى الإستعمارية و لا سيما الفرنسيون و الإنجليز منهم .

كانت تصوراتي المسبقة عنها لم تخرج من الدائرة السلبية المفروضة عنها و المنبثقة لقراءتي المتأنية لما بين سطور التحقيق الصحفي التي أجراها أحد مراسلي مجلة ناشيونال جيوغرافيك الإمريكية الشهيرة[121] عن اليمن بعد عامين من قيام ثورة ٢٦ سبتمبر الخالدة عام ١٩٦٢م بعنوان (خلفيات القضية اليمنية) و لا سيما فيما يتعلق بملاحظاته و صوره الفوتوغرافية الدقيقة عما كان يعتبر في الماضي أهم ميناء في البحر الأحمر و العالمين العربي و الإسلامي على وجه الإطلاق

---

[118] علي بن عمر الشاذلي (١٣٥٤-١٤٢٥م) رجل متصوف يمني ولد في القرشية بمحافظة تعز و شيخ الطريقة الشاذلية في اليمن و إيران و إثيوبيا و الصومال في عصره و مؤسس مدينة المخا الحديثة في القرن الرابع عشر الميلادي (المؤلف) .

[119] الحكم العثماني أو الإستعمار التركي لليمن الشمالي مر بعهدين متفاوتين زمنيا : العهد العثماني الأول (١٥١٧-١٦٣٥م) الذي بدأ بإستيلاء السلطان العثماني سليم الأول عليها عام ١٥١٧م حتى جلاء الأتراك العثمانيين منها عام ١٦٣٥م ، العهد العثماني الثاني (١٨٤٠-١٩٢٤م) الذي بدأ منذ حلول الأتراك محل المصريين على اليمن عام ١٨٤٠م حتى جلائهم النهائي مجددا منها عام ١٩٢٤م (المؤلف) .

[120] يقصد بالعهد الإمامي الأول (١٦٣٥-١٨٢٤م) هي فترة استقلال اليمن الشمالي عن تركيا عن طريق الإمام الزيدي القاسم بن محمد عام ١٦٣٥م حتى سقوطها بيد الإستعمار المصري عام ١٨٢٤م ، و هي غير العهد الإمامي الثاني (١٩١٨-١٩٦٢م) الذي بدأ بإستقلال اليمن الشمالي الثاني عن تركيا عبر الإمام يحيى حميد الدين عام ١٩١٨م حتى قيام النظام الجمهوري عام ١٩٦٢م (المؤلف) .

[121] مجلة علمية محكمة صادرة عن الجمعية الجغرافية الإمريكية عام ١٨٣٧م (المؤلف) .

بأسلوب الصيد في المياه الراكدة كما هي عادة الإعلاميين الغربيين عامة و الاوروبيين خاصة حيال الآخر العربي و التركي و المسلم على مر العصور عندما أظهرها بشكل بائس تغمر الرمال المتحركة بيوتها و مساجدها و أبوابها و مينائها المتواضع و قلاعه الحصينة المحيطة به بعدما أكل الدهر منهن و شرب ، لكن ما إن ولجتها من بابها الرئيسي و مسجدها التاريخي الأعظم و الأقدم فيها و المسميان باسم مؤسسها و رائد نهضتها الأول الشاذلي حتى تبدد ما سبق من مخيلتي تماما ، فلقد عادت الحداثة و النشاط الإقتصادي إليها مجددا بعدما إختفت الرمال الزاحفة عنها إلى غير رجعة و أضحت عامرة بالمساكن و العمارات الحديثة المتواضعة و الشوارع الإسفلتية النظيفة المزركشة بالأشجار المزينة ببراعم الزهور المتربعة على عرشها الأخضر الحدائق و المنتزهات بورودها الملونة الفواحة ، أما مينائها التاريخي فلقد عادت إليه الحياة من جديد بعد تحويله إلى ميناء حديث عام ١٩٧٥م مجهز بأحدث اجهزة و آلات التفريغ و الأرصفة الصالحة لرسو السفن و إستقبال حاوياتها المتخمة بكافة السلع و البضائع المحلية و المستوردة و من بينها منتوجها الأثير و مصدر شهرتها العالمية ألا و هو البن و إبنه البار القهوة بأذواقهما المختلفة ، علاوة على صوامع الغلال العملاقة التي تتسع لأطنان مؤلفة من الحبوب بمختلف أنواعها من قمح و شعير و ذرة قادمة من داخل مزارع بلادنا الخيرة (و لا سيما في

محافظة تعز) و خارجها ، فضلا عن مصفاتها البترولية الصغيرة القادرة على تكرير آلاف البراميل من النفط المتدفق من ناقلاتها الضخمة الراسية على أرصفتها الإسفلتية و بمحاذاتها المحطة الكهربائية المركزية لتمويل الميناء و المدينة بأحيائها السكنية و ضواحيها الحديثة العهد بحاجاتها الملحة من طاقتها الحرارية التشغيلية و خصوصا خلال فصل الصيف ..... و غيرها من الأمور و المناظر الإيجابية التي لفتت نظري للمرة الأولى عنها و كادت تدفعني في قرارة نفسي إلى المكوث بين اهلها لأيام أخر ، لكن سبق السيف العذل بسبب إصرار والدي على العودة إلى صنعاء لضيق الوقت حيث لم يبق على عطلته الأسبوعية سوى يوم واحد فقط قبل أن يستأنف دوامه الرسمي في العمل ، فما كان أمامنا بد سوى العودة إلى العاصمة لنتمرغ في وحلها الآسن مجددا .

أما ما يتعلق بآخر المطاف لرحلاتي المكوكية المبكرة حول أرجاء وطننا المعطاء فحدث و لا حرج عندما رست باخرتها البرية أقصد سيارتنا الميمونة على شواطئ عروس البحر الأحمر السمراء الحديدة برمالها الخلابة و ترابها الخصب و معين سحرها الذي لا ينضب عطاؤه المضياف للقاصي و الداني لمن هب و دب من زوارها المحليين و سياحها الأجانب على حد سواء ، بدءً من زيارتنا المقتضبة لمركز المحافظة خلال عطلة المولد النبوي الشريف عام ١٩٨٣م عندما

بهرني تخطيطها الحضري و العمراني الراقي على نسق العمارة الاوروبية السائدة في مثيلاتها من البلدان الإستوائية الحارة في أفريقيا إلى حد فاق كل وصف و جعلني اشك في انتمائها الوثيق لليمن ! فمن يتأمل شوارعها النظيفة نظافة الثوب الطاهر من الدنس و عماراتها و بناياتها الشاهقة الناصعة البياض و حدائقها الغناء الخضراء المفعمة بكافة الزهور و الورود الجذابة من كل صنف و لون حيث خفف رحيقهن الآخاذ المنبعث من عبيرها الناعم علينا من حرارة جوها الخانق الذي لا يطاق ، فضلا عن غياب الفوضى الأمنية و المرورية بين أرجائها العذراء حيث لا يجرؤ أحد من سكانها المسالمين أم خارجها أن تسول له نفسه الأمارة بالسوء الإقدام على إثارتها أو إرتكاب فعل مخالف للنظام و القانون فيها جهارا و أمام الملأ و لو على سبيل المزاح السمج أو العادات و التقاليد القبلية و الطائفية العفنة كما يجري في صنعاء هذه الأيام[١٢٢] خوفا من رجال الأمن و عيونهم الساهرة التي لا تنام و قبضاتهم الحديدية التي لا تعرف الهزل طريقا إلى مهنتهم السامية آنذاك ، إضافة إلى كورنيشها الجميل المتواضع بموقعه الفريد على شاطئ الفازة الساحر نهارا الموحش ليلا حيث خضنا غمار مياهه الزرقاء المائلة للإخضرار الشاحب منذ الصباح الباكر بأجسادنا العارية المنتشية بقطراته المنعشة قبل أن نغادر رماله الذهبية و نقترب من جاره

[١٢٢] يقصد فترة الوحدة المباركة (المؤلف) .

الأعظم أو بالأصح بوابة البلاد إلى العالم على ضفاف البحر الأحمر ميناء الحديدة الذي تعود أرومته الى اواخر العهد العثماني الثاني فنظيره الإمامي البائد قبل أن يشهد المزيد من التطورات المحورية بعد قيام الثورة لم يسبق لها مثيل حيث تأملنا مليا الحاويات الحديدية العملاقة الممتدة على الرصيف المخصص لها المكتظة بالسلع و البضائع الصادرة و الواردة من داخل البلاد و خارجها المتراصة فوق بعضها البعض ضمن صفوف منتظمة تنظيما رائعا كما لو كانت بنيانا مرصوصا لإحدى الحصون أو القلاع العسكرية العثمانية بعد تفريغها من و إلى سفنها التجارية عبر رافعات ضخمة حديثة خلال ساعات ، فضلا عن صوامع الغلال الشاهقة المجهزة لتخزين ملايين الأطنان من الحبوب المحلية و المستوردة على حد سواء وفق الشروط و المعايير الدولية المطلوبة و على مقربة منها حوض بناء السفن المتخصص في صناعة السفن الكبيرة و إصلاحهن في حال ما أصابهن عطب أو ضرر ما منذ إنشائه عام ١٩٧٦م و مطاحن البحر الأحمر التي يعود تاريخها إلى عام ١٩٨٠م و التابعة لشركات رجل الأعمال الراحل محمد عبدربه القابضة منذ تأسيسها في أرض المهجر بالسودان عام ١٩٦٠م قادما من مسقط رأسه في رداع بمحافظة البيضاء ليكون من خلالها نواة إمبراطوريته الإقتصادية الممتدة بين أرجاء اليمن و السودان و مصر و القرن الإفريقي و شرق إفريقيا حيث تعتبر هذه المطاحن السالفة الذكر

حسبما قرات عنها في إحدى الإعلانات المروجة لها حسب زعمهم عبر دليل الهاتف و الصحف المحلية الرسمية من اهم مصانع الدقيق في الشرق الأوسط بعدما تحول القمح بحبوبه المغلفة و قشوره الصماء إلى دقيق ناعم مدعم بالعناصر الغذائية السليمة معد للإستخدام الأدمي ..... الخ .

تركنا الميناء العظيم بمعالمه الفريدة من نوعها مارين بسيارتنا العجوز من شارعه الرئيسي (الميناء) إلى شريان الحياة لقلب المدينة التجاري (شارع صنعاء) دون أن أعلم سبب تسميته بهذا الإسم (ربما مرده لأنه إحدى الطوق المؤدية للعاصمة صنعاء) نتجول بين أحيائه الراقية و نستحم بنوافيرها العامة و لا سيما نافورة الجرار الثلاثة بلونها الخمري و موقعها الأثير وسط أهم الفنادق السياحية في المدينة حيث سرعان ما أطفأنا النار المشتعلة في أجسادنا الفتية دون أن نخلع ثيابنا المبللة لتوها من مياه البحر قبل أن تتبخر من تأثير حرارة الشمس الملتهبة هنا بمياهها العذبة عذوبة الفرات و نلهو و نمرح بين قطراتها المتدفقة علينا تنسينا وجع الحرارة المؤلمة و تغسل أجسامنا المتعطشة للأمل و التفاؤل و الحياة و الحرية مما يكدر صفوها البريء من آلام و هموم و كروب أكل عليها الدهر و شرب ، و هو نفس شعور والدتي و شقيقتي اللتين لم تجرؤا على التصرف مثلنا عند النافورة خوفا و حياء من والدي و الناس و العادات و التقاليد البالية التي عفا عليها الزمن و لا

سيما المنبثقة من طائفتنا الزيدية و جعلتنا نكره الدنيا و الآخرة فإكتفتا بالنظر إلينا بسرور خافت من وراء الحجب و إرتشاف قوارير الميرندا الغازية لترطيب حلوقهن الجافة .

كما مررنا قبالة ميدان اللؤلؤة الرئيسي و تأملنا بأعجاب تصميمها الهندسي الرائع الفريد من نوعه رغم مناظرته لإخوته التؤام الكائنين بمدينتي أبوظبي و الكويت فمبنى فرع البنك اليمني للإنشاء و التعمير بطرازه الهندسي الفاخر الفائق بفخامته مبنى المقر الرئيسي بالأمانة فمدرسة الفتح النموذجية و هي أول مدرسة خاصة في البلاد قاطبة قبل أن نلج المطعم المجاور لها و المعروف بمطعم المرجان السياحي حيث كانت المرة الأولى التي أرى فيها مطعما مخصصا للمأكولات البحرية فقط و لا سيما وجبات الأسماك المقلية و المطبوخة ، علاوة على وجود أقسام خاصة بالعائلات فيه و هي المرة الأولى أيضا التي أرى مثل هذا النوع من الأقسام في إحدى المطاعم طوال حياتي بحيث يستطيع الزبائن القادمين من المناطق الريفية المحافظة و المتطرفة دينيا و لا سيما الزيدية (و نحن منهم) حسب زعمهم تناول طعامهم مع زوجاتهم و أولادهم بأريحية تامة لا يعكر صفوهم الأخرون أو يضايقونهم بنظراتهم و تصرفاتهم الفضولية ، و بما أني من نوعية الأطفال التي إعتادت على تناول الأسماك المعلبة النيئة الغير مطبوخة و لا سيما سمك التونة فلم أستسغ طعمها إثر طباختها بهذا الأسلوب

و لـو علـى سـبيل التجربـة أو المـذاق العـابر حيـث تناولـت غـذاءنا المـألوف حـين عودتنـا إلـى مقـر إقامتنـا لـدى منـزل أحـد أصـدقاء والـدي القـدامى مـذ كانـا زمـلاء فـي المدرسـة الأحمديـة بتعـز و الدراسـة الجامعيـة فـي الجزائـر و إثـر تخرجـه بـأربع سـنوات يعمـل مهندسـا مسـئولا عـن التوربينـات فـي محطـة رأس الكثيـب المركزيـة للطاقـة الكهربائيـة المهنـدس مـأمون باشـماخ ، و رغـم أصـوله الحضـرمية[١٢٣] المتسـمة شخصـيتها الغالبـة بالبخـل و الشـح الشـديد إن لـم نقـل الحـرص التـام مـع ضـيوفها أو أقـرب النـاس إليهـا ، إلا أن إستضـافته لنـا بصـدر رحـب علـى قـدر إسـتطاعته فـاق مـا أدلـت فنـادق المدينـة التـي لـم تتعـدى درجـات تقييمهـا السـياحي الخمسـة نجـوم بـدلوها فـي إستضـافتنا لحظـة وصـولنا المـاراثوني إليهـا بعـدما إكتظـت بنظرائنـا مـن المحافظـات الأخـرى الـذين هجمـوا علـيهن هجـوم الأكلـة علـى قصـعتها حيـث عجـزت عـن إيجـاد غرفـة شـاغرة و لـو بسـرير واحـد يتسع لعائلتنا الكبيرة بأفرادها السبعة !

كـان منزلـه بمثابـة نجـدة حاسـمة لنـا خـلال هـذا الوقـت الحـرج حيـث مكثنـا لديـه مـدة أسـبوع كامـل نرفـل بكرمـه الحـاتمي المقـنن لنـا مـن إسـتقبال و حفـاوة بالغـة إلـى حـد تخصـيص غرفـة نومـه الزوجيـة الفـاخرة علـى نمـط نظرائهـا فـي منـازل الأثريـاء المصـريين كمـا تظهرهـا مسلسـلاتهم الدراميـة دون أن تمـل مـن تكرارهـا لنـا آنـذاك لوالـداي و أنـا معهمـا حيـث كانـت

[١٢٣] نسبة إلى محافظة حضرموت (المؤلف) .

المـــرة الأولـــى التـــي أرى فيهـــا تلفـــازا ملونـــا بجهـــاز فيـــديو بـــداخلها داخـــل غرفـــة النـــوم ، إضـــافة إلـــى قضـــائنا وقتـــا ممتعـــا مـــع بناتـــه بغايـــة الســـعادة و المـــرح رغـــم عـــدم ســـابق معرفـــة بيننـــا و بيـــنهن و إن كـــان ربمـــا شـــعورنا بالوحدة أو الغربة من الأمور الطارئة اللائي دفعتنا لذلك ، من يدري ؟

لـــم نطـــل المكـــوث فـــي هـــذه المدينـــة الجميلـــة التـــي أســـرت مخيلتنـــا بســـحرها الفتـــان رغـــم مـــا يشـــوبها مـــن جـــو خـــانق و حـــار يكبـــل مشـــاعرنا المضـــطربة نحوهـــا حتـــى شـــدينا الرحـــال نحـــو مـــدن أخـــرى لا تقـــل أهميـــة عنهـــا فـــي قلـــب هـــذه المحافظـــة التهاميـــة[١٢٤] الآخـــاذة ، فـــي البـــدء كانـــت مدينـــة المنصـــورية حيـــث تأملنـــا بقايـــا ســـكة حديـــد الحجـــاز الممتـــدة مـــن اســـطنبول مـــرورا بالولايـــات العثمانيـــة الواقعـــة فـــي الشـــام و العـــراق و الحجـــاز و نجـــد حتـــى تعـــز و صـــنعاء بـــاليمن التـــي أنشـــأها العثمـــانيون منـــذ مطلـــع القـــرن العشـــرين لتســـهيل رحـــلات الحـــج و تشـــديد قبضـــتهم العســـكرية و السياســـية علـــى مـــا تبقـــى مـــن إمبراطوريـــة الرجـــل المـــريض أكثـــر مـــن ذي قبـــل و لكـــن بعـــد خـــراب البصـــرة ، حيـــث تزودنـــا بـــالوقود بإحـــدى محطاتهـــا البتروليـــة المتنـــاثرة علـــى طـــول الطريـــق بفضـــل قربهـــا مـــن مصـــفاة رأس الكثيـــب النفطيـــة التـــي أنشـــئت منتصـــف الســـبعينات لتكريـــر الـــنفط المحلـــي و المســـتورد علـــى حـــد ســـواء ، عـــلاوة علـــى محطـــة الكهربـــاء المركزيـــة الســـالفة الـــذكر و معامـــل تكريـــر

[١٢٤] نسبة إلى إقليم تهامة الذي يمتد من الحجاز في السعودية إلى تعز في اليمن و هي كلمة يمنية قديمة تعني (السهول) و قد أطلق اليمنيون القدماء هذا المصطلح الجغرافي على منطقة السهول الفاصلة بين المنطقة الجبلية العالية و سواحل البحر الأحمر (المؤلف) .

السكر و الملح و حوض بناء السفن و مطاحن الدقيق الصغيرة و مصنع تعليب الأسماك ..... و غيرها من المشاريع الإنتاجية التي تبرز أهميتها الإقتصادية كميناء حيوي منافس لنظيريه الحديدة و المخا يرفد البلاد بمداخيل هائلة من العملات الصعبة منذ اليوم الأول لتاسيسها الحديث العهد بعدما كان و جزر الزبير المحيطة به فيما مضى مجرد مستعمرات إيطالية منذ عام ١٩١٨م حتى تحررها من شرهم الإستعماري الفاشي على يد الإنجليز عام ١٩٤٤م ثم الأمم المتحدة التي أعادتهم إلى حضن وطنهم الأم عام ١٩٤٥م .

ثم مررنا بمدينة حيس المشهورة بمنتجاتها التقليدية الذائعة الصيت لدى سكان صنعاء و ضواحيها من الفخار الملون و ورود الفل و الياسمين المعروفة لدينا بالحيسي .

و فجاة و دون سابق إنذار ، هطل علينا وابل من المطر الغزير لحظة إقترابنا من مدينة الحسينية الشهيرة بمحاصيلها الوفيرة من فاكهة الفقراء[١٢٥] و مهرجانها الموسمي لفنونها و ألعابها الشعبية التي تظهر للعيان مدى رشاقة أبناء تهامة الجسدية و لياقتهم البدنية الفائقة عبر رياضة القفز فوق الجمال و الرقص على الخناجر .... الخ ، و مع ذلك فجحيمها المطري أجبرنا على الرحيل منها مبكرا دون أن تتاح لنا

[١٢٥] يقصد بها فاكهة الموز و سميت بهذا الإسم لأنها أرخص الفواكه ثمنا حتى و لو إرتفع سعرها و غلا (المؤلف) .

فرصة الإستمتاع بمزاياها السياحية و الزراعية تلك قبل أن تفاجئنا الشمس بأشعتها الساطعة مجددا و نحن نطرق باب الكظايم أحد أبواب مدينة زبيد التاريخية دون أن ندخلها و نتمتع بمعالمها القديمة و الحديثة على حد سواء حتى بعدما غزا التحديث العمراني إلى ما وراء أسوارها الطينية الصلبة و أنشئت العديد من المصانع و المزارع و المصالح الحكومية و التجارية و البنى التحتية و الطرق الإسفلتية و لا سيما شركة معين لصناعة المياه المعدنية الذائعة الصيت على جسدها الرملي الأسود و رغم معرفتي الأولية عن تاريخها المجيد عبر مناهجنا الدراسية التي تعود جذوره إلى عهد مؤسسها والي اليمن في العصر العباسي الأول محمد بن زياد عام ٨٥٥م لتكون عاصمة دولته الزيادية و باكورة الدول المستقلة بنعراتها السياسية و الطائفية و المناطقية و القبلية و بذرة الفرقة بين اليمنيين أنفسهم مجددا كما هي عادتهم بعدما إستغلوا ضعف المحمدية تحت حكم بني العباس و إنفصلوا عنها دون قيد أو شرط و هم الذين كانوا خاضعين لها خضوع العبيد لسادتهم القرشيين دون أن يجرؤوا على التمرد ضدهم طيلة قرنين من الزمان .

و هذا ما ينطبق على جارتهم بيت الفقية التي مررنا منها مرور الكرام رغم تغني الرحالة الاوروبيين بها عبر سطور مذكراتهم اليومية و على رأسهم المستشرق الالماني كارستن نيبور خلال رحلته الدنماركية إليها عام ١٧٦٢م و عاصمة قبيلة الزرانيق المشهورة بثوراتها و تمرداتها

القبلية التي دوخت الجيشين التركي العثماني و النظامي الإمامي مرارا و تكرارا قبل أن تنطفئ شعلتها المتقدة و يتم ترويضهم بعد الثورة مباشرة ، و مدينة باجل المشهورة بمصانعها المحلية الفريدة من نوعها في هذه المحافظة و لا سيما أقدم مصنع حديث للغزل و النسيج في البلاد بأكملها أنشئ في العهد الأمامي البائد و مصانع المواد الغذائية و الإسمنت و الحديد و الصلب .

و أخيرا ، شارفت رحلتنا التهامية على النهاية عندما رست سيارتنا العجوز على شواطئ بلدة الخوخة المتواضعة بمساكنها و منشأتها السياحية المصنوعة من القش حيث لم يكن قد زحف العمران الحديث إليها بعد ، و هذا ما كان واضحا أمام ناظري العسليتين لحظة تأملي الشديد لأجساد الأطفال العارية ذكورا و إناثا لا تستر عوراتهم ورقة توت واحدة على الأقل و صدور و بطون أمهاتهم العاريات المعتادات على ذلك منذ الأزل .

لكن هذه المناظر المريبة لم تمنعني من الإستمتاع برؤية النخيل الراقص مع جيرانها من أمواج البحر الساجر بإنسجام تام تحت أنغام الرياح الهادئة قبيل الغروب و جمع القواقع و الأصداف المبعثرة بين رمال الشاطئ الذهبية و سماع أصوات قاع البحر عبر أفواههن الجوفاء و ركوب إحدى القوارب التقليدية التي تعمل بمحرك كهربائي للقيام بجولة

سريعة مثيرة للإهتمام بصحبة والدتي و شقيقتي و شقيقي الصغير على متنه دون أن نخشى السقوط في غياهب قعره العميق معتمدين على ربانها المحنك رغم بلوغه من العمر عتيا حيث قضى معظمه صيادا متمرسا بين مياهه اللازوردية من دون أن تفارقه الإبتسامة البريئة شفتيه المشققتين الشاحبتين بعدما أكل منهما الدهر و شرب ، كما لم أمل من رؤية السفن التقليدية العملاقة الراسية بالقرب منا و تتسع لخمسمائة شخص و نيف و لا سيما سفينة الحامد نسبة لقائدها و بطلها الصغير حامد الخوخي الذي واجه بصدره العاري حوت العنبر العملاق الشرير بشجاعة نادرة فاقت شجاعة رجال بلدته أجمع بعدما أثروا الإنسحاب على مجابهته رغم قتله العديد منهم و تحطيم العديد من قواربهم و منازلهم ليلقى مصرعه بصعوبة على يد هذا البطل المغوار إثر معركة حامية الوطيس جرب بينهما وسط الساحل المقابل لمكان سفينة الحامد ذاتها ضحى من خلالها بروحه الطاهرة و هو في عمر الزهور دفاعا عن بلدته التي خلدت ذكراه العطرة بدفنه داخل سفينة الحامد و جعلها نصبا تذكاريا تحيي سيرة بطولته العظيمة و ترسخ ملحمته الأسطورية في مخيلة أطفال قريته جيلا إثر جيل .

و برحلة الخوخة وصلت رحلة ذاكرتي الخصبة حول مدن بلادي إلى نهاية المطاف رغم أن ما زرته من مدن و قرى يزخر بها وطني يعد مجرد غيض من فيض لم يبلغ المراد المنشود من سعيي المتواصل

للتعرف عليه عن قرب أكثر فأكثر ، إلا أنه جعلني ألم بحقائق عديدة عنه لم أعهدها عن بلادي من قبل حيث لامست من خلالها بأناملي الجبل و السهل و البحر و الصحراء لأول مرة عن كثب و رأيت مدنا و قرى فاقت بجمالها و تحضرها و تمدنها ما لدى صنعاء العاصمة قاطبة و هي التي ظلت تزعم على لسان شعرائها المنافقين الأوائل منهم و المعاصرون بأنها مهد الحضارة و التمدن و حوت كل فن على مر العصور بالرغم من أن الذي يتأملها بإمعان شديد يدرك جليا أنه أمام مدينة إفريقية متخلفة بدائية من جنوب الصحراء الكبرى تعود إلى العصور الحجرية التي عفا عليها الزمن ، فضلا عن أنها زادت من تمسكي العارم بثورتنا المباركة أكثر من ذي قبل بعدما أدركت أن خيرها الوفير قد عم بلادنا السعيدة من الشمال إلى الجنوب و من الشرق إلى الغرب دون أن تلقى كلمة شكر أو إمتنان واحدة لها من قبل أبنائها الجاحدين)

ما إن كاد مازن غافر ينهي جملته الأخيرة على مسامع مارد الثورة لتوديعه قبيل آذان المغرب بدقائق حتى تفاجأ بتدفق مياه غزيرة من غطاء عنقه الحديدي و فوهة مدفعه الأملس دون أن يستغرب حدوثه البتة في قرارة نفسه المرهفة الحائرة و صدوره من دبابة مصنوعة من الصفيح رغم قدرها الرفيع و مكانتها العظيمة في وجدان اليمنيين جيلا إثر جيل حيث لم تعد قادرة على تحمل مرارة غيض من فيض ما راواه

لـه قبـل قليـل عـن أمـور و أحـداث مخجلـة و مشـينة مـن واقـع بـلاده المريـر و المعـاش و بيئـة مجتمعـه الفاسـدة يشـيب لهـا الولـدان و ينـدى لهـا الجبـين حولتـه بـين ليلـة و ضـحاها مـن إنسـان سـوي و مسـتقيم إلـى شـخص غريـب الأطـوار أسـوة بأبنـاء جلدتـه المرضـى النفسـيين المعتـوهين بـأمراض وهميـة مـن إختـراع عقـولهم السـمجة و البليـدة مـا أنـزل الله بهـا مـن سـلطان صـارت فـي عـرف مجتمعنـا الفاسـد قرآنـا كريمـا غيـر قابـل للـنقض أو النقـد أو حتـى التمـرد ضـدها على مـر الزمـان و إخـتلاف العصـر و الآوان .

(النـــــهايـــــة)